

نصر حامد أبو زيد

إستر نيلسون

صوت من المنفى

تأملات في الإسلام

ترجمة نهى هندي

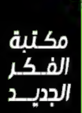
سيرة

Voice of an Exile: Reflections on Islam|
Nasr Abu Zaid, Esther Ruth Nelson
Praeger 2004
© Esther Ruth Nelson - 2014

صوت من المنفى
تأملات في الإسلام
الطبعة الأولى : ٢٠١٥
رقم الإيداع : ٢٠١٤/١١٨٠٧
الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٦٣٠٦-٥١-٦
الغــــلاف : حاتم سليمان

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة .
تليفــون : ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد اليكتروني : info@kotobkhan.com
موقع اليكتروني : www.kotobkhan.com





صوت من المنفى

تأمّلات في الإسلام

إستر نيلسون

نصر حامد أبو زيد

ترجمة

نهى هندي



فهرسه أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

نيلسون، إستر
صوت من المنفى : تأملات في الإسلام : حوار مع نصر حامد أبو زيد /
ترجمة نهى هندي. — القاهرة : الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٤
٣١٢ ص ، ٢٠ سم
تدمك : ٦ - ٥١ - ٦٣٠٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ـ الرجال – تراجم
٢ـ أبو زيد، نصر حامد
أ‌ـ هندي ، نهى (مترجم)
بـ العنوان

رقم الإيداع : ١١٨٠٧ الطبعة الأولى ٢٠١٥

تقديم

بدأت معرفتي بقصة نصر حامد أبو زيد من خلال قراءتي لمقال ماري آني ويفر "ثورة متسللة" في جريدة "النيويوركر"، (٨ يونيو ١٩٩٨). انجذبت من فوري لقصته. . إسلاميون أجبروه على ترك جامعة القاهرة، المؤسسة التي يدرّس بها، متهمينه بالهرطقة. ما هي جريمته؟ ببساطة، ذكر نصر في كتاباته، أن التاريخ والمناخ الثقافي لا بد أن يؤخذا في الاعتبار لدى تفسير القرآن. بالإضافة لذلك، طرح تفسيراً مجازيًا للقرآن عوضًا عن التفسير الحرفي الجامد لهذا النص المقدس. في يونيو عام ١٩٩٥ أعلنت محكمة الاستئناف أن "كتابات أبو زيد في حد ذاتها أثبتت أنه مرتد"[1]. هدد الإسلاميون حياته، لم يعد قادراً على التدريس، وصار محاصراً في منزله محاطًا بالحراس المدججين بالسلاح. لم يكن هذا كافيًا، طالب المحاميون الإسلاميون بالفصل بينه وبين زوجته الدكتورة ابتهال يونس، الأستاذة بجامعة القاهرة، على خلفية أن المرأة المسلمة لا يمكن أن تكون متزوجة من غير المسلم، ونصر بعد إعلانه مرتداً لم يعد مسلماً. ما تلا ذلك كان

---

[1] Mary Anne Weaver, "Revolution by Stealth," *The New Yorker* (June 8, 1998): 40

رحيلهما معًا إلى هولندا، ومنذ ذلك الحين ونصر يقوم بتدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة لايدن.

بدأ زوجي عام ٢٠٠٠ العمل في شركة بترول بالمملكة العربية السعودية، ومنذ ذلك الوقت قسمت وقتي بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة. حين أكون موجودة بالولايات المتحدة أقوم بتدريس الدراسات الدينية في جامعة فيرجينيا كومنويلث بريتشموند. اكتشفت نصر مرة أخرى في فبراير ٢٠٠٢ لدى قراءة مقابلة أجراها معه دانييل دي كاستيلو في دورية "التعليم العالي" The Chronicle of Higher Education (٨ فبراير ٢٠٠٢) بعنوان "باحث إسلامي بالمنفى"، وشعرت من جديد بانجذابي لقصته. ذكر نصر في هذه المقابلة: "إننا نعاني في العالم العربي كيف يدور الحديث بين المفكرين وأنفسهم، في حين أن السبب الرئيسي وراء ظاهرة الإرهاب هو غياب أي مجال عام لتبادل الأفكار".

بحماس شديد عرضت المقابلة على رئيس القسم د. كليف إدواردز، علق قائلا: "يبدو لي في الواقع، لو أنك مسافرة للشرق الأوسط عبر أمستردام فلتتوقفي لإجراء مقابلة مع نصر أبو زيد". أجبت: "نعم، نعم، بالطبع. هذا ما أريد فعله بالضبط. لكن هل سيوافق على مقابلتي؟ وإن وافق، ماذا سأخبره؟ كيف سأشرح له ما هو الشيء الذي جذبني وما زال يجذبني لقصته؟".

ربما كان لهذا الأمر علاقة بنشأتي في بوينس آيرس بالأرجنتين. أنا ابنة لاثنين من التبشيريين البروتستانتيين الأصوليين، أمضى والديّ عمرهما في محاربة الهرطقة، وفي غمرة اقتناعهما بأنهما مرسلان من قبل الله، كرّسا حياتهما لخدمته. لقد كانت وظيفتهما "امض في أنحاء العالم، وقم بإلقاء

مواعظ الإنجيل على كل مخلوق" ، واثقين من أنه "من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدن"[2] .

لكن والداي لم يكونا على القدر الكافي من القوة لتهديد الآخرين بالموت، كما يبدو صعبًا تصورهما يفعلان شيئًا كهذا. على الرغم من ذلك، كانا قد وضعا الله بأريحية في صفهما، أدركا الحقيقة من خلال تفسير معين للنص المقدس، ولم يكونا مهتمين بإدانة هؤلاء الذين يفهمونه بشكل مختلف باعتبارهم ذاهبين للجحيم. كما يبدو لي غريبًا باستمرار هو أن مفهوم الهرطقة في أيامنا هذه، مع مرور الوقت، يمكن ـ بل وعادة ـ يصبح هو الحقيقة غداً. في هذه الأثناء، هؤلاء من يعلنون كمرتدين ويوصمون كمهرطقين، يفقدون كرامتهم، يتم التمييز ضدهم واضطهادهم، بل وغالبًا يخشون على حياتهم. لم أقتنع يومًا بالخطاب الأصولي الذي دافع عنه والداي، لكن الأصولية كنظام لا تملك حدوداً آيديولوجية، لا عجب إذن أنني شعرت بهذا الانجذاب لقصة نصر.

أنا ممتنة لرئيس القسم د. كليف إدواردز لتشجيعي على التواصل مع نصر، فدون تشجيعه المستمر لم يكن هذا الكتاب ليرى النور، وهو نفس شعوري تجاه جهود سوزان ستاسزاك ـ سيلفا، المحررة بمجموعة "جرينوود" للنشر. لقد أسهمت بخبرتها واستعدادها المبهج للانغماس في التفاصيل اللامتناهية لتحضير الكتاب للنشر. اتخذ الكتاب شكله النهائي بعد أن فردت أوراقي فوق منضدة المطبخ لدى أختي بيتي في مطبخ منزلها بريدوود فيرجينيا، وبدأت بالتدريج في سرد النقاط الأساسية وكتابتها على اللاب توب. لم تعبأ بيتي بهذه الفوضى في منزلها فقط، بل زودتني بمنزل

---

[2] Mark 16:15-16, Authorized King James Version

مريح. إن وجود أخت على هذا القدر من الطيبة والحب لهو شيء يصعب الحصول عليه. بالإضافة لصبر أبو زيد اللامتناهي على شرح العقيدة الإسلامية لي ومحاولته الدائمة بتطبيقها على تجربته الحياتية الخاصة، لقد كان نصر يوضح باستمرار أن التجربة الشخصية لا يمكن فصلها عما ينجزه العالم من البحث العلمي، لأنها التربة الخصبة التي ينمو بها.

كانت مقابلتي الأولى مع نصر في كافيه أسفل محطة قطار لايدن في مايو ٢٠٠٢. بينما كنا نتحدث مع تناول الشاي والقهوة لاحظت أكمام نصر تحت سترته الزرقاء ترتفع ست إنشات كاملة، وأكسبني هذا إحساساً أنني أمام رجل على أهبة الاستعداد أن يبدأ العمل من فوره، وكان هذا ما حدث. لكن ما لفت انتباهي، وأصواتنا تختلط مع أصوات القطارات حولنا، هو شخصية نصر الدافئة والمتعاطفة والكريمة التي تعكس طبيعة رجل ولد ليكون معلماً.

اقترحت على نصر أن يكتب كتاباً عن نفسه، ليس فقط مركزاً على الأحداث التي أدت لنفيه (على أن يتم كتابتها) لكن موضحاً المسار الحياتي الذي صاحبه في رحلته البحثية. كيف توصل لهذه الرؤية في تفسير القرآن، وهي الرؤية المختلفة عن الفهم الشائع. أكد لي نصر: "أود لو أكتب كتاباً كهذا بالإنجليزية، لكنني أتحدثها أفضل مما أكتبها، هذه مشكلة بالنسبة لي".

"وهنا يأتي دوري"، أخبرته، "سأساعدك على رواية حكايتك. إن تخصصي في اللغة الإنجليزية كان في الكتابة والبلاغة"، وبالنهاية ما نتج عن ذلك كان ثمرة تعاوننا معاً. فوق كل شيء أردنا أن نوضح لقارئنا أن الإسلام مثل كل الديانات المنتشرة، يعبر عن نفسه في عدة أشكال وأنماط، فلا يوجد إسلام واحد. كما نؤمن أن الحوار بين المسلمين (كما هو بين غير المسلمين)

حول أنماط التعبير المختلفة للإسلام هو عامل أساسي في تشجيع التفاهم داخل وخارج الإسلام، ولو ساعد هذا العمل في بلوغ تلك الغاية سنعتبر أنفسنا نجحنا بالفعل.

إستر نيلسون

الفصل الأول

المنفى

رحلت عن وطني مصر عام ١٩٩٥، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت أستاذاً للغة العربية والدراسات الإسلامية في موسسة أكاديمية شهيرة ـ جامعة لايدن بهولندا ـ والتي أنشئت عام ١٥٧٥. تقع لايدن في جنوب أمستردام مسافة ثلاثين دقيقة باستخدام القطار من وسط المدينة.

قضيت نهاري يوميًا في الإشراف على تلاميذي، أستكمل أبحاثي وكتابتها وأتناقش مع زملائي، أحضر المؤتمرات، وأتحدث للجمهور في المناسبات والفاعليات المجتمعية، إنها طريقتنا نحن الباحثين في خلق ونشر المعرفة. أما ليلاً فأحلامي عن مصر تراودني، لقد ولدت بها، وما زالت مياه نهر النيل تجري في عروقي، لقد شكلتني مصر وحتى هذه اللحظة فأنا مصري حتى النخاع.

ولدت في العاشر من يوليو عام ١٩٤٣ في قحافة، قرية صغيرة في دلتا النيل على مقربة من محافظة طنطا، لأبوين فقيرين مكافحين. تعرضت

مبكراً لمفهوم العدل، العدل الذي يقع في قلب القرآن، والذي عملت على تطوير مفهومه في أبحاثي، خاصة في تطبيقه في الشئون الاجتماعية، لكن دعيني هنا لا أستبق الأحداث. أحيا حاليًا بالمنفى، بعض الحقائق الخاصة بالقضية التي أدت لنفيي معروفة بشكل كبير، لكن ما زالت بعض الحقائق خافية، وما يلي هو بيان ما حدث.

في مايو ١٩٩٢ تقدمت بأوراقي لنيل درجة أستاذ لقسم اللغة العربية بجامعة القاهرة، كان مجمل ما أنتجت أحد عشر بحثًا وكتابين للجنة الترقيات. عهدت اللجنة بأبحاثي للجنة مصغرة قوامها ثلاثة أساتذة ليقوموا بتحكيمها علميًا. الأساتذة هم د. عبد الصبور شاهين، أستاذ بكلية دار العلوم وخطيب أصولي بجامع عمرو بن العاص في القاهرة القديمة، د. محمود علي مكي، أستاذ الدراسات الأندلسية بجامعة القاهرة، و د. عوني عبد الرؤوف، أستاذ اللغويات بجامعة عين شمس. وكانت مهمة لجنة الترقيات كتابة تقرير بناء على تقرير اللجنة المصغرة، وإرساله مع خطاب التوصية الخاص بها لعميد الكلية.

مضى سبعة أشهر، مدة أطول من المعتاد لمجريات تلك الأمور بأربعة أشهر كاملة، وفي الثالث من ديسمبر ١٩٩٢ علمت بقرار اللجنة برفض منحي الترقية. لاحقًا، اكتشفت أنني كنت قريبًا جداً من نيل النسبة المطلوبة للترقية، فحصلت على ستة أصوات من أصل سبعة، وليس رفضًا بالإجماع كما أشاع التقرير الرسمي بعد ذلك. أما زملائي الأساتذة في قسم اللغة العربية، فقد قدموا تقريراً إيجابيًا، يؤكدون فيه عمق معرفتي بالتخصص، وإسهاماتي العلمية في مجال الدراسات الإسلامية، واستخدامي للطرق

المستحدثة للبحث العلمي ومبدأ الاجتهاد. يؤمن الكثير من المسلمين اليوم بأن أبواب الاجتهاد قد أغلقت منذ عهد الإسلام التقليدي في القرن الثالث عشر، وهو ما يعني أن على الباحثين اليوم أن يعتمدوا على أفكار واستنتاجات ما قبل القرن الثالث عشر لتطبق اليوم على أمة الاسلام. فلا وجود ولا داعي للإتيان برؤى جديدة عن القرآن، من خلال تطبيق قواعد البحث العلمي الحديثة على النص المقدس. حصلت على تقييمين إيجابيين من أصل ثلاثة من الأساتذة المنتمين للجنة، لكن شاهين لم يعطني تقييمًا مماثلاً، بل ـ طبقا له ـ تشكل كتاباتي "ضموراً للضمير الديني" مصحوبًا بحالة من "الإرهاب الفكري"، وشبّه أبحاثي بأنها "إيدز ثقافي" و"محاولة علمانية ماركسية لهدم المجتمع المسلم المصري"[3].

اختلف شاهين مع بعض الأمور التي ذكرتها بأبحاثي، منها إشارتي للنسخ المختلفة من المصحف ـ وهي كلمة تعني حرفيًا كتابًا ـ التي تم تداولها في وقت النبي محمد. إن المصحف هو الكتاب المحتوي على القرآن، رغم أننا حين نتحدث عن القرآن نعي أن القرآن ليس محدوداً بالمصحف. القرآن يقيم بذاكرة الحافظ، لذا حين يتحدث المسلمون عن القرآن فنحن نشير لما يمكن حفظه وتناقله شفويًا، وحين نتحدث عن المصحف فهو الكتاب الذي كتب به القرآن. حين توفي النبي محمد عام ٦٣٢، كانت هناك العديد من نسخ القرآن المتداولة بين تابعيه، وأراد العوام نسختهم الخاصة. على الرغم من هذا ظل التناقل الشفوي – وما زال في بعض الحالات ـ الوسيلة الأولى

[3] Fauzi M. Najjar, "Islamic Fundamentalism and the Intellectuals: The Case of Nasr Hamid Abu Za[i]d," *British Journal of Middle Eastern Studies* 27, no. 2 (2000): 179.

لتناقل النص المقدس بين الأجيال. النسخ الأولى من المصحف كتبت بحروف عربية، في هذا الوقت لم تكن الحروف منقطة أو مُشكّلة، ولم يكن هذا يهم كثيراً، لأن النص المكتوب لم يتعد كونه وسيلة مساعدة لذاكرة الحافظ.

جاء الخليفة الثالث عثمان بن عفان، ليصبح المسئول عن وجود نسخة موحدة من القرآن. كان النبي محمد قبل وفاته قد بدأ في مهمة توثيق الوحي في شكل نص مكتوب، ومن أجل اتمام هذه المهمة، استخدم الكُتّاب مواد للكتابة فوقها مثل الصخور وأوراق النخيل، وبالتالي كان النص المكتوب موجوداً بالفعل قبل مجيء الخليفة عثمان بن عفان. لكن كانت هناك طرقًا مختلفة لحفظ ونطق القرآن لاختلاف اللهجات التي تحدث بها تابعو النبي، ولم يكن لدى النبي شعور بمشكلة تجاه هذه الاختلافات، كيف يمكن فرض لهجة واحدة على أي حال؟

لكن في عهد خلافة عثمان، اختلف الجنود في ثكناتهم لدى تلاوة القرآن، حين استرجع كل منهم ما حفظه حسب الطريقة التي تعلم بها، لاحظوا بعض الاختلافات التي نبتت من اختلاف اللهجات التي يتحدثونها، فكل منهم جاء من خلفية غير خلفية الآخر، فما كان منهم إلا أنهم بدأوا اتهام بعضهم البعض بالتغيير في النص القرآني المقدس، وبسبب هذا الخلاف قرر عثمان بن عفان أن تكون هناك نسخة موحدة للقرآن.

اجتمعت لجنة أصدرت لاحقًا المصحف العثماني، وتم حرق باقي النسخ، فنشأ نزاع مع الآخرين الذين لم يريدوا التخلي عن نسخهم الخاصة، لكن القرار كان بالفعل قد اتخذ. هذا هو التاريخ، كان هناك عدة مصاحف مختلفة متداولة أيام النبي وقراءات مختلفة وليس أكثر من قرآن،

ولم تكن تلك معلومة بجديدة على شاهين، الرجل الذي نال درجة الدكتوراه في تاريخ القرآن. لقد اقتبست منه كمرجع بشكل واضح مما كتبه هو سابقًا عن وجود هذه النسخ المختلفة في المجتمعات الإسلامية الأولى، لماذا إذن يناقض نفسه ويحاججني في هذا الأمر؟

اعترض شاهين أيضًا على ما ذكرته من البعد البشري للنص القرآني، فلطالما أصرت النظرة الأصولية للإسلام على أن القرآن هو كلمة الله غير المخلوقة الخالدة، ولأنه كان دومًا موجودًا فهو لم يخلق قط.

لقد أوحي بالقرآن للنبي محمد في القرن السابع، حينها لم يكن للجزيرة العربية فكرة عن تحليل النص سوى قراءته حرفيًا وتطبيقه كما هو بشكل مستقيم في أي زمن وفي أي مكان. نتج عما سبق، أن تاريخ الإسلام لم يعرف كيف يمتلك وجهة نظر نقدية للنص، وهي الممارسة التي عرف بها الباحثون اليهود والمسيحيون. على الرغم من هذا وجد عدد من الباحثين الإسلاميين الذين جادلوا هذا المنهج الأرثوذكسي، من التابعين لمدرسة التحليل المنطقي "المعتزلة" التي ظهرت في القرن التاسع تحت الحكم العباسي (٧٥٠ ـ ٩٣٥). عارض المعتزلة أبدية النص القرآني، موضحين أن ظهور القرآن في وقت وزمان معينين، يجعل منه بالفعل مخلوقًا، وأصروا على الفارق بين حكمة الله الخالدة والتي تتعدى إدراك الانسان، وبين كلمة الله المخلوقة والقابلة للتحليل المنطقي. أما وقد تم تهميش المعتزلة بعد عقدين من الزمن فقط، اختفى تأثيرهم، لكن ظل تراثهم الفكري حيًا يتناقل عبر الأجيال. أعتقد أنه لكي نفهم القرآن، يجب أن نقرأه بشكل

مجازي وليس بشكل حرفي، كما أعتقد أيضًا أنه من أجل فهم النص القرآني لا بد من الأخذ في الاعتبار السياق الثقافي، حيث تم استقباله.

أعرف جيدًا أن أبحاثي مثيرة للجدل، وأحمل عبء التنقل بين الأفكار، لكن أليس هذا هو الهدف من المؤسسة الأكاديمية والبحث؟ الأفكار، المناقشات، التدريس والبحث. المناخ في مصر حاليًا لا يمثل سوى الركود الفكري في دراسة الدين، لقد أنتج الافتقار لأي مساحة عامة لتبادل ومناقشة الأفكار عقلية محاصرة، وبالتالي أصبح عرض أي شروح أو تأويلات جديدة للدين فعل كفر. وعلى اتساع العالم الإسلامي، لا يوجد في جامعاته أي مدارس فكرية أو دراسات مقارنة، بل الكثير من الوعظ، وبالتالي فاستخدامي لطرق غير تقليدية في البحث العلمي كان كفيلاً بأن ينعتني بالردة.

نشأت حرب كلامية بين الإسلاميين، الذين اعترضوا على النتائج التي توصلت إليها في بحثي عن القرآن، وبين المفكرين الأحرار الذين روعوا من موقف جامعة القاهرة، التي لعبت دور الميت في هذه القضية. تركت الساحة للإسلاميين - الذين وصفوهم بالفتوات - ليتحكموا في القرارات الأكاديمية التي كانت يجب أن تصدر عن الجامعة.

ونتيجة لهذه الفتونة حرمت من حقي في الترقي لمنصب أستاذ جامعي.

فماذا كان حقيقة هذا الصدام؟

الأمر يمكن النظر له من زاويتين، يتشبث الإسلاميون بالماضي، وهو ما يروق لمن يجدون في التغيير والتطور وضعًا يهدد وجودهم. أما المفكرون

الأحرار مثلي، فلا نعتبر التراث الإسلامي مقدسًا في ذاته، لقد نبعت الدراسات الإسلامية دائمًا من الفهم البشري للدين، ومع تقدم الثقافة ونموها، تحتاج مهارتنا الفكرية للتطور في تعاملها مع القرآن أيضًا. إن مناهج البحث الحديثة يمكنها أن تساعدنا في معرفة كيفية تطبيق القرآن بطريقة مفيدة ذات جدوى في عالمنا المتغير. لم يكن خلافي قط حول الدين، لكن حول الفكر الديني (وهو فكر بشري) يأتي وفي هذه الحالة بشكل خاص من الإسلاميين. وعلى الرغم من صدام الآيديولوجيات، فأنا مقتنع بأن شاهين سمح لخلافه الشخصي معي أن يسيطر على تقييمه الموضوعي لأبحاثي. لقد كان أحد أعضاء اللجنة الذين صوتوا ضدي، وأعتقد أنني أعرف لماذا.

أشرت في مقدمة كتابي "نقد الخطاب الديني"[4] للعلاقة التي تربط بين خطاب الإسلام السياسي في مصر والفضيحة الاقتصادية والاجتماعية التي تسببت فيها شركات توظيف الأموال الإسلامية. لقد نشر شيوخ الإسلاميون عددًا من الفتاوى يدينون بها النظام البنكي الحالي في مصر، لأنه يعمل على فائدة ثابتة، وهو الربا كما وصفوه، ومن هنا تأتي حرمانيته.

انتشرت شركات توظيف الأموال الإسلامية كمؤسسات بديلة للتعامل الربوي للبنوك الغربية. هذه الشركات الاستثمارية ومن ضمنها مجموعة الريان، والتي ارتبط بها شاهين، ادعت أنها أنشئت حسب المبادئ الإسلامية، ونتيجة لهذه الفتاوى، أودع الكثير من المصريين أموالهم في هذه الشركات، والتي كانت موضوع فضيحة عام ١٩٨٨. وضع مئات الآلاف من المصريين ثقتهم في ممثلي هذه الشركات، وانجذبوا للطابع الديني الذي

---

[4] نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، مطبعة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٢.

داعب مشاعرهم، وخسروا مدخراتهم، واتهم شاهين، المستشار الديني لشركة الريان، بالتلاعب بمدخرات المودعين.

هكذا أدرك شعور شاهين بالإهانة لدى قراءته لمقدمة كتابي، وهو أحد الكتابين اللذين تقدمت بهما للجنة الترقيات بالجامعة. في تقريره، لم يعلق على مجمل أعمالي البحثية، بل لم يتعرض بالنقد لمنهجية البحث التي استخدمتها. حين قرأ أساتذة القسم التقرير، الذي بموجبه رُفضت ترقيتي، احتشدوا معترضين وأرسلوا بخطاب للعميد. ذكروا به أن شاهين لم يطلع على عملي البحثي، ولم يكن على معرفة بالتطورات النظرية التي قمت بها في علم السيميوطيقا. كما ذكروا أنه إما لم يقرأ أعمالي كاملة أو أنه فشل في تقديرها، وأن تقريره تعدى وظيفة اللجنة المضطلعة بتقييم أبحاثي، ليقوم بالحكم على مرجعيتي الدينية وليس مقوماتي الأكاديمية.

تجمعت خيوط القضية في يد مأمون سلامة، رئيس جامعة القاهرة، تقرير اللجنة التي رفضت ترقيتي، تقرير القسم الإيجابي، بالإضافة لتقرير الكلية. ومنصب رئيس الجامعة لمن لا يعرف هو منصب سياسي، وبالتالي حرصًا منه على وظيفته، وتجنبًا لاستثارة الإسلاميين في الجامعة، وجد سلامة أنه من الأسهل رفض الترقية عن التعرض للب المشكلة، وهي تلاعب فصيل سياسي بمقدرات الجامعة. رأى سلامة أنه يمكنني التقدم لنيل الترقية مرة أخرى والحصول على منصب أستاذ بعد عدة شهور في هدوء دون استثارة لحفيظة الإسلاميين، لأن محاولة التوصل لحل توافقي كانت أمرًا خطيرًا. للأسف، لم يتصرف سلامة بطريقة أكاديمية مسئولة، وأطاح فشله في اتخاذ موقف بمهنية الأكاديمية، وهذا بالنسبة لي هو الأمر الجلل.

كان عبد الصبور شاهين بجانب وظيفته كأستاذ بجامعة القاهرة، هو خطيب جامع عمرو بن العاص الموجود بمصر القديمة. يوم الجمعة الموافق ٢ أبريل ١٩٩٣، أي ليس بعد وقت طويل من رفض الجامعة منحي الترقية بشكل رسمي، قام شاهين من على منبر المسجد بإعلاني مرتداً. الجمعة التي تلتها ٩ أبريل كان خطباء المساجد حول مصر يتبعون خطاه، بمن فيهم خطيب مسجد صغير في قريتي الأم قحافة، وهو صديقي الذي تربيت وتعلمت وحفظت القرآن معه في الكُتاب. في النهاية، أكسب قرار الجامعة برفض الترقيه لهذا الادعاء وزناً، ومع إعلاني كمرتد من قبله، تقدم المحامي الإسلامي محمد صميدة عبد الصمد مع ستة من زملائه برفع قضية ضدي أمام قسم الأحوال الشخصية بمحكمة الجيزة في ١٠ يونيو ١٩٩٣ للتفريق بيني وبين زوجتي د. ابتهال يونس، أستاذة اللغة الفرنسية المساعدة بجامعة القاهرة، على خلفية ارتدادي عن الإسلام.

تنطوي الشريعة على القوانين المستقاة من القرآن والسنة النبوية - مجموع الأحاديث التي رويت عن النبي وأفعاله التي رويت عنه ولم تذكر بالقرآن. يدعي الإسلاميون أن قانون الشريعة هو قانون إلهي غير قابل للتعديل أو التطوير وصالح لكل زمان ومكان. أنا ومعي آخرون على النقيض من ذلك، نرى أن قانون الشريعة هو تفسير بشري للمبادئ التي ذكرت بالقرآن والتاريخ الإسلامي. الإسلام دين مرن، وحين نتعامل بمبادئ المنطق مع النصوص المقدسة، فإننا نحسّن من وضع الفرد والمجتمع من خلال تطبيقهم للتفسير القرآني في ضوء كلمة الله.

في مصر، انتهى وجود المحكمة الشرعية خلال حكم جمال عبد الناصر (١٩٥٢ ـ ١٩٧٠) في مقابل نظام قضائي علماني، مع وجود استثناء وحيد وهو قانون الأسرة. لذا ذهبت قضيتي لتنظر من قبل محكمة الأحوال الشخصية، تبعًا لاستخدام مبدأ يعود للقرن التاسع يطلق عليه "الحسبة"، وهو المبدأ الذي يتيح لأي مسلم أن يقاضي من يراه يزدري الإسلام، دون الحاجة لأن يكون الشخص الذي يتقدم برفع القضية طرفًا فيها.

هكذا كانت الحسبة في حالتي، في الإسلام، ليس من حق المرأة المسلمة أن تتزوج من هو على غير ملتها. وبعد أن تم اتهامي بالارتداد عن الإسلام، تمت مقاضاتي للتفريق بيني وبين زوجتي، ليس من قِبَلها، بل من قِبَل مجموعة من الإسلاميين. زواجي بالطبع لم يكن أمرًا مهمًا بالنسبة لهم، لكنهم أرادوا أن تقضي المحكمة باعتباري مرتدًا، وكانت فرصتهم الوحيدة هي من خلال استخدام مبدأ الحسبة. وعلى الرغم من أن تلك الثغرة كانت المسئولة في النهاية عن اتهامي بالردة، إلا أنه نتيجة لجهود المحامية منى ذو الفقار، تم تمرير قانون لعام ٢٠٠٠ يغلق تلك الثغرة، والتي بغيابها رفضت المحاكم سماع قضايا مرفوعة من نفس النوعية ضد العديد من المفكرين والفنانين. لقد أخبرتني منى حينها "خسرنا في معركة ظالمة، لكننا ربحنا الحرب".

اتهمني عبد الصمد وزملاؤه أنني نشرت مواد تخرج عن الملة، وهو ما أقره عدد من العلماء ذوي الحيثية. لو أن المحكمة رأت في كتاباتي شيئًا إلحاديًا، فلن تكتفي فقط بالتفريق بيني وبين زوجتي، بل سيتم فصلي من وظيفتي التدريسية بالجامعة. كما نشر أحد محرري مجلة "اللواء الإسلامي"

الأسبوعية الوسطية، وهي الممولة من الحزب الحاكم، تحقيقًا في ١٥ أبريل ١٩٩٣ بعنوان "المهرطق أبو زيد" وصورني كشخص يهدد المرجعية الدينية والروحية للطلاب، مطالبًا رئيس جامعة القاهرة برفدي.

كان الوسط الثقافي في العالم العربي والإسلامي آنذاك متوترًا. كيف يحدث هذا؟ ماذا عن حرية البحث العلمي بالجامعة؟ كيف يمكن أن يصبح إيمان فرد الشخصي قضية للنقاش العام تنظر أمام القضاء؟ طالبت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان الحكومة المصرية بتوفير حراسة لحمايتي الشخصية أنا وابتهال. لقد قتل المتطرفون من الحركات الإسلامية عام ١٩٩٢ المفكر العلماني المصري فرج فودة، وهو مفكر علماني مصري، وفي ١٩٩٤ حاولوا إنهاء حياة نجيب محفوظ، الحاصل على جائزة نوبل في الآداب بطعنه في رقبته، وهو الأمر الذي لسخريته تركه عاجزًا عن الكتابة بيده. لقد خرجت الأمور عن السيطرة، أو على الأقل هذا ما بدا لي.

نجح الإسلاميون في إلصاق تهمة الردة بي، ومنذ ذلك الحين طالب خطباء المساجد حول مصر بهدر دمي، معلنين أنني في الوقت ذاته لا يحق لي كمرتد أن أظل متزوجًا من امرأة مسلمة. لذا تحتم عليّ أنا وابتهال أن نظل محتجزين في شقتنا، في الوقت الذي انتشرت فيه قوات الشرطة حول الحي، شعرنا بالخطر الذي يهدد حياتنا. شعرت ببعض الراحة حين حكمت محكمة الجيزة لصالحي في يناير ١٩٩٤، لكن هذا الارتياح لم يدم طويلاً، فلقد تم نقض الحكم باستخدام المادة الثانية من دستور عام ١٩٧١، والتي تقر بأن الشريعة هي المصدر الأساسي للتشريع في القانون المصري (وهو التعديل الذي قام به أنور السادات ليروق للإسلاميين) واتهمتني المحكمة بإنكار

"وجود بعض المخلوقات مثل الملائكة والشياطين رغم ورود آيات القرآن الكريم قاطعة الدلالة فى ذلك"، وذكرت "أنني قمت بتوصيف بعض الصور القرآنية عن الجنة والنار على أنها خيالية" وأنني أؤمن "بأن النص القرآني هو نص بشري" وأنني دعوت "لاستخدام العقل في استبدال المبادئ المستقاة من القراءة الحرفية لنص القرآن بأخرى حديثة وإنسانية ومتقدمة، خاصة فيما يتعلق بالمواريث والمرأة وأهل الذمة من المسيحيين واليهود وملك اليمين"[5].

في ١٤ يونيو ١٩٩٥ فقط بعد مرور أسبوعين من قرار جامعة القاهرة بترقيتي لدرجة أستاذ، بالرغم من كل اللغط الذي دار حولي وحول أبحاثي، حكمت محكمة القاهرة بأن كتاباتي بالفعل تثبت أنني مرتد، وبما أن القانون الإسلامي يمنع الزواج بين مسلمة ومرتد فقد حكمت أيضًا بإبطال زواجي بابتهال. كأن هذا كله لم يكن كافيًا، صدرت فتوى من قبل أيمن الظواهري من تنظيم الجهاد، التنظيم الإرهابي السري المتهم باغتيال السادات، تقول إن إهدار دمي صار واجبًا إسلاميًا. بعد مضي عدة أسابيع قام فريق من الباحثين يعرفون باسم جبهة علماء الأزهر في محاولة لاستتابتي بمطالبة الحكومة بأن تنفذ العقوبة القانونية للمرتد وهي القتل.

شعر الإسلاميون ومعهم شاهين بسعادة بالغة بحكم المحكمة، وفي ١٦ يونيو ١٩٩٥ أثناء إلقائه الخطبة في مسجد عمرو بن العاص، قال عن حكم

---

[5] Nasr Abu Zaid, "Inquisition Trial in Egypt," *Recht van de Islam* 15 (1998): 52

المحكمة: "لقد قضت المحكمة بحكمها النهائي بعد نظر القضية أمامها لمدة عامين، واقتنعت بأن أبو زيد هو رجل مرتد يجب فصله عن زوجته"[6].

في ٣ يوليو عام ١٩٩٥ توجهت لجنة الحريات الأكاديمية باتحاد دراسات الشرق الأوسط لأمريكا الشمالية بخطاب للرئيس حسني مبارك، معربة فيه عن قلقها تجاه الحكم الصادر ضدي، والتي وصفته بأنه "يحد بشكل كبير من حرية البحث العلمي والنشر لزملائنا في مصر"، وأنه "غير متوافق مع المعايير العالمية للحرية الأكاديمية وحقوق الإنسان"[7].

لكن حتى هذا النوع من المساندة لم يكن ليلغي حكم المحكمة ضدي. حين صعد مبارك للحكم بعد اغتيال السادات، قام بإصدار قانون يوفر الحصانة لقرارات المدعي العام وزملائه، وهو ما يشعر حياله المفكرون المصريون بالرضا، نتيجة للاستقلال الذي يتمتع به النظام القضائي مكتسبًا هذه الحصانة. أود لو أن هذا النظام يمارس سيادته في قضيتي، دون تدخل أي شخص، مبارك أو غيره.

مساء يوم ٢٣ يوليو ١٩٩٥ كنت وزوجتي على متن طائرة في طريقها لإسبانيا. كان لابتهال خططها لقضاء شهر سبتمبر في مدريد بعد حصولها على منحة هناك. كانت خطتها المبدئية أن تذهب وحدها، لكن بعد كل ما حدث، قررنا الذهاب سويًا مبكرًا. أتذكر أنني أخبرتها "لا أريد أن أعود لمصر مرة أخرى، ذلك السجن". في ٢٥ أكتوبر ١٩٩٥ كنا في لايدن بهولندا.

---

[6] Najjar. "Islamic Fundamentalism and the Intellectuals, " 194

[7] نفس المرجع السابق، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

في الخامس من أغسطس عام ١٩٩٦ أيدت المحكمة العليا قرارها بتاريخ ١٤ يونيو ١٩٩٥ ، وذكرت أسباب إدانتي كالتالي :

ـ أنكر أن الله ذو العرش العظيم، وأنه تعالى وسع كرسيه السماوات والأرض، وأن من خلقه الجنة والنار والملائكة والجان، رغم ورود آيات القرآن الكريم قاطعة الدلالة فى ذلك .

ـ وصف القرآن بأنه "منتج ثقافى" ، وعليه ينكر سابقة وجوده فى اللوح المحفوظ .

ـ وصف القرآن بأنه نص لغوي (وهو ما يتضمن تكذيب النبي محمد في تلقيه للوحي من الله) .

ـ وصف علوم القرآن بأنها تراث رجعى، وهاجم تطبيق الشريعة، ونعت ذلك بالتخلف والرجعية، زاعماً أن الشريعة هى السبب فى تخلف المسلمين وانحطاطهم .

ـ الإيمان بوجود ميتافيزيقي ينم عن عقل غارق في الخرافة .

ـ وصف الإسلام بأنه دين عربى ، نافيًا عنه عالميته وأنه للخلق أجمع .

ـ القول بأن تثبيت القرآن فى قراءة قريش كان لتحقيق السيادة القرشية التى سعى إليها الإسلام (النبي محمد كان قرشيًا) .

ـ إنكار حجية السنة النبوية .

ـ الدعوة للتحرر من النصوص الشرعية ، بزعم أنه ليس فيها عناصر جوهرية ثابتة ، وأنها لا تعبر إلا عن مرحلة تاريخية ولت .

- وصف أتباع النصوص الشرعية بأحد أشكال العبودية[8].

وبالتالي، أصبح جليًا أنه في العقل الجمعي للمحاكم المختلفة في مصر، كنت متهمًا بالكفر والردة. أبدى العديد من المفكرين المصريين استياءهم وألمهم الشديد تجاه هذا الحكم، وخاصة أن قرارات المحكمة العليا غير قابلة للنقض، حتى إن بعضهم ذهب لوصف هذا اليوم الخامس من اغسطس لعام ١٩٩٦ بأنه أسود يوم في تاريخ مصر الحديث. ووصف متحدث باسم منظمة حقوق الإنسان الحكم قائلا بأنه "صدمة كبيرة لنا، ضربة قاصمة لمصر وصفعة موجهة للمجتمع المدني، وحد لحرية الرأي والاعتقاد ورخصة شرعية بالقتل". كما وصف فهمي هويدي، كاتب مقال مصري معروف، قرار المحكمة بأنه "أحد أعراض انهيار المجتمع، لن يتناقش أحد بعد اليوم، ستخلو الساحة إلا من القضاة والعنف"[٩].

ذكر الكاتب المحافظ محمد عمارة المعروف بدفاعه عن حرية الرأي، أن قضيتي هي قضية فكرية وليست جنائية، ولو أن أبحاثي يجب مناقشتها فليكن ذلك من خلال نقاش فكري، وليس قاعات المحاكم، وأضاف أن القرآن لم يذكر عقوبة المرتد، أما عقوبة الموت فهي مبنية على الحديث "من بدل دينه فاقتلوه"، وكان ترك الديانة في ذلك الوقت بمثابة الخروج عن الجماعة وخيانتها. إن الايمان حسب وصف عمارة محله القلب[10]، وهو ما يؤكده النص القرآني "لا إكراه في الدين" (سورة البقرة: ٢٥٧).

---

[8] نفس المرجع السابق، ص ١٩٤ - ١٩٥.

[٩] نفس المرجع السابق، ص ١٩٥.

[10] نفس المرجع السابق، ص ١٩٦.

ويقول سعيد العشماوي، قاض متقاعد ومن كبار الباحثين الإسلاميين: "بالنسبة لي، المخيف في واقعة أبو زيد، أن المحاكم ليس لها سلطة قضائية للحكم على إيمان أو كفر شخص ما، يمكنها فقط الحكم بناء على الأدلة المادية وليس الأفكار، لكن في قضية أبو زيد كانت الأفكار قيد المحاكمة. هذه هي المرة الأولى التي تعلن فيها المحاكم ارتداد شخص ما في التاريخ الحديث. إننا نعود لعصر محاكم التفتيش"[11].

لا أريد أن يؤخذ عني انطباع أنني ضد الإسلام، بل على العكس من ذلك، أنا لست سلمان رشدي جديداً. إن أحد أكبر مخاوفي أن يعتبرني الغربيون ناقداً للإسلام. هذه ليست الصورة كاملة، أنا معلم وباحث ومفكر. أرى دوري هو إنتاج الأفكار، كما أتعامل مع القرآن كنص إلهي أوحي به للنبي محمد. هذا النص وصلنا في صورة لغة بشرية هي اللغة العربية، وبالتالي كانت أبحاثي تدور حول نقد الخطاب الإسلامي. لقد بينت كيف أن المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تستخدم الخطاب الديني لتستحوذ على السلطة، وقد هدد ما كتبته هؤلاء من يمتلكونها. هذا لا يمنع أنني أعرّف نفسي كمسلم، ولدت مسلماً وتربيت مسلماً وسأعيش مسلماً وسأموت إن شاء الله مسلماً.

---

[11] Mary Anne Weaver, "Revolution by Stealth," *The New Yorker* (June 8, 1998): 44

إن هؤلاء ممن يحاولون تقويض أبحاثي يقولون: "إن هذه الكتب لا تصل لشيء، دعوه يقول ما يريد"[12]، مصرون على إهمال أفكاري بمجرد إشاحة النظر عنها، وهذا حقيقي، فأنا حر فيما أكتبه، لكن بالنظر للجانب الآخر فأنا حر لأن أقول وأكتب ما أريد خارج الجامعة، لكن حيث نحتاج لحرية الرأي بشدة تم إسكاتي. أستطيع كتابة كل الكتب التي أريدها، بل والدعاية لما يطلق عليه البعض هرطقة، لكن ليس مسموحًا لي تحت أي ظرف التدريس بالجامعة. هذا ما أراه مكمن الخطر الشديد، أي حرية هذه التي لا تتيح لي ترجمة أفكاري؟ لقد كانت الحرب الدائرة هدفها إسكاتي، وفصلي من الجامعة كان السبيل لذلك.

خلال بداية صيف عام ١٩٩٥ بعد أن أعلنت المحكمة إنهاء زواجي، تلقيت مكالمة تليفونية من امرأة لها ابنة بالمرحلة الابتدائية. كانت المرأة محترمة للغاية، أخبرتني: "ابنتي في المرحلة الابتدائية، لكنها منزعجة للغاية من الحكم، إجبارك على التفريق بينك وبين زوجتك.. هل يمكننا زيارتك؟".

كان منزلنا في ذلك الوقت ممتلئًا بالزوار المساندين لنا في وضعنا الحالي. كنا خارج القاهرة حين هاتفتني السيدة، لكنها أخبرتني أن ابنتها لا تزال حزينة، لذا أرادت زيارتي، لم تكن لتتصور أن محكمة يمكن أن تقضي بالتفريق بين رجل وزوجته رغمًا عنهما، تحت عباءة الدين. كيف يمكن

---

[12] Ayman Bakr and Elliott Colla, interview with Nasr Hamid Abu Za[i]d about ideology, interpretation, and political authority. "Silencing Is at the Heart of My Case," *Middle East Report* (November–December 1993): 29.

هذا؟ في مصر تظل الأسرة كيانًا مقدسًا، لذا لم تكن أمور كالانفصال والطلاق من الأمور الهينة. وعلى الرغم من أنها كانت فتاة صغيرة، كانت تأخذ الدين بجدية، فلقد أصرّت على ارتداء الحجاب، وعلى الرغم من المسافة بيننا إلا أنهم جاءوا بالفعل لزيارتنا. كنت سعيداً لاستقبالهم، وكان المميز بتلك الزيارة، هي حقيقة أن هؤلاء مثل غيرهم من عموم المصريين يعرفون القليل أو اللاشيء حول كتاباتي وأبحاثي، بل ولم يستطيعوا أن يفهموا طبيعة الجرائم التي من المفترض أنني ارتكبتها لأستحق ما قضت به المحكمة. لن أنسى يومًا ما محبتهم ومساندتهم تجاهي أنا وابتهال. لقد كانت تلك الزيارات مصدر قوة وراحة.

وجدت أيضًا في استجابة العديد من النساء المصريات اللائي أجريت معهن مقابلات صحفية ما يبهجني. فلقد أقررن معظمهن أنهن لسن على دراية وفهم بما فعله نصر أبو زيد، لماذا هذه العقوبة؟ لماذا الإصرار على الطلاق؟ لماذا هدم أسرة؟ لم يكن لأي من هذا معنى لهن. لقد كن مهتمات بشكل خاص بمصير الأطفال، ولم يكن يعرف معظم الناس أنني لم أنجب. لكن على الرغم من ذلك، كان اهتمامهن تأكيداً لأهمية الأسرة لدى المصريين. أتذكر إحدى النساء بشكل خاص، كانت أمية، لكن كان ذهنها متقداً، قالت: "فلنفترض أن الرجل قال بالفعل كل تلك الأشياء الفظيعة عن الله والقرآن، أو أنه مرتد، لكنني عرفت أن له زوجة مسلمة جيدة، فلو كانت كذلك وتريد أن تعيش معه لماذا لا نتركهما وشأنهما؟ ربما تستطيع لاحقًا أن تقنعه بأن يصبح رجلاً أفضل"، هذه المرأة غير المتعلمة بفهمها للقضية أثبتت لي كيف أنه على الرغم من الطابع البطريركي للمجتمع

المصري، تستطيع المصريات مقاومة فرض نمط سلبي للحياة عليهن، وتحمل مقاومتهن في قلبها احتمالية هز تلك البنى البطريركية، ممهدات بذلك الطريق لمجتمع أكثر عدلاً.

في نفس الوقت، انتشرت النكات ورسوم الكاريكاتير في المجلات والصحف. أحد تلك الرسوم كانت لرجل يجلس مع امرأته قائلاً: "أود أن أعرف كيف فعلها أبو زيد". كما علمت من أصدقائي أن مسرحية من فصل واحد تحت اسم "صباح الخير يا مصر" ظهرت على الساحة تسخر من الأحداث التي أدت لإعلاني مرتداً وأدت لحكم التفريق بيني وبين زوجتي (لم أشاهد المسرحية قط ولم أتعرف على كاتبها، كل ما أذكره كان ما حكاه لي أصدقائي). عنوان المسرحية يعكس الطريقة التي يرد بها المصريون على كلام يرونه فارغاً، لم تكن المسرحية عني فقط، كانت بعض أجزائها تتعاطى مع الأوضاع السياسية في مصر، مشكلة الإسكان، وغيرها وتسخر من العديد من مناحي المجتمع المصري.

الفصل الأول الذي تناول قضيتي يبدأ بقصاصات على الشاشة من عناوين الصحف "قضية أبو زيد" مع عرض لأغلفة كتبي. ثم تبدأ بالظهور امرأة مغتاظة من جارتها، تسأل زوجها لدى عودته من العمل "ألا يمكن أن تتصرف حيال تلك المرأة؟" فيجيب: "ماذا يمكنني أن أفعل؟"، فتخبره "أنت محام، لديك مكتب، ألا يمكنك فقط أن تتهم زوجها بأنه مرتد مثلما فعلوا مع أبو زيد وتطلب التفريق بينهما؟". ينجح الزوج المحامي في رفع القضية وتحكم المحكمة بالتفريق بينهما، لكن من سيترك شقته في ظل أزمة الإسكان الطاحنة؟ لذا يقومان باقتسام الشقة فيما بينهما ويسكن معهما رجل

شرطة ليراقب كل حركة منهما، ويتأكد من تنفيذ حكم المحكمة بالفصل، وهو الأمر الذي يفهم في إطار الجنس. ثم يشاهد الجمهور الزوجين في نفس السرير المقسوم إلى نصفين ورجل الشرطة يقف حارسًا بينهما.

أعتقد أنني من أوحيت بتلك الفكرة للكاتب، فلقد قمت بإلقاء نكتة أنا وابتهال شبيهه بأحداث المسرحية في أثناء المحاكمة، حينها قلنا إنه لا يمكننا الانفصال، هناك مشكلة، من سيأخذ الشقة؟ هذا هو الحال في مصر، فتبعًا للقانون الشقة من حق الزوجة، وأضافت ابتهال أنا أيضًا لن أترك الشقة لنصر، على الحكومة أن توفر لكل منا مكانًا ليعيش به.

المجتمع المصري هو قطعًا مجتمع تقليدي. حين يتعلق الأمر بالعائلة، هذا شأن مقدس. لدي صديقة مقربة تعمل ممثلة، زارتنا أنا وابتهال بالمنزل بعد صدور الحكم النهائي. كانت تنتظر والحزن باد عليها "يا إلهي، ماذا يفعلون بكما؟ إنهم يدمرونكما يا صديقي المسكين". تمالكي نفسك، هذا ما شعرت أني أريد قوله، وافقتها "نعم، إنهم يدمروننا، لكن في الحقيقة أنا من يدمرهم، أنا هنا، لم أنطق بكلمة، لم أدافع عن نفسي في المحكمة ورفضت الدفاع ضد تهم الارتداد، لأنني لن أسمح لأي مخلوق أيًا كان وأيًا كانت سلطته أن يحاكم إيماني". تغير رد فعل صديقتي فتوقفت عن النواح، قلت: "لا تتصوري أنني أسمح لنفسي أن أعيش دور الضحية. أنا لا أتعامل مع هذا الأمر بالبكاء، هذا ليس بالأمر الصحي وأنا أريد لنفسي أن أحيا حياة صحية".

إن ما حدث لي، الاتهام بالردة وإثباتها وإرغامي على الطلاق وحرماني من وظيفتي بالجامعة، كان صعبًا علي. لكن على الرغم من كل

هذا رفضت أن ألعب دور الضحية، أنا لست بضحية، ولا سوبر مان، لكنني أرفض أن يتم استدراجي عميقًا لهذا النظام الفاسد، أنا أحب الحياة وأصر على استكمالها للنهاية.

الأمر المثير للاهتمام والسخرية أنه منذ عدة سنوات كتب شاهين كتابًا بعنوان "أبي آدم"[١٣] وهو الكتاب الذي حاول فيه التوفيق بين الداروينية والقرآن. حاول شاهين أن يثبت أن آدم لم يكن الإنسان الأول، الموضوع بأكمله انتهى منذ زمن، وهو لم يقل شيئًا جديدًا. لم أرَ في عمله ما يعجبني، لكنه حاول أن يظهر بمظهر المفكر الليبرالي، فارتكب من الأخطاء ما لم يكن ليفعله طالب لم يتخرج بعد في كتابة أطروحة. في النهاية عرضه الكتاب لبعض الاتهامات بالكفر، لم تفت السخرية على الشعب المصري، وكان لسان حالهم يقول "شاهين، لقد أشعلت الحريق مرة، وها هو قد نالك الآن".

اتصل بي حينها صحفي وطلب مني التعليق على هذه الأحداث، أعتقد أنه كان يتوقع مني أن أقول "رائع، شاهين الآن يذوق ما يستحق" أو شيئًا ما كهذا، لكنني أعتقد أنه تفاجأ حين أجبته: "لا، لست سعيداً على الإطلاق. ما نراه هو حريق بمنزلنا، ثقافتنا، لا يمكن أن نقتل رجلاً من أجل كتاب غبي". سألني الصحفي: "هل تقف بجوار شاهين؟" أجبت: "بالطبع، وسأدافع عن حقه في كتابة ما يعتقد". لم يبد شاهين سعيداً بما قلته، والشعب المصري أراد أن يعرف رد فعله حيال ما قلت. أخبرني أحد

---

[١٣] عبد الصبور شاهين، أبي آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة. دار النصر للمطبوعات الإسلامية، ١٩٩٨، القاهرة.

الصحفيين أن شاهين، قال: "ماذا تريديني أن أفعل؟ هل أدور قائلاً: "شكرا لك أبو زيد، أنت بطلي".

لماذا أشعر بالسعادة حيال النظام الذي يتعامل مع شاهين بذات الطريقة التي تعامل بها معي؟ أعتقد إن لم تكن قادرا على الدفاع عن عدوك في موقف كهذا فلن تستطيع الدفاع عن نفسك. حين ندافع عن خصومنا، الإسلاميين، فنحن ندافع عن أنفسنا، أنا لا أتحدث هنا عن مصالحهم، لكنني لا يمكن أن أدافع عن مبادئ الحرية وأقصي منها الإسلاميين. سيقول البعض إنه حين يطالب الإسلاميون بالحرية فهم يتحدثون عن حريتهم هم فقط، هذا حقيقي، لكن هذا لا يعني ارتكابنا لنفس الخطأ.

على الرغم من هذا، فاسم شاهين ليس محبوبًا في منزلي، لقد كان مبتذلاً حين دفع بالتفريق بيني وبين زوجتي في المحكمة. حينها عرض على ابتهال أن يأتي لها بزوج، وسيتكفل هو بمصاريف الزواج، لو أتيحت لي الفرصة لبذلت قصارى جهدي للنيل منه وإهانته، ليس من أجلي، و لكن من أجل ابتهال، تخيل! يعرض عليها أن تتزوج، كم هذا مبتذل. لا بد أن أسأل البلد بأسرها، الرئيس، وكيل النيابة، رئيس الوزراء، لا بد أن يعرِّفوا شاهين أن ثقافة المصريين تعتبر مؤسسة الزواج والأسرة مؤسسات مقدسة، فكيف له أن ينجو بفعلته في إهانة تلك المؤسسات؟ الفساد، الفساد يستشري في كل شيء بمصر، هذا يشعرني بالقلق الشديد حيال مستقبل البلد. شاهين، صدق أو لا تصدق، هو نجم تليفزيوني، إذا فلدينا مجتمع فاسد يساند رجلاً فاسداً. وبسبب فضيحة شركات توظيف الأموال التي اشترك بها، كان الناس يعرفون أنه لص، لكنهم لم يتصرفوا حيال ذلك، وماذا في

هذا؟ يتساءلون؟ أعتقد أنه حين لا تكون قادراً على مواجهة لص بفعلته فأنت بشكل ما مثله.

في محاضرته بالجامعة الأمريكية في ١٧ يونيو ١٩٩٩ تساءل إدوارد سعيد أستاذ اللغة الإنجليزية والأدب المقارن بجامعة كولومبيا، إذا كانت الجامعة يمكن لها أن تستمر كجامعة حقيقية لو أن تصرفاتها ورسالتها التعليمية تقع تحت سلطة المراقبة والتدخل المباشر من سلطات خارج الجامعة، أردف قائلا: " لا بد دوماً أن ننظر للجامعة كمكان يمكن للجميع أن يتعلم فيه بحرية. لا يمكن أن يكون هناك معرفة ممنوعة، هذا لو أرادت الجامعة الحديثة أن تحافظ على مكانتها ورسالتها وسلطتها في التعليم. إن الفكرة الأساسية وراء الحرية الأكاديمية تأثرت بشدة في الثلاث عقود الأخيرة. لم يكن ممكنًا لأي أحد أن يشعر بالحرية في الجامعة، إلا إذا تجنب تمامًا كل شيء يمكن أن يثير الانتباه أو الشك "[١٤]. لا أدري هل كان سعيد يضع قضيتي في ذهنه وهو يلقي بخطبته، لكن كلماته في تلك الآونة حتما كانت تنطبق على موقفي. وبحلول هذا الوقت كنت اتخذت أنا وابتهال قرارنا بالرحيل عن مصر. وصلنا إلى هولندا في ٢٥ أكتوبر ١٩٩٥، وأصبحت أستاذ اللغة العربية والدراسات الاسلامية في جامعة لايدن بعد أن استقبلتنا الجامعة والحكومة الهولندية بترحاب. استطعت أن أؤسس لعدد من الصداقات الدائمة نتيجة لنفيي، وأشرفت على بعض التلامذة، ليصبح لأكثرهم باع في الوسط البحثي. وتظل مصر الأم التي احتضنتني والتي أسي في أحلامي والتي أتمنى الرجوع إليها.

---

[14] Najjar, "Islamic Fundamentalism and the Intellectuals," 199.

الفصل الثاني

السنوات الأولى

أؤمن تمامًا بأن التجربة الحياتية تقع في قلب ما نسميه المعرفة. تجاربنا وخبراتنا هي التي تشكّل المعرفة، إذ إنها ليست كيانًا مستقلاً، يوجد بمعزل عن فهمنا وتأويلنا للحقائق والأحداث. هذا التأويل، لدرجة بعيدة، ينبع من تجاربنا الشخصية، لهذا السبب يمكن أن يشهد اثنان نفس الحدث، ويكون لكل منهما رواية مختلفة. أحد أسباب كتابتي لهذا الكتاب هو بيان كيف ارتبطت واندمجت تجاربي الشخصية مع أبحاثي الأكاديمية.

جئت هذا العالم ثقيلاً، مستديراً وقصيراً، لقد حاربت وزني طيلة حياتي. كان أبي سمينًا أيضًا، لا شك أنني ورثت منه تلك الصفة. وكما في معظم المجتمعات، وزني جعل مني عرضة لسخرية الأطفال الآخرين في مراحل النمو المختلفة. لم أكن خفيف الحركة مثلهم، فتعنمت أن أعوّض هذا النقص. وكانت القراءة هوايتي، تمتعت بها كثيراً، وأدركت أنها النشاط الوحيد الذي يمكن أن أتفوق به.

قحافة، القرية الصغيرة بدلتا النيل في شمال مصر، هي المكان الذي أعتبره موطني. في طفولتي كانت تقع على بعد عشر دقائق سيراً من طنطا، عاصمة هذا الإقليم. وقحافة، كواحدة مثل قرى كثيرة في المنطقة، على الرغم من قربها لطنطا، لم يشجع هذا الناس ليقبلوا على زيارتها، بالسيارات المنتشرة في شوارعها، وجوها الصاخب. في نشأتي لم تملك قرية قحافة في ذلك الوقت سيارات أو كهرباء أو مياهًا جارية. بالتدريج اتسعت القرية، ونمت، لتصبح جزءاً من طنطا. التف فرع من النيل حول قريتي الصغيرة، فتمتعنا بالمزارع الخضراء والأشجار الموفرة، حيث يذهب الطلاب للمذاكرة. التحقت بالكتُاب حيث تعلمت قراءة وكتابة القرآن الكريم والقواعد البسيطة للرياضيات، حتى حفظت القرآن الكريم كاملاً ببلوغي سن الثامنة.

بدأ أبي حياته كمزارع، إلا أنه أدرك سريعًا أن قطعة الأرض الصغيرة التي يمتلكها لم تعد كافية لمساندة عائلته المتنامية، لذا باع أرضه، وتحول لتجارة الخضراوات. محل الخضراوات الذي كان يملكه كان واحداً من اثنين في القرية، يقع في ركن التقاطع الوحيد بها. أذكر أن أبي كان يعاني من مشاكل صحية، بأثر رجعي ربما كان يعاني من مرض ما في القلب، لم يعرف أحد منا في هذا الوقت شيئًا عن مرضه إلى أن توفي عام ١٩٥٧، وأنا في الرابعة عشرة من عمري.

أما أمي فكانت لعائلتها جذور عميقة في القرية. كان والدها مقرئًا محترفًا، مما أكسب العائلة مكانة مرتفعة في المجتمع. أما هي فكانت سيدة جميلة، مدللة لحد ما، أكثر ما يميزها وأذكره عنها، جلد ناعم جميل. كانت

طفلة أبيها المفضلة، لذا قضت معظم طفولتها داخل المنزل. هذا الانزواء كان امتيازًا يحصل عليه الأطفال المنعمون بحب آبائهم. يومًا ما أخبرتني خالاتي "كانت أمك الأقرب لأبينا، وكان علينا أن نؤدي جميع الوظائف المتعبة، في حين جلست هي كالملكة لا تفعل شيئًا".

نتيجة لوضعها الملكي، لم تتعلم أمي قط أن تتجول في القرية. وحين تزوجت نقلت إلى بيت والدي، وحين كانت تريد زيارة عائلتها، وهي مسافة خمس دقائق سيرًا بين منزلها الجديد ومنزل عائلتها، لم تكن تستطيع أن تذهب وحدها، لم تعرف كيف. أذكر كم كنت فخورًا حين اصطحبتها في واحدة من تلك الزيارات أعرّفها بالطريق.

بدت لي قحافة دائمًا كعائلة واحدة كبيرة، كان الجميع يعرف كل شيء عن حياة الآخرين وأعمالهم. كانت القرية تملك مسجدين، الأول هو المسجد الحكومي، والآخر أطلقنا عليه مسجدنا المحلي. امتدت المقابر العامة على طريق أحد جوانب الطرق الرئيسية، وخصصت قريتنا بعض الأضرحة لقديسين كانت لهم جذور قوية في القرية، أشهرهم في المنطقة كان السيد البدوي بمقامه في طنطا، والذي نسبته طنطا لنفسها في حين هو القادم من المغرب. كنا نحتفل سنويًا بأعياد هؤلاء القديسين المفضلين لدينا لفترات كانت تمتد لأسبوع كامل.

كان لقحافة عمدتها، والذي تقلد منصبه بالطبع بسبب ثروته. عاش في رفاهية مقارنة بمعظم الناس، أما بيوت سكان القرية فكانت مزدحمة حول بعضها، في الوقت الذي ابتعد فيه منزل العمدة عن هذا المشهد. كان منزلنا يقع في منتصف القرية، تذكرني الطرق الصغيرة التي التفت حول قحافة

بمتاهة دون نهايات، كل شارع كان متصلاً بآخر، منزلنا ببابين، أدخل من واحد منهما تجد نفسك في وسط عشيرة أبو زيد، اخرج من الآخر تجد نفسك مع عائلة أخرى.

كما في كل المجتمعات الزراعية، حياة القرية في قحافة تمحورت حول تغير الفصول وشروق وغروب الشمس. كان الناس يعودون لمنازلهم عند الغروب، ليتناولوا وجبة العشاء، مع مجيء الليل كانت الشموع ومصابيح الزيت تستخدم لإضاءة المنازل، وبعد العشاء كانوا يجلسون على عتبة منازلهم يتسامرون مع العابرين.

احتفلنا بشهر رمضان بشكل مهيب، احتفاء بذكرى الشهر الذي تنزّل فيه القرآن على محمد من الملك جبريل، والذي يمتنع فيه المسلمون عن الطعام والشراب والتدخين والجماع من شروق الشمس وحتى غروبها. لحظة انزلاق قرص الشمس من الأفق هي اللحظة المعلنة عن انتهاء الصيام، ليتحول بعدها مزاج القرية للاحتفال. ينشر الرجال مصابيح زيتية كبيرة حول القرية لينيروا بها الطريق للنساء وهن يعددن الطعام. كان الناس عادة ما يمتد بهم السهر حتى الفجر، خاصة إذا جاء شهر رمضان في فصل الصيف. أما الأطفال فكانت تنتابهم السعادة مع تغير روتين حياتهم، وامتداد وقت اللعب مساءا. كان القرآن يتلى في المساجد وبيوت سكان القرية خاصة الأثرياء منها. وبقدوم العيد يزين سكان القرية الجامع لاستقبال هذه المناسبة الخاصة، ويتعبأ الهواء بدفقات من الروائح الجميلة، لقد كانت الحياة في قحافة بالنسبة لي دومًا تجربة حية وثرية.

على الرغم من الظروف الاجتماعية المتواضعة التي صاحبت نشأتي، فإنني أصبحت تدريجيًا واعيًا بتاريخ بلدي الثري وحضارتها القديمة. قبل مجيء الإسلام بفترة طويلة، مصر كانت وطن الكنيسة الأرثوذكسية، كنيسة لها طابع رهباني قوي. حينما زحف الرومان لمصر بغرض توسيع رقعة امبراطوريتهم خلال الجزء الأول من الألفية الثانية (c.200)، قاموا باضطهاد الأقباط ثم ذبحهم. حتى بعد أن صدّقت الامبراطورية الرومانية على الوجود الشرعي للديانة المسيحية (٣٠٠) استمر اضطهاد الأقباط (في النهاية انقسمت الكنيسة القبطية بقرار من مجمع خلقيدونية في ٤٥١ وأنشأ الأقباط بطرياركيتهم الخاصة في الإسكندرية، مع العلم بأن الفرعين الشرقي والغربي للمسيحية لم ينفصلا رسميًا حتى عام ١٠٥٤.

كان القديس أنطونيوس الكبير، الراهب المسيحي الأول في العالم، قبطيًا، كذلك كان القديس باخوم الذي أرسى قواعد وقوانين الرهبنة المتبعة حتى يومنا هذا، بالإضافة للعديد من آباء الصحراء المشهورين، ومن بينهم القديس مقاريوس، موسى الأسود ومينا العجائبي، وآخرهم البابا كيرولوس السادس وتلميذه الأسقف مينا أبا مينا. وعلى الرغم من اضطهاد الرومان للمسيحيين، إلا أنه بنهاية القرن الرابع انتشرت مئات الأديرة في صحراء مصر وبقيت مزدهرة، لذا فأنا أعتقد أن الصوفية تستمد الكثير من مادتها الفكرية من تراث الرهبنة للكنيسة القبطية في مصر.

لقد اهتم الإسلام قبل بداية الحركة الصوفية بمسائل العدالة الاجتماعية. هناك العديد من الآيات القرآنية التي تتحدث بوضوح عن حقوق اليتامى والفقراء، وتدين هؤلاء من يكنزون الثروات لأنفسهم

غاضين الطرف عمن بهم حاجة. لهذا السبب يقف القرآن بقوة ضد الربا، والهدف من اتخاذ هذا الموقف هو إرساء قواعد العدالة الاجتماعية في مجتمع غير متساوٍ. لقد بدأت الصوفية كرد فعل ثوري روحي ضد غياب العدالة الاجتماعية والسياسية، وبخاصة التوزيع غير العادل للثروة.

استخدم القائمون على تلك الحركة، بغرض جذب الانتباه لعدم المساواة، ما نطلق عليه اليوم "المقاومة السلبية". قاموا بالصيام، فالصيام هو قلب التحكم بالنفس، وكان صيامًا أكثر انخراطًا من الصيام العقائدي؛ فالصيام هنا يتضمن التخلي عن السلوكيات والتواصل غير الضروري من أجل التأمل، فيستطيع الفرد أن يستمع للموسيقى الداخلية للروح، موسيقى تعكس إيقاع الكون. من أجل الوصول لتلك الحالة يجب أن تفصل نفسك تمامًا عن كل الملهيات للحياة اليومية. هكذا كان ذو النون المصري (٧٩٦ ـ ٨٦١) رجلاً من صعيد مصر، وأول مسلم صوفي يطوّر ممارسة الزهد بطريقة فلسفية تعرف بالمذهب "الغنوصي"، وأول من ادعى كون الحب جوهر التجربة الصوفية، ويزور معابد الفراعنة ويتواصل مع الرهبان الأقباط.

مصر التي أتذكرها كطفل، امتزج بها المسلمون والمسيحيون والأقباط وقلة من اليهود. منذ عدة سنوات استضافت عائلتي شخصًا قبطيًا مسنًا غريبًا جاء من صعيد مصر لقحافة بحثًا عن عمل. كان نجارًا، يعرف جيدًا كيف يلقي الحكايات، وناديته بعم سلامة. كم استمتعت بالاستماع للحكايات التي كان يجلبها معه، لم يتحدث قط عن قصته، ووالدي لم يضغط عليه لمعرفة أي معلومات عنه، على الرغم من عدم ارتياح أصدقاء

أبي من ضيافته الكريمة للغاية. تكهن أبي "ربما سلامة يختبئ من شخص يطلب الثأر منه.. ربما أراد أن يبقى غير معروف، لماذا إذن أجبره أن يفصح عما يريد أن يستبقيه سراً؟ الرجل ضيفنا، وليس من اللائق أن تستجوب ضيفك". حين توفى عم سلامة، تجاهل أبي اختلاف الديانة، ودفنه في مقابر العائلة. كان هذا هو المناخ الذي نشأت به، مناخ من الاعتبار والتعاطف تجاه المحتاجين بغض النظر عن ديانتهم.

تعلمت أيضاً العمل القاسي وتحمل المسئولية في سن مبكرة. أتذكر أن والدي لم يتمتع صحة جيدة، ولأني كنت الابن الذكر الأكبر في العائلة، كانت وظيفتي هي مساعدة أبي في إدارة محل الخضراوات. في سن العاشرة كنت أستيقظ في الصباح الباكر، آخذ المفاتيح، وأقوم بفتح المحل لخدمة الزبائن المبكرين، ثم ينضم لي أبي لاحقاً في فترة الظهيرة لأذهب لمدرستي. كان أبي مصراً على أن أكمل تعليمي على الرغم من مرضه، وأنا ممتن لفعله هذا. لقد كان يتوقع مني أن أتفوق في دراستي، وقد فعلت، لكن دروسي الفعلية الأولى في الحياة جاءت من أصدقاء أبي الذين تجمعوا كل عصر أمام محلنا الصغير لتبادل الحديث.

كان أصدقاء أبي يتحدثون بكل المواضيع، مواضيع مهمة وثقيلة كالوضع السياسي في مصر أو الأمور الخفيفة مثل أمور النميمة عن الرجال وزوجاتهم. لأنني كنت صغيراً في ذلك الوقت، أعتقد أنهم اعتبروا أنني لن أكون مهتماً بسماع أحاديثهم، لكنني كنت بالفعل مهتماً، كنت أستمع لكل شيء. أتذكر أن معظم أحاديثهم كانت منصبة على الاحتلال البريطاني لمصر (١٨٨٢ ـ ١٩٥٢) والثورة الجديدة ١٩٥٢، سياسة الإخوان المسلمين، ثورة

١٩١٩ التي يقودها سعد زغلول والثورات القديمة التي وقف فيها أحمد عرابي ضد الخديو توفيق، وهي الثورة التي أجهضها الإنجليز، لقد تعلمت تاريخ مصر الأساسي من هؤلاء الرجال. اليوم أعتبر هذه التجربة هي أول مدرسة حقيقية لي. بعد وفاة والدي ونضوجي نوعًا ما، بعض من هؤلاء الرجال ممن أمد الله في عمرهم أصبحوا أصدقائي أنا أيضًا.

تعرفت منهم أيضًا على أحاديث الأمور الخاصة، لقد كان هؤلاء الرجال يتحدثون بكود سري لدى مناقشة الأمور الجنسية. حين كانوا يتحدثون سويًا عن الجنس كان الواحد منهم يقول "إذن.. لقد كنت مسافراً البارحة.. صحيح؟" إذا نشر رجل بعض العطر على نفسه، فهو دون شك استحم قبلها، وإذا استحم شخص في قحافة فهو قطعًا تمتع بعلاقة جنسية مع زوجته، وبما أن قريتنا لم يكن بها مياه جارية، فكان الناس يستحمون في أطشات نحاسية. عرفت أيضًا أن لو امرأة تخلصت من مياه لها رائحة جميلة من طشتها النحاسي في الشارع، فهي علامة على أن علاقة جنسية وقعت، وكانت هذه الأمور لطفل في العاشرة من عمره مثيرة للاهتمام. صباح يوم ما في محل أبي مرت زوجة أحد أصدقائه، والتي كنت رأيتها باكراً تلقي بماء الاستحمام في الشارع، فقلت لها "أعتقد أن عمي محمد - زوجها - كان مسافرًا البارحة". وجهت المرأة تجاهي نظرة متساءلة: "سافر؟" قالت: "لا أعرف، لست متأكدة".. لقد كنت أعبث معها، وحين أتذكر تلك القصة، أشعر بالخجل من نفسي. لاحقًا، عرفت أن عمي محمد وصل إلى منزله بعد العمل، وسألته زوجته: "هل كنت مسافرًا البارحة"، فسألها: "من قال لك هذا؟"، أخبرته "ابن حامد أبو زيد".

أدرك عم محمد فوراً أنني كنت أستمع لهم، بل والأسوأ فهمت أحاديثهم أمام الدكان. أخبر والدي بالأمر، وفي حيرته لا يدري ماذا يفعل، عاقبني بالعقاب المعتاد لأي أب في مجتمع عربي، ضربني. في نفس الوقت شعرت أنه كان فخوراً بتطور معرفتي للأمور الجنسية. كنت أسترق السمع خلف باب غرفة والديّ لاحقًا في هذا اليوم، حتى سمعته يخبر والدتي: "هل تتصورين ماذا فعل هذا الولد الغبي" ومع سرده لقصة السفر، لم ينم صوته عن نبرة غاضبة، بل عن فخر، ورأيته في مخيلتي مبتسمًا.

مع مضي سنوات عمري في قحافة، سمعت الكثير عن قصص الجن والأشباح. لقد كنت أتجول بمفردي لساعات متأخرة من الليل في أطراف القرية، آملاً أن أقابل واحداً منهم، لكن هذا لم يحدث أبدًا. كان لدينا شيوخ يدعون القدرة على الاتصال مع الجن، يتم استشارتهم لدى فقدان أحدهم لشيء ما أو الشك بأنه سرق. وكان يتوسم فيهم معرفة استخلاص المعلومات عن طريق طفل صغير، لأن الطفل يفترض به البراءة، أما البالغ فلقد لوثته الذنوب.

يومًا ما اكتشف أحد أبناء القرية اختفاء غرض ما من بيته. لم أكن قد ذهبت لمدرستي في هذا اليوم، لمشكلة ما بأسناني، ولأنني كنت الطفل المتوفر في ذلك الوقت، قرر الشيخ أن يستخدمني كمصدر بريء لتوصيل المعلومات، غطى رأسي بطاقية ثم وضع أمامي فنجانًا من الحبر.

بعد أن انتهى من قراءة تعويذة أو اثنتين، أشار لي بالتحديق في الحبر، وأنقل له المشهد في قاع الفنجان. سألني: "ماذا ترى؟"، كل الطقوس لها نظام واحد، ولم يكن هذا باستثناء، كان مفهومًا أن مشاهدة جني في قاع

الفنجان هي إشارة البدء للاحتفال وترتيب المقاعد. كان الأطفال دومًا يجاوبون "نعم أراه"، فيستطرد الشيخ في السؤال "كيف يبدو". أما أنا فلم أرَ شيئًا، سوى حبر لونه في سواد الليل شاغلاً حيز الفنجان كله. هل كان منتظراً مني أن أرى خلال هذا السواد؟ ظل الحضور يطالبون مني أن أركز، أدقق النظر، وظل الشيخ يسألني "ماذا ترى"، وأكرر إجابتي "لا شيء". لقد كانت فضيحة دون شك، واستمر هذا المشهد لساعات. كان الشيخ الغاضب على وشك أن يضربني، وبنبرة يأس سألني: "كم عمرك"، كنت قد بلغت العاشرة في ذلك الوقت. استمر يحقق معي "هل احتلمت" كان يريد التأكد من أنني لم أدخل مرحلة البلوغ الملوثة، لو كنت بالغًا، فلا عجب أنني لا أرى شيئًا في الفنجان.

في ذلك الوقت لم أدر ما يعنيه "لا لا، هل تعني هل حلمت؟". من أجل إنهاء هذا الموقف المحرج، ادعى أنني أملك طبيعة غريبة، "إنه ينتمي للنار" هكذا أعلن، فالناس إما ينتمون للنار أو للتراب. لقد فشلت محاولة حديث جني من خلالي، ونتيجة لهذه التجربة ذهبت أمنيتي في مقابلة أحد أفراد الجن أدراج الرياح.

حتى بعد وفاة والدي كنت أذهب للمقابر في الليل، أجلس بجانب قبره. معظم أبناء القرية كانوا يؤمنون بوجود جن خطير يعيش في المقابر. لم أكن واثقًا ماذا كنت أنتظر أن أجد هناك، كل ما كنت أعرفه أنني كنت أشعر بالوحدة، وكأن شخصًا ما تخلى عني فصرت كاليتيم. هل توقعت أن أبي بطريقة ما سيظهر لي وأنا جالس بجوار قبره؟ أعتقد أنني كنت أحن لبعض التواصل معه.. تواصل لم يحدث أبدًا وأنا طفل صغير في قحافة.

لم تظل تلك الحقيقة خافية عني لوقت طويل، أدركت أن كل ما أعرفه عن والدي تشكل من عيون أصدقائه الذين كانوا يجلسون معه في الدكان، كلماتهم وحديثهم شكلوا صورتي عنه. تلك الصورة هي التي ما زلت أحملها معي حتى الآن، لكنني لم أعرفه بهذا القرب أنا وهو فقط.

بعد وفاة والدي عام ١٩٥٧ بدأت أرى أمي بطريقة مختلفة، كان دورها سابقًا في حياة أبي، هو الوسيط أو الحصن المدافع في بعض الأحيان. في المجتمع المصري الأب يطلب الاحترام، وهذا الاحترام يصاحبه قدر هائل من الخوف، على الأقل كان هذا ما حدث في حالتي. كان أبي يسألني أحيانًا "هل تريد أي شيء للمدرسة؟" وكانت إجابتي الفورية "لا"، ثم اذهب لأمي وأخبرها بما أريد، الأمر الذي كان يصيبها بالحيرة فتسألني: "لكن أباك سألك للتو، لماذا لم تخبره"، لكنني لم أتخط خوفي تجاه والدي أبدًا، إبقاؤه بعيدًا عني كان يبدو الوضع الأكثر أمانًا.

حين بدأت صحة أبي في التدهور، أعطى تعليماته للعائلة بخصوص جنازته، كان مصممًا ألا يحصل على جنازة من السيدات اللاطمات خلف جثمانه في طريقه للمقابر، كما أنه لم يرد لأمي أن تعاود زيارة قبره بعد أن يدفن به، كان له آراؤه الدينية التي تقر بأن زيارة المقابر لا يرجى منها فائدة. بالفعل تحقق ما أراد، لم يصحبه عويل للسيدات لقبره، لكن أمي قامت بزيارته بالفعل في عدة مناسبات بعد دفنه، اصطحبتها في البداية، ثم بعد أن اختبرت الحياة بشكل أكبر أصبحت تذهب بمفردها.

كانت أمي في الخامسة والثلاثين من عمرها حين توفي والدي، تعول خمسة أطفال. تزوجت أختي الكبرى بدرية، وعاشت مع عائلة زوجها،



كانت قد أكملت الثامنة عشرة لتوها. أما أنا ففي سن الرابعة عشرة كنت أكبر أولاد أمي، يصغرني بعامين أخي محمد الذي ولد عام ١٩٤٥. ولدت أختي كريمة عام ١٩٥٠ وتلاها أسامة – واسمه يعني الأسد وسمي تيمنًا باسم الابن المتبنى للنبي محمد - في عام ١٩٥٢، وفي العام الذي توفى فيه أبي، ١٩٥٧، ولدت آيات.

بعد وفاة والدي، وقعت مسئولية رعاية العائلة على عاتق أمي، وكوني كنت الابن الأكبر، فقد وقعت على عاتقي أنا أيضًا. كان لي أخ أكبر، لكنه توفي وهو في الرابعة أو الخامسة من عمره، أخبر الناس مازحًا أننا لم نكن على وفاق، فلو كان ظل حيًا لكان قد تحمل معظم المسئولية، حياتي من المؤكد كانت ستختلف لو ظل حيًا.

لكن ها أنذا لم أكمل عامي الخامس عشر، وقد دفنت والدي مؤخراً. كان سلوكي في أثناء الجنازة وما تلاها أقل ما يوصف به الجمود. سرت مع باقي أبناء القرية وراء نعش أبي في الطريق للمقابر، رحلة استغرقت عشر دقائق بعدها رجعت للمنزل ولم أبك، البكاء جاء لاحقًا، لكنني أذكر أن أصدقاءنا وأقاربنا كانوا قلقين تجاه سلوكي الصامت.

بوفاة والدي شعرت بتغيير عميق ينتابني، لم أعد أرى نفسي طفلاً، فجأة أصبحت رجلاً أحمل مهمة كبيرة استولت عليّ بالكامل. كيف سأستطيع تدبير المأكل والملبس وتعليم إخوتي الصغار؟ أنهت تكاليف رعاية والدي الصحية على مدخراتنا للسنوات القادمة، وساءت أحوال الدكان كما ساءت صحة وفاة والدي.

أستطيع أن أقول بكل أمانة إن تجربة إعالة عائلتي لعدد من السنوات غيرت حياتي تمامًا، فكما أصبحت منغمسًا في التفاصيل الحياتية لكل فرد من إخوتي، اكتشفت المزيج الرائع من الألم والمتعة الذي تنطوي عليه مهمة الأبوة. الآن وبعد أن كبر أخوتي، أستطيع أن أنظر لتلك التجربة، وأشعر بقدر كبير من الرضا حين أفكر كيف استطعنا أنا وأمي توفير احتياجات العائلة.

إن تأمل الصورة الأشمل (عائلتي) أرغمني على إتساع رؤيتي، لم يكن لدي من الوقت لأتأمل حياتي وأفكر بنفسي فقط واهتماماتي الخاصة، من خلال تلك التجربة المؤلمة والصعبة في الاهتمام بعائلة أصبحت حساسًا تجاه معاناة الناس نتيجة للظلم الاجتماعي الواقع عليهم.

حين بدأت مهنتي كباحث في الدراسات الإسلامية، لم يكن البحث الأكاديمي بالنسبة لي مفهومًا مجردًا أو اختيارًا لمهنة ممتعة. بحثي العلمي جاء للحياة من خلال تجاربي الشخصية، لم يأتِ شغفي للبحث عن العدالة الاجتماعية من فراغ، لقد كنت أبحث عن إجابات لأسئلة، أسئلة نبعت بالأساس من الصعوبات التي واجهتها في مشوار رعايتي لعائلتي. في البداية كان اهتمامي منصبًا على عائلتي لا يتعدى حدودها، ثم تمدد هذا الاهتمام بالتدريج ليشمل مصر ثم العالم العربي والإسلامي، وكلما انغمست في الدراسة والبحث والقراءة امتد اهتمامي للعالم كله، وكيف لا يمتد؟ العالم كله (بشر، حيوانات، نباتات والأرض نفسها) يعاني من الظلم حين ينشري بمجتمع، كلنا في النهاية مترابطون بشكل ما.

بالطبع، استغرقني الأمر سنوات ليتطور إدراكي هذا. بعد وفاة والدي مباشرة أصابتني نزعة التملك تجاه والدتي، كنت مرعوبًا أن أخسر

هي أيضا، فلقد جذبت ناحيتها عدداً من المتقدمين. بدأ الرجال يظهرون حول منزلنا، رأيت كيف غازلها البعض، وكنت أشعر بالغيرة تحرق صدري. تمنيت لو أن أمي قبيحة، لابتعد الخاطبون وكنت في مأمن. كل هذه المشاعر تجمعت في شكل سلوك عنيف وغاضب تجاه والدتي. اليوم حين أتذكره، تسري في جسدي قشعريرة.

أذكر أنني في يوم من الأيام كنت ممسكًا بمقص، لا أدري تحديداً السبب الذي أشعل الغضب بي ليدفعني أن ألقي به ناحية أمي. لحسن الحظ تفادته، وإلا لكانت أصيبت بإصابة خطيرة. للحظة أمعنت النظر بي قبل أن تذهب لغرفتي، أرعبني هذا الصمت، ونظرتها الحازمة. جمعتْ كل ملابسي في ملاءة، وعقدت أطرافها، ثم ألقت بها أمام باب المنزل ودفعتني وراءها، وأغلقت الباب بشدة. لم أفكر أن الأمر جدي، تصورت أنها في غضون ساعات ستهدأ، وربما تبكي، ثم ترجوني للعودة للمنزل، لكن الأمور لم تجرِ كما توقعت.

مرت بضع ساعات، وبدأ الناس يلاحظون وقوفي أمام باب منزلي ممسكًا بملاءة معقودة. بدأ التساؤل "ماذا يحدث"، "إلى أين أنت ذاهب". لم يكن لدي أي اختيار آخر سوى أن أخبرهم بما حدث. مع مجيء الليل بدأ يتجمع حولي المزيد من الناس، يتساءلون عن طبيعة الفعل الذي أتيت به، ودفع بأمي لهذا التصرف. "ماذا يمكن أن يكون حدث؟"، هكذا قال البعض بصوت عالٍ: "نعرف أنها بالداخل".

استدعى أبناء القرية بعض الرجال الذين يمتون لنا بصلة قرابة، للقدوم وحل هذه المشكلة. هؤلاء الرجال كانت لهم حيثية، وسلطة قوية في

مجتمعنا، كان أبي يستعين بهم في حل أي نزاع، ويمتثل لرأيهم. حين جاءوا، نادى واحد منهم "يا أم نصر.. افتحي الباب" ففعلت.

"ماذا حدث؟"، تساءل وهو بالداخل، "ماذا يفعل ابنك بالخارج؟" كنت أستمع للمحادثة بوضوح شديد. أجابت: "لم يحدث شيء، إنه بالخارج لأنه لا ينتمي إلى هنا". لقد كانت تلك المرأة ـ أمي ـ تتصرف بهدوء شديد، لدرجة أني لم أعرفها. "ماذا تقصدين؟"، تساءل الرجل، أجابت بتصميم وقوة "إنه لا ينتمي لي. إذا أردت أن تحصل عليه.. تفضل لكنه ليس ابني" لقد كانت على وشك التخلص مني دون أن يرف لها جفن.

قال الرجل: "لا، لا يمكن أن تفعلي ذلك" ثم بدأ في التحايل "أرجوكِ، من أجل خاطري، لا تفعلي ذلك". لم يثن هذا من عزم أمي، لقد كانت مصرة "لا، نصر لا ينتمي لي". كان هذا الرد كفيلاً بإثارة غضب الرجل، لا يوجد رجل بالعائلة يستطيع أن يقال له لا، لكن ها هي أمي، امرأة، تقف أمامه وترفض ما يطالبها به. وكما لو أنه حاول يذكرها بمسئوليتها تجاهي قال لها: "أنتِ لا تستمتعين لي"، لكنها كانت شجاعة، "استمع لي، نصر ولدي، قام بإلقاء هذا المقص ناحيتي، الآن هو مجرد ولد أطعمه. ماذا يمكن أن أتوقع منه بعد سنوات قليلة؟ كيف سيعاملني مستقبلاً إذا كان يتصرف هكذا الآن؟

لم يستطع الرجل الرد عليها، فأردفت قائلة: "لو أراد نصر الرجوع للمنزل، فتحت بشرط واحد، لا بد أن يقبّل قدمي". أخرجت الكرسي الوحيد لدينا خارج المنزل على مرمى من بصر سكان القرية المجتمعين، جلست عليه ومدت قدميها. بهت الجميع، وبدت لي وقتها كالملكة

كيلوباترا، انحنيت ككلب، قبلت قدميها، ثم سمحت لي بالرجوع للمنزل.

انتهى العرض، ورحل الجميع. لقد كانت أكثر لحظات حياتي إذلالاً، أن أقبّل قدميها أمام كل أبناء القرية! في تلك اللحظة كرهتها. لاحقًا، في تلك الليلة، وصل لسمعي صوت بكائها المكتوم. بدأت أدرك حينها كيف أن الحياة صعبة عليها. في الصباح التالي، بدت سعيدة، لا تحمل تجاهي أي ضغينة، تحدثت بكل هدوء "اسمع، أنت ولدي ولست زوجي، أنتظر منك أن تتعامل كولد مطيع، يومًا ما ستكون مسئولاً عن هذه العائلة حين تكبر، أما الآن فأنا المسئولة عن هذه العائلة وأتوقع منك أن تحترمني وتطيعني".

كانت كلماتها حاسمة بالنسبة لي. بعد مضي سنوات عديدة، تعلمت أن أقدّر القوة التي احتاجتها لتتخذ مثل هذا الموقف، الذي ربما لولاه لخرجت عائلتي عن نطاق السيطرة، وصارت النتائج كارثية.

شهدت لاحقًا موقفًا مماثلاً لهذه القصة، وقع أمامي لدى وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر السبعينات. احتضنتني عائلة مصرية، كانت تعاملني كأحد أبنائها، الأب أستاذ لعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، توفي فجأة، أما زوجته ـ السيدة المتعلمة ـ فقد نالت درجة الدكتوراه، ولها إسهاماتها في المجتمع، وابنهما الوحيد. رافق الابن والأم جثمان الأب لمصر، وبعد أربعين يومًا من الحداد، عادوا مرة أخرى للولايات المتحدة الأمريكية. لاحظت حينها أن الولد ذا الأربعة عشر عامًا يتصرف تمامًا كما فعلت مع أمي بعد وفاة أبي، الفارق الوحيد أن والدته على الرغم من

تعليمها العالي، لم تستطع أن تتصرف بحزم وقوة كما فعلت والدتي الأمية الحكيمة.

ترددت على السيدة وابنها من حين لآخر بعد عودتهما للولايات المتحدة. ذات يوم فوجئت يومًا بالولد يصرخ مناديًا والدته "تعالي هنا"، أذعنت لرغبته، وصعدت السلالم راكضة لتلبي احتياجاته. أخبرتها "هذا الولد ليس زوجك، زوجك توفي وهذا ابنك". أخبرتها عن قصة تقبيل قدم أمي بعد وفاة أبي بوقت قصير. استمعت للقصة، لكنها لم تصل لمغزاها، ولم تعرف كيف تستفيد بها في حالتها. تلا ذلك أن حاول ابنها إشعال النيران بالمنزل، بعد أن أخبره أحدهم أنه بإمكانه أن يجمع بعض الآلاف من بوليصة التأمين. اتصلت بي أمه، وهي ترجوني المساعدة. ذهبت لهناك لأجد الولد وقد خرج عن السيطرة، سحبته للقبو حتى نتحدث على انفراد. في ذلك الوقت بدا أفضل شيء يمكن فعله هو أن أضربه. أعرف أنني كنت أجازف بهذا التفكير، كما كنت أعرف اتهامات الإساءة لطفل التي تلقى في وجه الآباء إذا أرادوا تهذيب أولادهم هناك. لقد كان والده يخبرني "أتمنى لو آخذ هذا الولد لمصر وأضربه".

لقد كنت في حيرة من أمري. تحدثت له عن تحمل المسئولية، لم يفعل شيئًا سوى التحديق بي. على عكس ما توقعت من ولد قوي مثله أن يرد على ما أقول، انفجر باكيًا، فاحتضنته قائلاً: "لا بد أن تفهم، لقد مات والدك، لا يمكن أن تكون هو، أنت تتصرف كأحمق".

لسوء الحظ، والدته لم تكن تملك من القوة التي تجعلها تضع قدميها أمام ابنها ليقبلها، كما فعلت أمي، هذا الفعل الذي ربما كان حررهما معًا.

حين استمعت لبكاء أمي بعد تلك الواقعة رق قلبي ناحيتها. لقد كان أمامي وبقية العائلة طريق طويل، لم يكن ليكتمل إلا إذا تعاونت أنا وأمي على العمل معًا لإعالة هذه الأسرة. في النهاية تعلمت أن أتخلى عن الاستحقاق الذي كنت أشعر به كأكبر ابناء العائلة من الذكور في المنزل.

كانت لأمي هواية الحياكة، امتلكت ماكينة حياكة خاصة بها في حياة أبي، كانت تصمم وتحيك الملابس للناس. بعد وفاة أبي، اتخذت من هذه الهواية مهنة لها، درت عليها تلك المهنة دخلاً، وأضيف إليه ما استطعنا أن نخرج به من محل الخضراوات، بعد أن ساعدنا ابن عمي سيد على إدارته مرة أخرى، وهو الرجل الذي تزوج بدرية أختي الكبرى لاحقًا.

أصبح لسيد وجود مستمر في المنزل. لقد ملأ الفراغ الذي تركه أبي، وأصبح الوصي غير الرسمي علينا. كان رمزًا أبويًا خالصًا، وكان شديد الطيبة والتعاطف معنا، ساعدنا على اجتياز أزمة الفقدان التي أطاحت بحياتنا، والوقوف على أقدامنا مرة أخرى. سيد كان ترتيبه الثالث في إخوته حين توفي والده، ساهم والدي في تأمين بعض الموارد لهم. الآن كان لسيد أن يرد لعائلتي ما فعلته من أجله، لطالما احترمت سيد، ومع مرور السنوات أحببته أيضًا.

بعد تخرجي في الكتّاب، كان حلم والدي أن أكمل تعليمي في مؤسسة دينية لأصبح شيخًا. لقد كان معجبًا بالشيخ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) الذي كان يؤمن بأن التعليم هو الوسيلة لتحقيق مجتمع أفضل. الثورة السياسية لم تكن بديلاً لعملية التحول المستمرة الناتجة عن مجتمع متعلم. عبده كان يعتبر رائدًا في الفكر الإسلامي، وأصبح يعرف بأنه رائد حركة الإصلاح والنهضة المصرية الحديثة.

لكن مع تدهور صحة والدي، أصبح واثقًا أنه ربما لن يعيش أكثر من عامين أو ثلاثة على الأكثر، فأخرجني من التعليم الديني وحولني لتعليم مهني، أحد أنواع التعليم في مصر في ذلك الوقت. عمي، الأخ الأكبر لوالدي، اعترض على تلك الخطوة مقتنعًا بأنه يجب أن أذهب للثانوية العامة والتحق بالجامعة، وليس بمدرسة فنية.

"حسنا"، رد أبي على أخيه "لو التحق بالثانوية العامة، وتوفيت، هل ستدفع مصاريف تعليمه؟ هل ستعتني بالعائلة؟". أدرك أبي أنني سأحتاج وظيفة تدر عليّ دخلاً، أصرف به على العائلة بعد وفاته. التعليم الفني كان سيقدم لي تلك الفرصة، موفرًا لي تعليمًا أساسيًا في الإلكترونيات بالإضافة لتعرضه لبعض الجغرفيا والقليل من التاريخ.

استمعت خلال انتسابي للدراسة في يوم جمعة إلى شيخ يخطب في مسجد صغير. كان يندد بالسحر باستخدام آيات من القرآن الكريم التي تتحدث عن النجوم. ما قاله كان أن النجوم كانت زوجًا و زوجة، لكنهما مارسا الزنى، فلعنهما الله ونتيجة لذلك أصبحا نجومًا. ربما كنت في ذلك الوقت صغير السن ومتعاليًا، لكنني أخبرته "هذا كلام تافه، غبي، النجوم لم تكن يومًا آدميين". الناس لدى سماعهم لهذا الحوار صدموا، ففي النهاية كنت مجرد صبي يناقش شيخًا. سئلت: "كيف يمكن أن تتحدث لشيخ بهذه الطريقة؟" تصورت أنهم سيضربونني، لكن بدلاً من ذلك اخبروا والدي بالحادثة. سألني والدي عن تفاصيل ما وقع، وبصبر استمع لروايتي. أخبرته: "لقد درسنا في المدرسة أن النجوم لم تكن يومًا آدميين". اجاب والدي "أنت على حق، لن أقوم بعقابك، لكن في المستقبل كن

مهذبًا وأنت تختلف مع الناس" . تفاجأت لرد فعله، لكنه أراحني، ربما لم يكن يملك الطاقة لضربي.

كشابٍ ملتحق بالتعليم الفني، ويدرس الإلكترونيات، كنت مهتمًا بالفصل بين الخرافة والحقيقة. الخرافة بالنسبة لي تعني شيئًا كاذبًا غير صحيح. لم أفهم قيمة الأساطير والحكايات التي كانت تحمل قيمًا بداخلها، وتتمسك بها ثقافة أو مجتمع بقوة. هذا كان قبل أن أدرك لاحقًا كيف يمكن أن تحمل النصوص المقدسة بداخلها حقائق مهمة داخل الأساطير، يمكن لها أن تغير من حيوات البشر. تعلمنا الأسطورة أو القصة بطريقة مختلفة عن المعلومة الحقيقية. وأصبح اكتشاف ونزع الحجاب عن معنى النص في النهاية جزءاً من عملي، لكنه كان طريقًا طويلاً.

بدأت أشعر بتفوقي عن معظم أقراني بالقرية لأنني اكتسبت ميزة إكمال التعليم، كما ساهم أصدقاء والدي في مسيرتي التعليمية. لقد كان هؤلاء الرجال يلتهمون بشوق الصحيفة اليومية. لم يكن كلهم على دراية بالقراءة، لكن جميعهم كانوا على علم بالأحداث الجارية في العالم. والدي المتعلم، كان أصدقاؤه يمرون يوميًا بالدكان، ويسألون "ما هي أخبار اليوم" . كان والدي يخبرهم بالأخبار، كنت أقرأ لهم الأخبار من الصحف مباشرة، "تعال يا نصر" ، كانوا ينادونني "هات الصحف واقرأ لنا" .

كنت أخطىء كثيراً، أنطق أسماء قادة العالم بطريقة خاطئة، كتشرشل مثلا. لم يخف أصدقاء والدي ضحكاتهم "كنا نتصور أنك تستطيع القراءة. انظر من لا يستطيع القراءة في النهاية" . لم تكن لدى أدنى فكرة ما هي أهمية الدور الذي يلعبه تشرشل في العالم في ذلك الوقت. لقد أصبح

واضحًا بالنسبة لي أن معرفة القراءة لا تجعل من الإنسان مباشرة مثقفًا أو حكيمًا. هؤلاء الرجال ـ أصدقاء أبي ـ كانوا يفهمون المادة التي كنت أقرؤها لهم، أما أنا فلا. كان هؤلاء الرجال الأميون أساتذتي الأوائل، ربما كنت أنا القارئ، لكن هم من قاموا بالتفسير، لقد أكسبوا معنى للنص.

تخرجت في المدرسة الفنية عام ١٩٦٠. تقريبًا على الفور، استطعت أن أبدأ في كسب بعض المال الذي ساعدت به في توفير احتياجات المنزل. عملت بوزارة الاتصالات كفني إلكترونيات، مهمتي كانت صيانة أجهزة الاتصال في أقسام البوليس. على الرغم من رغبة أبي أن أقتدي بمحمد عبده، فإنني كنت أكثر إعجابا بطه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) تلميذ محمد عبده. لم أفقد الأمل في أن أحذو حذوه، لذا بدأت أدرس بين ساعات العمل، حتى حصلت على بكالوريوس اللغة العربية وآدابها من جامعة القاهرة عام ١٩٧٢. طه حسين في محاولته لاستكمال منهج محمد عبده الفكري، بدأ في دراسة القرآن من وجهة نظر أدبية، فطوّر بذلك أعماله.

كان عبده قد توصل إلى أن الهدف الأساسي من القرآن ليس إعلامنا من الأحداث التاريخية. لا شك أن هناك بعض الأحداث التاريخية التي تم تدوينها في النص، لكن لا بد أن نفهم النص بمعناه الرمزي، بحثًا عن المعاني الروحية وليس الحقائق التاريخية. طه حسين كان مقتنعًا بأن محمد عبده الذي كتب آراءه تلك بلغة كلاسيكية دينية، تناسب باحثًا تقليديًا، كان محقًا في أبحاثه. لكن ما فعله طه حسين كان مختلفًا، فلقد استخدم لغة حية وصادمة لمناقشة ضرورة البعد الأدبي كمدخل لدراسة القرآن وفهم معناه.

وظيفتي كانت تدر دخلاً ثابتًا، لذا اقترحت على والدتي أنه حان الوقت لأن نتوقف عن استعبادها على ماكينة الحياكة. اعترضت وقالت إنها تريد الاستمرار في المساهمة في إعالة الأسرة، إلا أن العمل يوميًا ليل نهار أثر على حالتها الصحية.

كان عملي بالمحلة الكبرى، مدينة تبعد ثلاثين كيلومترًا عن طنطا، شعرت بأنه ربما من الأفضل أن تنتقل العائلة معي للمحلة الكبرى. هذه المدينة المشهورة بصناعة النسيج بها كانت مصدر فخر لكل المصريين. لم تسمح لي ظروف عملي، التي كانت تجعلني أعود للمنزل في وقت متأخر من الليل، أن أشرف على دراسة إخوتي. كنت أريد أن أتأكد من سير دراستهم، وهو الأمر الذي تمكنت منه بعد أن انتقلوا للعيش معي. لقد حلمنا، أنا ووالدتي، بتأمين بداية جيدة لكل واحد من إخوتي عن طريق التعليم. حققنا هذا الهدف. لقد شعرت كما لو أنني أصبحت أبًا منذ تخرجت في المدرسة الفنية. لم أرد في خضم اهتمامي بتعليم إخوتي وتلبية احتياجاتهم الدراسية، أن أهمل نفسي، بل والأسوأ أن أشعر حيالهم بالحقد والحسد، لم أرد أن ينتهي بي الحال هكذا. لذا مع تعهدي بتعليمهم، تعهدت لنفسي أنني لن أهمل دراستي. استمتعت بالدراسة، وأردت أن أكمل تعليمي بالجامعة، لكن كان جزءًا مما يحفزني، هو أنني كنت ضد أن ألعب دور الضحية. أنا دائما ضد هذا. لقد ضحيت أنا ووالدتي بالكثير من أجل تربية إخوتي، لكنني كنت واعيًا طوال الوقت أنه إن لم تكن تلك التضحية دون مقابل، فهي عفنة.

الابتعاد عن قحافة أحل والدتي من زبائنها بالتدريج. لقد استطاعت أن تكوّن لها عبر السنوات مجموعة من الزبائن. حالتها الصحية تحسنت كثيراً، بعد أن توقفت عن العمل، وعلاقتي بها أيضًا. طوّرنا معًا نوعًا من الصداقة المريحة، على الرغم من تمسكي ببعض الاحساس بالأولوية، لقد كنت ما زلت فتى مدللاً.

لدى عودتي للمنزل كل مساء من العمل، كانت أمي دائمًا تحضر لي العشاء، إذا لم يعجبني الطعام كنت أصرّ على أن آكل شيئًا آخر. لم تستجب والدتي لنزواتي تلك. ذات مساء حين خلد باقي إخوتي للنوم، جاءت لتخبرني " أود لو أستطيع توفير الوجبات الغالية الفاخرة التي تريدها، لكن حين أطبخ شيئًا وترفض أن تأكله، يفعل إخوتك المثل، فينتهي بي الأمر للتخلص منه. هذا مالك كما تعرف، إذن قرر ماذا تريد أن أفعل به" وصلني ما رمت إليه، ولم أشكُ أبدا مرة أخرى من الطعام الذي تقدمه لي.

بعد عدة سنوات بدأت صحة والدتي في التدهور، كنا قد انتقلنا للقاهرة في هذا الوقت. أراد أخي الأصغر أسامة أن يتزوج. لقد شعرت أنه ما زال شابًا ولا يملك شقة، وبالتالي كنت ضد الأمر برمته. على الرغم من ذلك تزوج وعاش مع زوجته في شقة والدتي. ورغبة منها ألا تكون مع العروسين الجدد، أعلنت "أريد أن أزور أخاك محمد في القرية". تفهمت أنها تريد أن تترك مساحة لأسامة وعروسه، لذا سألتها: "كم من الوقت ستمكثين عند أخي محمد". . "سأمكث شهراً واحدًا، وربما اثنين".

مر أسبوعان، وتدهورت صحتها بشدة. شخص الطبيب مرضها بمشكلة تتعلق بأحد صمامات القلب، نصحها بأن تغير من عاداتها

الغذائية، لكن حين طلب منها التخلي عن بعض الأطعمة، رفضت. كنت أزورها أسبوعيًا لأبقي معنوياتها مرتفعة، أخبرتني زوجة أخي "أنا لا أستطيع أن أرفض أي طعام تطلبه. لا بد أن تتفهم موقفي، إذا رفضت فستصب جام غضبها عليّ".

أخبرت والدتي "إذا لم تتبعي نصيحة الطبيب، ستموتين"، غضبت بشدة، وقالت: "هذا ليس من شأنك، أنا أرحب بالموت بالمناسبة، لا تأتِ ولا تزرني مرة أخرى، وحتى لو مت لا تأتِ".

أجبت: "لا، لو متِ فسأكون هنا. الناس سينتظرون مني أن أحضر لتلقي التعازي"، ماذا كنتَ لأجيبها!

انتحبت قائلة: "أنت تعذبني بإخبارك إياي ما يجب ولا يجب أن آكله"، "في الحقيقة أنا لا أخبرك، الطبيب هو من فعل ذلك".

قمت بزيارة الطبيب، د. ابراهيم بدران، كان رئيس جامعة القاهرة في ذلك الوقت، وأصبح وزير الصحة لاحقًا. بفضل جهود صديقي أحمد مرسي، صديق مقرب للطبيب، زار الطبيب والدتي في القرية. عدت للقاهرة مع كليهما، أخبرني الطبيب "اسمع، يمكن أن نجري عملية بسيطة لوالدتك من أجل إصلاح صمام قلبها. المشكلة معها، كما يبدو لي، لقد قررت أن تموت. العملية نسبة نجاحها كبيرة، لكننا الأطباء دائمًا نقول إن "نتيجة الجراحة ترجع للمريض". نظر لي شاعرًا بأنني كنت متشككًا مما يقول، وأكمل: "أعتقد أن والدتك قررت أن تموت".

في هذا الوقت في مصر كان الناس يتجنبون الذهاب للمستشفيات قدر الإمكان. لقد وافق الطبيب على إجراء العملية، ولكن البقاء بالمستشفى كان ليشكل لها ضغطًا عصبيًا، أخبرني الطبيب: "لقد كشفت على والدتك بدقة. إنها امرأة مهووسة بالنظافة، ستقضي وقتًا سيئًا بالمستشفى مع من يخدمونها ويتولون أمر نظافتها". لم نجرِ والدتي العملية، وتوقفنا عن الجدال بخصوص نظامها الغذائي. قمت بزيارتها أسبوعيًا في بيت أخي. كانت تطلب مني دوريًا المال، وكانت تطلبه أيضًا حين يزورها إخوتي، ما إن يسألها أي أحد "هل تريدين شيئًا" كانت تجيب "أريد مالاً". يومًا ما كانت في مزاج جيد، سألتها: "لماذا تريدين كل هذا المال؟ لا بد أن يوفر أخي لك كل احتياجاتك. إذا لم يكن يفعل ذلك فلتخبريني"، "لا، لا، إنه يعتني بي جيدًا". أصرت "حين أطلب منك أموالاً فقط أعطها لي، لقد ربيتك وعنيت بك. الآن ها قد كبرت عليك أن تفعل ما أريد، لا تستجوبني".. "حسنًا يا أمي، لكنني أريد أن أعرف هل ستتزوجين مرة أخرى؟ إذا كنت تجمعين هذه الأموال من أجل بيتك الجديد أخبريني لأساعدك، بالطبع لا بد أن أعرف من هو العريس".. ضحكت ولكن استمرت في طلب الأموال.

الليلة التي توفيت فيها، نادت أخي، وبجانب سريرها أعطته كل الأموال التي كانت تأخذها من أولادها، وقالت: "هذه الأموال لجنازتي، أريد جنازة محترمة، اثنين من مقرئي القرآن المشهورين من نراهم في التلفزيون، للقراءة في جنازتي، لم أرد أن أجعل من جنازتي عبئًا ماديًا عليك بعد وفاتي".

توفيت والدتي وأنا في الطريق لزيارتها، وقبل أن أترجل من السيارة عرفت أنها ماتت. رأيت العديد من الناس أمام وداخل منزل أخي، وهي إشارة إلى أن الموت زار هذا المنزل. ذهبت مباشرة لحجرتها حيث كانت مستلقية، كشفت عن وجهها ثم طبعت قبلة على خدها. لقد عاشت لتحضر عيد ميلادها الستين. جاء أخي للحجرة، وقال: "ها هي الأموال التي كانت تطلبها والدتنا الأشهر الأخيرة الماضية". استطاعت أمي أن تجمع خمسة آلاف جنيه مصري، مبلغ كبير في ذلك الوقت، لم أعرف هل أضحك أم أبكي. انتهيت وأنا أفعل قليلاً من الاثنين. احترمنا رغبتها في الحصول على جنازة ملائمة، كان هذا أقل ما يمكن تقديمه لها.

حين أقارن بين هذه السيدة التي صارت عبر خمسة وعشرين عامًا منذ وفاة والدي، بالسيدة التي كنت أعرفها قبل وفاته، أتعجب كثيرًا. بمرور تلك السنوات طورّت شخصية قوية وواثقة من نفسها. لقد أرغمتها الظروف على أن تشتبك مع العالم بطريقة كانت محرمة عليها في حياة والدي. هذا الاشتباك حولها لشخص آخر، وهذا التحول غيرني!

لقد كانت تشع جمالاً داخليًا، وهو أمر وجدته أكثر جاذبية من أي سحر مادي لها.

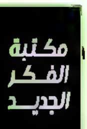
الفصل الثالث

بدرية، كريمة، آيات وشيرين

انتقلت للحياة بالقاهرة بعد مضي سنوات في المحلة الكبرى، عملت خلالها في قسم البوليس. التحقت بجامعة القاهرة عام ١٩٦٨، وقتها كانت أختي الصغرى آيات ما زالت في المرحلة الابتدائية، وكريمة وأسامة تخرجا في الثانوية العامة، بحلول عام ١٩٧٢ حصلت على درجة البكالوريوس.

الانتقال كان صعبًا على العائلة، وخصوصًا والدتي. حين انتقلنا للمرة الأولى من قحافة للمحلة الكبرى عام ١٩٦٢ عارضت الأمر، بل ورفضته بالفعل. تفهمت رفضها أن تنتزع من جذورها، فقد كان لديها منزلها الخاص في قحافة تربي به الدجاج والبط والأرانب منتجة كل الطعام الذي نستهلكه، أما في المحلة الكبرى فكنا نحيا في شقة صغيرة، مضطرين أن نبتاع كل طعامنا، كانت الحياة في أبسط صورها مكلفة.

بقيت أمي في قحافة لمدة أسبوع بعد أن رحلنا جميعنا. زارها شقيق سيد، والذي كان يعمل في متجر بالمحلة الكبرى. هناك أخبر أمي كم أن



الحياة صعبة علينا بعد انتقالنا، وكم أن إخوتي يعانون من أجل التأقلم مع وضعهم الجديد، وأضاف: "نصر خاصة وضعه سيء". أحدثت زيارته الأثر المطلوب، وفي اليوم التالي كانت أمي في طريقها بالقطار لتنضم لنا في شقتنا الجديدة بالمحلة الكبرى.

ظلت والدتي على تمنعها هذا مع الانتقال للقاهرة. الحياة في القاهرة أسرع من المحلة الكبرى، ولم يكن من السهل التجول بالمدينة، كما أن الحياة بها كانت أكثر تكلفة. تركت العمل في قسم البوليس، بعد أن ساعدني تفوقي على أن أعين في وظيفة معيد بالجامعة، صار لي دخل مادي ثابت، عانينا قليلاً، لكننا تدبرنا الأمر.

كانت بدرية أختي الكبرى قد تزوجت لفترة بسيطة من شاب قبل زواجها الثاني من ابن عمي سيد. لقد كانت فتاة ذكية، طموحة، أرادت أن تكمل تعليمها. لكن لأنها فتاة، قرر أبي أنها يجب أن تتزوج بدلاً من إكمال تعليمها. آنذاك في المجتمع المصري التقليدي لم يكن تعليم الفتاة في أفضل الظروف اختياريًا. لم ينجح زواجها الأول، فقد كان زوجها طفلاً، تضايقت أمه من العروس الجديد التي جاءت لتحيا معهما بالمنزل، وتحصل على اهتمام ولدها بالكامل.

استمر الزواج لمدة عام، توسلت فيه بدرية لوالدي لإنهائه، لكن والدي رفض. واقترح على زوجها بدلاً من ذلك، "لماذا لا تجد منزلاً لك وحدك؟"، لقد استنتج والدي أنه لو والدة الشاب هي من تحيل حياتهم إلى جحيم، فربما كان الانفصال عنها هو الحل الأفضل. لكن زوج بدرية لم يستطع أن يتخذ تلك الخطوة، بعد أن هددت والدته بالانتحار إذا ما رحل

مع زوجته. تطورت الأمور من سيئ إلى أسوأ، وبدأ الجيران يسألون أبي: "لماذا تترك ابنتك تعاني هذا العذاب؟"، ربما كان زوجها رجلاً جيدًا، لكن والدته لا تطاق". وافق أبي أخيرًا على طلاق بدرية.

يعتقد الكثير من المسلمين أن الطلاق هو فصم لعرى علاقة وثيقة، مسموح به في بعض الأحوال، إلا أنه يظل أبغض الحلال. أراد والدي سيرًا هادئًا لمسألة الطلاق، وعلى الرغم من حق الزوجة في الإسلام أن تطالب ببعض التعويضات بعد الطلاق، فإن أبي أبرأ زوج ابنته من كل الحقوق. سمعته يقول: "لو أن ابنتي تكرهه، سأحله من أي التزام، هذا كل شيء وحينها نكون جميعنا أحرارًا". بعد أن وقع الطلاق بفترة وجيزة اكتشفت بدرية أنها حامل، وقد أغضب هذا والدي للغاية، ليس لأنه غير مرحب بحفيده، لكن لأن وجود هذا الحفيد يعني أن العائلتين سيظل بينهما علاقة ما، وقد أراد أن يضع مسألة فشل زواج بدرية خلف ظهره للأبد.

اصطحب والدي بدرية لطبيب مسيحي، وطلب منه "التخلص من الطفل". كان من المستحيل العثور على طبيب مسلم يقوم بالعملية، لذا تصور والدي أن طبيبًا مسيحيًا سيفي بالغرض. وصف الطبيب لبدرية دواء، وأخبر العائلة أنه سيتسبب في إجهاضها، لكنه لم يأتِ مفعوله. حقيقة ما حدث، أن الطبيب خدع والدي، وبدلاً من أن يصف لبَدرية دواء يساعدها على الإجهاض، وصف مجموعة من الفيتامينات لتحافظ على صحة الأم والطفل. لم يفكر أحد في سؤال بدرية، ماذا تريد أن تفعل بشأن الطفل، لقد كان قرار والدي بمفرده.

في هذه الأثناء أنجبت بدرية طفلاً معافى، بعد فترة قصيرة من ولادته، اصطحبه أبي للطبيب المسيحي، وسأله "ماذا حدث؟". أجاب الطبيب

"حامد، لقد تصورت لأنني طبيب مسيحي، فضميري لن يؤنبني أن أقتل طفلاً لم يولد بعد. لقد كنت مخطئًا، ليس من حقك قتل الطفل ولا أنا".
لم يكن أبي فقط سعيداً برد الطبيب، بل شعر بالفخر، وأخذ يروي تلك الحادثة على أصدقائه معقبًا: "هذا الطبيب إيمانه بالله أقوى مني" مبتسمًا ابتسامة عريضة، متأملاً تلك الحوادث لاحقًا في حياتي، جعلتني أرى كيف كان المسيحيون والمسلمون يعيشون سويًا متعاونين مع بعضهم البعض في سلام.

كان لا يزال ابن بدرية وليداً حين تقدم ابن عمي سيد للزواج منها. رفض والدي، مقتنعًا أن إقدام ابن أخيه على تلك الخطوة نابع من شعوره بالمسئولية. أعتقد أن الحب كان يجمع بين سيد وبدرية، لاحقًا اقتنع أبي بأن هذه الزيجة ليست بالفكرة السيئة. لسوء الحظ لم يحيَ ابن بدرية أكثر من أربع أو خمس سنوات، مرض فجأة وتوفي سريعًا، لقد كان زمانًا لم يتمتع فيه المصريون برعاية طبية جيدة.

توفت بدرية عام ١٩٨٠، كانت تبلغ من العمر أربعين عامًا تقريبًا. اعتقد الأطباء أن وفاتها جاءت نتيجة مرض ما ألمَّ بقلبها، لم أعرف حقيقة ما جرى أبدًا. في تلك الفترة كنت بالولايات المتحدة الأمريكية، في رحلة للدراسة مدتها عامان. لدى عودتي لمصر، بضعة أشهر بعد جنازتها، وجدت زوجها سيد محطمًا، يعاني فراقها. بالنسبة لي، توفيت بدرية في اللحظة التي وطئت فيها قدماي أرض مصر بعد غياب عامين. قال سيد: "لقد تركتني أختك ضائعًا، كانت تهتم بكل شيء، تركتني وأنا لا أعرف شيئًا عن منزلي أو أولادي".

بدا تعبير ابن عمي جميلاً، ربما متحجبًا وفقًا لتعريفنا لأحاسيسنا في العصر الحديث، المتأثر بالنظرية النسوية. لكنه عكس معطيات مجتمعه، حيث يحتل الرجل المجال العام تاركًا للمرأة المجال الخاص. أخبرني سيد يومًا ما أنه يخطط للزواج من إحداهن، سألني "هل ستساند هذا الزواج؟" بعد مرور عامين على وفاة أختي، كانت والدتي لا تزال حزينة على فراقها، فرفضت الحضور، وحاولت أن تقنعني بالتخلي عن فكرتي بالحضور: "لا تذهب". كنت متحيراً حين أعلن ابن عمي أنه سيتزوج مرة أخرى، لقد كنت كوالدتي، ما زلت أشعر بالحزن.

أجبته: "بالطبع سأساندك"، لقد ساند سيد عائلتنا بعد وفاة والدي، ماديًا وعاطفيًا، كيف إذن يمكن أن أوليه ظهري في الوقت الذي يحتاج فيه لمساندتي؟ شعرت أنني أدين له بشيء ما. وعلى الرغم من معارضة والدتي، وعدته بحضور حفل الزفاف. في اليوم المنتظر جاءني والد زوجة سيد المستقبلية، وأخبرني: "أشكرك كثيراً لحضورك". لقد حاول التقليل من مظاهر الاحتفال احترامًا لذكرى بدرية، طمأنته: "لا من فضلك.. هذا هو الزفاف الأول للعروس، ولها كل الحق في احتفال مبهج". في تلك اللحظة شعرت بالسعادة لحضوري الزفاف، شعرت أن مجيئي كان رسالة موافقة لعائلتي وعائلة سيد الجديدة. تأقلمت والدتي بعد مرور بعض الوقت مع حقيقة الزواج الثاني لزوج ابنتها، زواج أثمر عن ثلاثة أطفال. شعرت والدتي، كسائر الناس، أن لا معنى لزواج سيد سوى أنه لم يعد يحب بدرية، وكان هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة.

كريمة، من بين أخوتي، كانت هي الأقرب لي. كانت تبدو في العشرين وهي في الخامسة عشرة من عمرها متمتعة بجمال كلاسيكي.

شعرت بمسئولية أن أحميها، رأيت كيف كان الشباب يحملق بها، وبدأت أستقبل بعض المتقدمين للزواج منها. لكنني ووالدتي كنا مهتمين بتعليمها، أردنا أن نسلح كل إخوتي بما أطلقنا عليه "أسلحة الحياة"، لم نكن نملك ميراثًا لنتركه لهم، كنا نحيا يومًا بيوم، ننفق ما نحصل عليه، لذا إن أرادوا الحصول على وظائف مناسبة، لا بد لهم من استكمال تعليمهم.

ينطوي الزواج في مصر على أعباء ومسئوليات مادية، تقع على عاتق عائلتي من يريدان الزواج، وبالتالي حتى لو كنا وافقنا على أحد المتقدمين للزواج من كريمة، لم يكن بمقدورنا أن نوفر لها مصروفات الزواج.

عرفت لاحقًا أن كريمة مرتبطة عاطفيًا بأحدهم، وجدت بعض الخطابات المتبادلة بينهما. شعرت بالقلق، هذه مسألة شرف في المجتمع المصري. إن الفتاة التي تشترك في علاقة جنسية تلحق بنفسها وبعائلتها العار.. فهل كانت كريمة إحدى هؤلاء الفتيات؟

لطالما أرعبتني فكرة تحمل مسئولية فتيات مراهقات. لقد كان لي حظي ونصيبي من الأخطاء، وقد تعلمت منها بالفعل دروسًا قيمة، لماذا إذن لا تتاح لأخوتي الصغيرات نفس الفرصة، ارتكاب الأخطاء واستكمال حياتهن؟ لم يكن هذا معترفًا به في العالم العربي.

حدث بينما كانت آيات - أختي الصغرى - في الجامعة، أن جاءني أحد أصدقائي، وأخبرني في صوت غاضب "هل تعرف أن آيات تقابل أحدهم؟".

أجبت: "لا، لكن لماذا أنت غاضب هكذا؟".

سألني: "ألست خائفًا مما قد يحدث؟".

أجبت: "لا، ولو كنت خائفًا، لما سمحت لها من البداية أن تذهب للجامعة، حيث يختلط الأولاد والبنات بصورة حرة. ماذا فيها إذا كانت تقابل أحدهم؟".

بدا صديقي مذهولاً من رد فعلي اللامبالي، وأضاف: "إذن، فهي ترى أحد تلاميذك، هل ستخبرني أنك ستتغاضى عن الأمر وتنظر للجهة الأخرى؟".

"أنا أخبرك أنني أحاول تربية أختي بطريقة مناسبة".

"هب أنها ارتكبت خطأ، وسمحت لهذا الشاب أن يمارس معها علاقة جنسية، ماذا ستفعل حينها؟ هذا له علاقة بالشرف!".

"لن أكون سعيداً بقرارها"، "لكن هل حقًا تعتقد أن شرف الفتاة يتخلص في تلك القطعة من الجلد، غشاء البكارة؟ قطعًا أرى أنها ستكون قد ارتكبت خطأ كبيراً لو أقامت معه علاقة ما، لكنني لا أعتقد أنها إن فعلت - وهي لن تفعل - أنني سأقتلها".

ثم جاءني يومًا الشاب الذي تقابله آيات لرؤيتي، وكان من تلاميذي المفضلين، طلب مني التحدث على انفراد. بادرني قائلاً: "أنا أحب أختك".. "ثم؟" كان هذا رد فعلي المباشر، وقد فاجأني ما قلت. سألني: "أليس لديك ما تسألني عنه؟".. "لا، إذا أردت أن تتزوج آيات حينها سيكون عندي ما أقوله، لكنك تخبرني أنك تحبها، أنا لا أعرف إذا

كانت تبادلك نفس الشعور، هذه معلومة ليس مطلوبًا مني أن أتخذ قراراً بشأنها. أنت في حاجة لأن تخبر آيات بهذا ليس أنا".

آمنت حقًا بما كنت أقوله، على الناس أن يشعروا بحرية التجربة والتعامل مع حيواتهم، هكذا نتعلم. على الرغم من أنني كنت على دراية بصواب هذا التفكير، فإن رد فعلي الأول تجاه اكتشاف خطابات الحب الخاصة بكريمة كان الغضب. كان من الممكن أن أضربها، أعزلها عن العالم الخارجي، أمنعها من الذهاب للمدرسة، وكان هذا سيعد فعلاً مناسبًا من قبل أب أو وصي، قياسًا على عادات المجتمع المصري، لكنه بالتأكيد فعل غبي، لم أكن لأفعله من ناحيتي. لقد أردت لكريمة، كما لبقية إخوتي، أن يتمتعوا بحرية الاختيار واتخاذ قراراتهم الخاصة. كيف يمكن أن يتسنى لهم التعلم من التجربة، وأنا أقرر بالنيابة عنهم؟ بالطبع حاولت أن أثبطها من ناحية تلك العلاقة.. "سيكون لديكِ الوقت الكافي في المستقبل لمثل هذه الأمور، أما الآن كل ما يجب أن تركزي عليه هو دراستك"، هذه نوعية الحديث التي يوجهها الآباء لأبنائهم المراهقين طوال الوقت.

لم يمر وقت طويل حتى جاء رجل محمل بالهدايا يدق على باب منزلي، والد عريس متقدم لكريمة، كان رجلاً معروفًا لثرائه بالمحلة الكبرى. كان ردي مهذبًا، استقبلته في منزلي ورحبت به، قال: "ولدي سيد يريد التقدم للزواج من أختك، أنتم عائلة محترمة، أنا أعلم أنك تريد لكريمة أن تنتهي من تعليمها، ونحن على استعداد للانتظار حتى تتخرج". أخذ يطمئنني بأنه سيتحمل المسئولية المادية بأكملها، لقد تخرج ابنه، وكان في مرحلة التحضير للالتحاق بالخدمة العسكرية. رأت والدتي أن هذا

الزواج ليس بالفكرة السيئة . . "لمَ لا؟ الرجل ثري وسمعته طيبة ، و الولد تخرج ، لمَ لا؟" .

لقد كنت أحلم بمستقبل مختلف لكريمة ، مستقبل يكفل لها حرية اتخاذ قراراتها ، لامتلاك اختيارت متعددة . لو تزوجت فور انتهائها من المدرسة ، ستكون خبرتها الحياتية ضئيلة . لقد أردت لها المزيد ، كما أنني لم أكن مقتنعًا بأن خطوبتها في هذه الفترة ستجعلها تفكر في استكمال دراستها فعليًا . أخبرت الرجل "أشكرك جزيلاً للمجيء وإحضار كل هذه الهدايا ، لكنني لا أملك إلا أن أرفض هذا الكرم . أرجوك تفهمني ، لا أستطيع الالتزام بأي اتفاق الآن ، والدي رحمه الله أوصاني ألا أزوّج أي من بناته قبل أن تكمل تعليمها" - بالطبع والدي لم يقل أي من هذا ، كانت هذه طريقة دبلوماسية للرفض - "أنت تطلب مني أن أفعل ما ليس في استطاعتي" .

أخبرته أنه بعد أن تنتهي كريمة من دراستها - ومن يدري لعلها تلتحق بالجامعة - لو ما زال سيد مهتمًا بها فسأكون سعيداً للموافقة على زواجهما ، لكن في تلك اللحظة لم أكن قادراً على الوعد بأي شيء محدد .

انتهى الأمر بأننا احتفظنا بالهدايا ، عدم قبولنا بها كان سيعد إهانة . ظلت كريمة تقابل سيد ، لم أستطع إقناعها بالعكس ، وبالطبع لم أكن لأفرض عليها هذا الأمر . لقد كانت في حاجة لأن تجد طريقها بنفسها ، حينها فقط ستكون قادرة على أن تتخذ قرارات حكيمة تصب في مصلحتها . طلبت منها أن تبقيني مطلعًا على مستجدات صداقتهما ، وقد فعلت . أخبرتني أنه كان ينتظرها أمام المدرسة ، وكانا يتحدثان قليلاً ، على الأقل شعرتُ بالارتياح لتخبرني بتلك التفاصيل . حين انتقلنا للقاهرة تصورت

أنهما قد نسيا بعضهما تمامًا. مرت خمس سنوات، تخرجت فيها كريمة وعملت سكرتيرة بجامعة القاهرة. كانت قد جاءت معي إلى القاهرة، قبل مجيء العائلة بأكملها، في هذا الوقت كنا نخرج سويًا كثيرًا، قدمتها لأصدقائي وارتدنا معًا السينما والمسرح، كم كانت تلك الفترة رائعة بحق.

ظهر سيد يومًا ما أمام مكتبي في قسم البوليس بالجيزة، بعد أن علم بنقلي من المحلة الكبرى منذ عدة سنوات، لم يكن من الصعب إيجادي. جاءني مرتديًا الزي العسكري الذي بدا فيه وسيمًا، كانت زيارته مفاجئة - ولم تكن بالمفاجأة السارة. لم يكن رد فعلي مخطئًا لو رفضت مقابلته، لكنني رغم ذلك قلت: "تفضل، اجلس قليلاً لتشرب شيئًا". أخبرني بصورة مباشرة: "لقد جئت لأطلب منك أن تفي بوعدك".. "أنا على وشك الانتهاء من أداء الخدمة العسكرية، وكريمة تخرجت، لقد قطعت وعدًا".

قلت "نعم، هذا صحيح. لن أتراجع عن وعدي الذي قطعت، لكن مرت خمسة أعوام، بل ستة تقريبًا، وقد تغير الكثير". كنت أماطله، ماذا أفعل؟، ثم خطرت لي فكرة، طلبت منه أن يأتي معي للمنزل الآن، سنجلس مع كريمة، ونسألها إذا كانت تريد الزواج منك.. "لكن ستعدني أنك ستقبل بقرارها". لم أكن مقتنعًا بأن هذا الزواج قرار حكيم، في رأيي كان سيد ولدًا مدللاً، الابن الوحيد لرجل ثري معتمد على والده في معيشته. وكانت الصورة المثلى للرجل آنذاك، خلال فترة الستينات، هي للرجل العصامي الذي يؤسس لمستقبله بنفسه، أما اليوم، فالأمور اختلفت، وأصبح كل شيء يتمحور حول حجم الثروة التي يمكن أن ترثها.

استغرقنا الوقت ساعة للوصول للمنزل، كنت أشعر بنفسي مرتعشاً، أذكّر نفسي، هذا اختيار كريمة، هي ناضجة بما يكفي لتتخذ قرارها بالزواج، حتى لو لم يعجبني هذا القرار، لا بد أن أساندها. حين وصلنا للمنزل، فتحت كريمة الباب، اتسعت عيناها وشهقت. جلسنا لتناول الشاي، وبينما أنا حابساً أنفاسي، بدأت الحديث "كريمة، لقد وعدت سيد منذ ست سنوات مضت أنه لو ما زلتِ مهتمة لأمره بعد التخرج، فسأوافق على زواجكما، الآن الأمر يرجع لكِ، هل ما زلتِ مهتمة؟".

بدت تلك اللحظة دهراً، صمتت كريمة، لم تقل شيئًا لمدة دقيقة أو اثنتين. ثم قالت: "انظر يا سيد لقد كنا صغاراً.. أطفالاً". حملق سيد في الفراغ، وكان ما سمعه كافيًا، نظر لي: "هل يمكنني الاستئذان؟"، أخبرته: "أنت مرحب بك في هذا المنزل وقتما تشاء".

بعد ما قالته كريمة، والذي أراحني للغاية، لم يكن من الصعب أن أكون مضيافًا. "شكرًا"، أخبرني "لقد حافظت على وعدك معي، سأنصرف الآن". اصطحبته حتى موقف الأتوبيس، وحين عدت للمنزل وجدت كريمة تبكي. حاولت مواساتها على أفضل نحو أستطيع.. "لا بأس، لقد كان اختياراً صعبًا، أعرف أنه لم يكن سهلاً". الصراعات الداخلية دائمًا تصاحب القرارات المهمة والصعبة. قالت وهي تبكي: "لدي معه العديد من الذكريات الجميلة".. "نعم بالطبع ستبقى تلك الذكريات جزءاً من شخصيتك لماذا تريدين التخلص منها؟". سألتني: "ماذا كنت تتوقع لقراري"؟، أجبت: "حقا، لم أكن أعرف، لو كان زواجك منه سيجعلك سعيدة كنت وافقت. لقد كان الأمر بحق يعود لك"، وعلى

الرغم من تحفظي على الزواج، فإنني عنيت كل ما قلته لها. ضغطت عليّ كريمة أكثر: "ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني؟"، بكل أمانة أخبرتها: "كنت أود أن تؤسسي لعائلتك مع شخص يصنع حياته بنفسه، وليس اعتمادًا على أبيه".

عملت كريمة لسنتين أو ثلاث لاحقًا مكتسبة تجربة الحياة الصاخبة بالقاهرة. أخبرتني يومًا ما أنها قابلت شخصًا تريد الزواج منه، كنت واثقًا في حكمها، ولم أندم يومًا على إعطائها الحرية اللازمة لاتخاذ قرارتها بنفسها. أحيانًا خلف ستار الحماية، يدمر الآباء حياة أبنائهم. المرأة في مجتمع ذكوري كمصر، هي الأكثر تعرضًا لهذا النوع من الاستغلال. بالطبع، لقد عانت من هذا أختي الكبرى بدرية، فلقد تلاعب أبي بحياتها، في محاولة لفعل ما اعتقده الأفضل لها دون أن يعطي لها الفرصة أن تندمج هي في عملية الاختيار.

أنهى كل إخوتي الصغار مرحلة الثانوية العامة. تخرجت آيات في جامعة القاهرة قسم اللغة اليابانية، أسامة درس الهندسة في الجامعة، ومحمد لم يكن مهتمًا بالتعليم، فاكتسب خبرة من العمل في دكان والدي، لاحقًا عمل في مصنع غزل ونسيج في طنطا، وحصل على ترقيات متابعة، ليستقر به الحال في منصب جيد، كلاهما تمتع بفترة مراهقة بحرية واستقلال لأنهما ذكور، أمر لا يتاح للنساء. ولأنني أعرف أن المجتمع المصري يضع المرأة في هذا الموضع غير المميز، انصب اهتمامي على حصول كل من كريمة وآيات على الحرية التي يحتاجانها من أجل تجربة الحياة بمفردهما. أختي الكبري بدرية هي الوحيدة بيننا التي لم تلتحق بالثانوية العامة، لكنها كانت تقرأ في

مواضيع متنوعة لتعلّم نفسها. إنه لمن سوء الحظ أنها لما تكمل تعليمها، أعتقد أنها كانت ستقطع به شوطًا كبيرًا.

سأكون مقصرًا، لو لم أذكر شيرين، ابنتي المتبناة. قابلت شيرين بعد فترة وجيزة من تعيينها كمعيدة بجامعة القاهرة. كنت في ذلك الوقت أستاذًا مساعدًا، عملنا سويًا في لجنة امتحانية، وهي المساحة المناسبة لاجتماع الأجيال الجديدة والقديمة معًا، للعمل في وسط هادئ غير مشدود الأعصاب بعيدًا عن الأداء الأكاديمي الرسمي، بل والجامد.

أحيانًا بعد الانتهاء من العمل كنا نذهب لتناول الغداء سويًا. كانت ابتهال في هذا الوقت أستاذًا مساعدًا، حصلت على درجة الدكتوراه، غير متزوجة، والصديقة الحميمة لشيرين. يومًا ما جاءت شيرين لتسألني دون مقدمات: "هل تمانع لو ناديتك بأبي؟"، كان رد فعلي الفوري أحمق، فأجبت: "نعم، أمانع فأنت لديكِ أب، أليس كذلك؟"، أجابت: "لا، لقد توفي والدي منذ زمن بعيد، ولا أعتقد أن والدتي ستمانع لو ناديتك بأبي". والدة شيرين كانت مدرسة استطاعت أن تربيها بمفردها. تساءلت: "ما الاعتراض في أن أناديك أبي؟"، "أنا لا أريد أن آخذ شيئًا لا ينتمي لي".. "نستطيع أن نكون أصدقاء، لكن لا داعي أن تناديني بأبي".. "لكن أحب أن أناديك بأبي"، لقد كانت تتصرف، وكأنها بالفعل ابنتي، تحاول أن تتناقش معي كما كانت تفعل معي إخوتي الصغيرات. وافقت أخيرًا، "حسنًا، لا مانع لدي، إذا كنتِ حقًا تريدين ذلك. لدي أولاد كثيرون، ما المانع لو زادوا واحدة؟ لكن حتى إخوتي الذين قمت بتربيتهم لم يناديني فيهم أحد بأبي".

على أي حال بدأت شيرين تناديني بأبي. حين تزوجنا، أنا وابتهال، احتفلت شيرين معنا، وبعد سفرنا كانت قد رحلت بالفعل للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه، وحين صارت قضيتي قضية رأي عام، نشرت مقالاً تدافع فيه عني، وظللنا على اتصال مقرب حتى بعد رحيلي عن الوطن.

تقابلنا أنا وشيرين عام ١٩٩٧ في مؤتمر ضخم، كانت من المشاركين به وأحد المتحدثين. كانت وقتها تدرس الأدب الإنجليزي في جامعة القاهرة، تقبل دعوات للتحدث في محافل عالمية. كان أحدث مشاريعها عن النساء العربيات اللائي يكتبن بالإنجليزية. وصلت للمطار قبلها بساعتين كاملتين، هكذا كان شغفي لرؤيتها، كنت أريد التأكد من وصولي مبكراً لتحيتها فور وصولها. حين وصلت جلسنا سوياً في الكافيتريا، أمضينا ساعات نشرب القهوة ونتعرف على ما حدث لكل منا في الأعوام الأخيرة. لاحظت أن الوقت قد تأخر، وأوشك المساء على الحلول، قلت: "لا بد أن نذهب الآن لأوكسفورد". بعد وصولنا هناك لم تكن إقامتنا جاهزة، لذا اضطررنا للنزول في فندق قريب. غرفة واحدة فقط كانت متاحة، وحين لاحظتني شيرين أتململ سألتني: "ما هي المشكلة؟"، "لا لا توجد لدى مشكلة"، كذبت، فأنا ذو خلفية محافظة، وعلى الرغم من أن شيرين أعلنت منذ زمن بعيد أنها ابنتي، لم أعرف كيف بي أن أنزل في فندق في غرفة واحدة طوال الليل مع تلك السيدة الشابة الجميلة؟

قالت شيرين: "الحقيقة يا أبي، لديك بالفعل مشكلة، ليس أمامنا اختيار، لا بد أن نتشارك بالغرفة فهذا هو المتاح"، "نعم أنا لدي مشكلة،

انت محقة"، اعترفت: "أنا أشخر"، أجابت: "إذن سأضطر أن أسد أذني".

كان هذا ما حدث، في الصباح التالي كانت الغرف في أوكسفورد جاهزة، وانتقلنا لغرف منفصلة. قضينا أسبوعًا مبهجًا معًا. الكثير من أصدقائي حول العالم كانوا موجودين، وكانوا ينظرون لنا بتشكك: "هل هي فعلاً ابنتك؟ إن اسمها مختلف عنك"، "نعم" كنت أؤكد لهم، "لقد قررت أن تكون ابنتي، هذا اختيارنا". بالنسبة للعرب والمسلمين، فهم يحتاجون لوقت طويل لتقبل حقيقة أن يكون لك ابنة ليست ابنتك البيولوجية. بالإضافة لذلك فهناك العديد من الرجال يبتسمون بخبث، كما لو أن لسان حالهم يقول: "آه.. أتفهم"، يعانون من صعوبة في تصديق أن هناك احتمالية لإقامة علاقة بين رجل وامرأة دون ممارسة الجنس.

اتصلت بي شيرين يومًا متحدثة في حماسة: "أبي، سأتزوج، نحن مغرمان ببعضنا البعض، بعد الزواج سنأتي لزيارتك"، تحدثتُ لزوجها المستقبلي عبر الهاتف، كان مخرجًا سينمائيًا عرفته من اسمه. بعد أن تزوجت بعام توفي، سألتها، وأنا أحدثها على الهاتف: "أين أذهب؟ ماذا يجب عليّ فعله؟"، كانت غريزتي تخبرني أن أهرع لأكون بجانبها في هذا الوقت، إلا أنها جاءت بنفسها، وأقامت معي أنا وابنتها لمدة أسبوع، ونتيجة لزيارتها أدركت كيف نما بداخلي قدر من الحب والاهتمام تجاه هذه الإنسانة. لقد عانت كثيراً بعد خسارة زوجها، لكنها كانت جاهزة لأن تستجمع قواها، وتكمل حياتها من جديد.

الصباح الذي تركتنا فيه ورحلت، أخبرت ابتهال: "هذه الفتاة قوية وستكون بخير". وأصبحت هكذا بالفعل، على الرغم من المصاعب التي واجهتها في أمور الميراث مع عائلة زوجها. أخبرتني لاحقًا عبر الهاتف: "إنهم يريدون أن أختفي من الحياة، لن أفعل هذا فلدي حقوق محددة"، لم يكن هناك شك أنها بالفعل ستعرف كيف تعتني بنفسها. حين تم تنصيبي لمنصب "كرسي كليريفينجا" عام ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١ في جامعة لايدن، أردت منها حضور الاحتفال. أكدت لي: "بالطبع سأحضر"، ذكرتها في خطابي كابنتي، وكان التقليد يقتضي أن تقف العائلة كلها في مكان الاستقبال بعد الانتهاء من إلقاء الخطابات، وكانت بالطبع موجودة.. "الآن أصبحت ابنتك بشكل رسمي، لن تستطيع أن تنكر هذا بعد الآن". لم أفكر قط في إنكار علاقتنا، وبمرور السنوات نما داخلي شعور أبوي بالفخر حيال شخصها وكل الإنجازات التي حققتها. مؤخراً تقابلنا في مؤتمر بدمشق، وقد اتفقت اللجنة المنظمة مع محمد منير المغني المصري الشهير لإحياء الأمسية بعد الانتهاء من ورش العمل.

عرفت منير منذ كنا طلبة معًا، شرع بغناء كلمات جميلة: "علي صوتك بالغنا، كل الأغاني ممكنة"، وجدت نفسي أتأثر بكلمات الأغنية وأتحرك معها. هل هذا ممكن؟ حقًا؟ هل من الممكن أن نستمر بالغناء؟ بالنسبة لي كان المجاز رمزاً لإعادة البهجة للحياة، السعادة والحرية الفكرية. هل الغناء ممكن؟ ظل منير يعيد تلك الجملة مراراً وتكراراً، وقبل أن ألحظ، كان وجهي مبللاً بالدموع. مستني أغنيته، وانسابت دموعي بحرية. كانت

أفكاري عن مصر، مصر التي أحبها وأكرهها، وكان جزء من حزني سببه الجرح الذي سببته لي، وخففه وجود شيرين في تلك اللحظة.

اليوم التالي كانت شيرين أحد المتحدثين. شاهدت أداءها بتركيز، كانت تتعرض للهجوم. كان حديثها يدور عن الرقابة، وكيف تبدو هذه الأيام وكأنما تنبت من جذور بمجتمعنا. هناك ذلك الإحساس بالعالم العربي أن معظم مشاكلنا ومعاناتنا لها نتيجة مباشرة بالغرب، إحساس يدفع لسيطرة منطق الرقابة. شيرين في محاولة منها أرادت بيان كيف أن الرقابة لن تحقق أبداً هذا النوع من المجتمع الذي يتخيله المسلمون. حاول المستمعون أن يضعفوا من منطقها وينتصروا عليها، لكنها أجابت بدقة وتماسك، واستخدمت حسها الفكاهي لتخفف من حدة الموقف. بعد ذلك احتضنتها لأخفف عنها قدر استطاعتي، فلقد أثرت عليها تلك المناقشة. لقد اعتبرني الكثير من الشباب رمزاً أبوياً لهم، أحببتهم جميعًا، وبمرور السنوات اتخذت شيرين مكانها بجانب إخوتي الذين ربيتهم. أنا بالفعل محظوظ لادعائي أنها ابنتي.

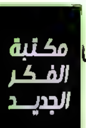
الفصل الرابع

باحث متردد

حالما انتهيت من الدراسة بجامعة القاهرة في عام ١٩٧٢، عينت معيداً بكلية الآداب قسم اللغة العربية. شعرت حينها بالفخر، حيث كانت تلك التعيينات مقصورة على الطلاب المتفوقين. شعرت بأنني محظوظ أيضًا، لقد كان حلمي هو التدريس، وها هو على وشك التحقق. استقلت من وظيفتي بقسم البوليس، وبدأت بمتابعة مسئولياتي بحماس جديد.

العقبة التالية التي واجهتها في حياتي الأكاديمية كانت اختيار مجال الدراسات العليا. أخبرت من قبل القسم أنهم في حاجة ماسة لطالب يتخصص في مجال الدراسات الإسلامية. نصحوني بشدة أن أختار هذا الاتجاه في رسالتي الماجستير والدكتوراه، لكنني كنت متردداً بشأن تنفيذ تلك النصيحة.

نبع ترددي تجاه اختيار مجال الدراسات الإسلامية من قراءاتي السابقة حتى قبل أن ألتحق بالجامعة. منذ أن بلغت العشرين من عمري، السن التي بدأت بها دراستي الجامعية، وأنا أقرأ أكثر مما فعل أي من أقراني، ومن



خلال قراءاتي بدأت أدرك خطر البحث في تخصص الدراسات الإسلامية. تعرفت حينها على قضية علي عبد الرازق ١٩٢٥، مؤلف كتاب "الإسلام وأصول الحكم" [١٥]. في هذا الكتاب، طرح نهاية مبدأ الخلافة، وهو إحدى الركائز الأساسية في الفكر الإسلامي، فالخلافة من وجهة نظره ليست ضرورية بالإسلام، لكنها كانت مجرد نظام حكم سياسي طبقه المسلمون.

الإسلام في واقع الأمر لا يصر على شكل معين من الحكم. لم يدّعِ محمد أبدًا أنه ملك أو حاكم، لقد كان دوره هو قائد ونبي في المدينة، وتُرك الأمر للمسلمين أن يقرروا شكل نظام الحكم الذي يريدون. كان عبد الرازق يسير فوق الأشواك ببحثه هذا، في الوقت الذي كانت تعتبر فيه الدولة والإسلام كيانًا واحدًا.

وعلى الرغم من أن السلطات التركية أنهت نظام الخلافة في تركيا بعد الحرب العالمية الأولى عام ١٩٢٤، تنافس العديد من القادة العرب والمسلمين على نيل لقب الخليفة الجديد، وهو ما لم ينجح فيه أحد، وفي عام ١٩٢٥ كان الملك فؤاد ملكًا لمصر. لم يقوّض كتاب عبد الرازق من الأسس الأصولية للإسلام فقط، بل هدد المصالح السياسية، لذا رأى الملك فؤاد أن نظامه، المتضمن بعض الحكام الدينيين، وطموحه في الخلافة كانا يتعرضان للهجوم، وهو ما جعل الحكومة في حاجة للتخلص من عبد الرازق.

لقد كان عبد الرازق قاضيًا شرعيًا حين أصدر كتابه. تخرج في مؤسسة دينية، وكان باحثًا مسلمًا حاول أن يكسب الإسلام مفهومًا عصريًا مفهومًا

---

[15] علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٢٥، القاهرة.

لو تم تطبيقه، كان سيحدث تغييراً كبيراً، كانت هذه هي المشكلة، فلقد هدد السلطة القائمة. وعليه شكّل الأزهر، المؤسسة الأصولية، لجنة تحقيق لتقييم كتاب عبد الرازق وإصدار حكم بشأنه. في النهاية أقرت اللجنة اتهامه بالهرطقة، وتم رفده من منصبه، لم يعد قاضياً، بل وسحبت المحكمة منه الدرجات العلمية التي حصل عليها منذ أن كان طالبًا.

النموذج الثاني كان طه حسين. حصل طه حسين على درجة الدكتوراه من السوربون تحت إشراف عالم اجتماع فرنسي هو إيميل دوركايم (١٨٥٨ ـ ١٩١٧). في عام ١٩٢٦ نشر طه حسين كتابًا بعنوان "الشعر الجاهلي"[١٦٠]، حيث ناقش فيه أصالة الشعر الجاهلي في فترة ما قبل الإسلام. ينتمي الإنتاج الفكري لطه حسين لسياق الحركة الفكرية المرتبطة بالمؤسسة الأكاديمية الحديثة في الجامعة القومية (جامعة القاهرة لاحقًا). في بداية القرن العشرين كان من المتفق عليه، أن لغتي شمال الجزيرة العربية وجنوبها مختلفتين، لكن حين أجرى طه حسين بحثه عن الشعر الجاهلي وجد شعراء من اليمن (جنوب الجزيرة العربية) وشعراء من شمال الجزيرة العربية يعبرون عن أنفسهم بلغة متطابقة. ولأن الشعر الجاهلي لم يعكس الاختلاف اللغوي المتوقع، توصل طه حسين لاستنتاج أن هذا الشعر كُتب بعد أن أوحي بالقرآن لمحمد.

بالإضافة لذلك ذكر حسين أن القصة القرآنية لوصول إبراهيم لمكة مع زوجته هاجر ووليده إسماعيل ـ وهو الحدث الذي يؤرخ لوحدة الجزيرة العربية بلغة واحدة ـ كانت في حقيقة الأمر قصة تناقلت شفويًا قبل نزول

---

[١٥] طه حسين، الشعر الجاهلي، دار المعارف ١٩٢٦، القاهرة.

القرآن (كانت هناك روايات أخرى لقصة إبراهيم، هاجر، سارة، إسحاق وإسماعيل عرفت قبل نزول القرآن). استنتج طه حسين أن القصة القرآنية تم تحويرها وإعادة تقديمها عن طريق العرب (السكان الأصليين للمدينة) نتيجة لهجرة اليهود من اليمن إلى المدينة. القادمون الجدد من اليهود كانوا غرباء، وكعادة ظهور وافدين جدد بالمشهد ينشأ الصراع. وكطريقة لإنهاء هذا الصراع، نسج العرب قصة توضح أن اليهود والمسيحين ينتمون لجد واحد، إبراهيم. القصة هي طريقة لدمج الوافدين في مجتمع ما، في هذه الحالة كانت القصة تستخدم لبناء جسر بين اليهود والعرب. وبما أن تلك القصة قد وجدت قبل نزول القرآن، فقد استخدمها القرآن ليربط نفسه ببعض التقاليد الإبراهيمية. إنها قصة شعبية، تقول إننا جميعا ننتمي لجد واحد. أراد طه حسين من تلك القصة القول إن القصة يجب ألا تؤخذ بحرفية، فهي لم تحدث بالضرورة تاريخيًا. بالإضافة لذلك استخدم القرآن تلك القصة بالذات ليس فقط لوضع الإسلام في قلب التقليد اليهودي المسيحي، ولكن ليؤسس أقدميته كأحد الأديان التوحيدية.

وعلى الرغم من أن طه حسين اعتبر القرآن المصدر الأكثر صدقًا وأصالة لفهم الحياة الإجتماعية والدينية للعصر الجاهلي، فإن كتابه أثار زوبعة كبيرة. وصل الخلاف حوله للبرلمان المصري، وصار طه حسين متهمًا بالإساءة للإسلام. قبل أن تتم محاكمته تم استجوابه من قبل النائب العام، وكان رجلاً مثقفًا مستنيرًا، قرأ كتاب طه حسين المثير للجدل وحقق في اتهامه بالهرطقة، وتوصل إلى أن طه حسين لم يكن له أي نية للإساءة للإسلام، لقد كان عمله علميًا فكريًا فقط. ربما تسببت لغته في إحساس

بعض الأطراف بالإهانة، لكن هذه هي لغة البحث والعلم. لقد كانت نوايا طه حسين شريفة. برّأ النائب العام طه حسين من التهم الموجهة إليه بوجود أي نية عدائية ضد الإسلام. لكن على الرغم من هذا عانى طه حسين في تلك الفترة، وتأثرت سمعته بشكل سلبي، وأجبر على إعادة كتابة الكتاب، ونشره تحت عنوان مختلف. ومع ذلك كانت النسخة الجديدة تعتمد على نفس منهج البحث كالكتاب الأصلي. في النسخة الثانية المعدلة من الكتاب حذفت قصة إبراهيم وإحضار هاجر لإسماعيل للجزيرة العربية، وأطلق على كتابه الجديد "الأدب في العصر الجاهلي"[١٧].

طبقًا للرواية الشهيرة، كان لإبراهيم زوجتان، سارة وهاجر. شعرت سارة بالغيرة من هاجر وابنها إسماعيل، مع أن سارة كانت قد أنجبت بعد هاجر بسنوات ابنها إسحاق، ونتيجة لهذا الصراع المنزلي، طلبت سارة من إبراهيم أن يرسل هاجر وإسماعيل بعيدًا. اصطحب إبراهيم هاجر وابنها اسماعيل لمكان مهجور بالجزيرة العربية، تاركًا إياهما بهذا الدعاء "ربَّنَا إنِّي أسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ". وبالفعل بدأ الناس في التوافد، بعد أن ـ كما تذكر القصة ـ أخذ إسماعيل يحفر في الرمل حتى آلمته ذراعاه فبكى، وتفجر الماء من المكان الذي حفر به ليجتمع الناس، لقد تقبل الله دعاء إبراهيم. إسماعيل لم يكن عربيًا، لكن لأن العرب قاموا برعايته واحتضانه في هذا المجتمع الجديد، ولم يمضِ وقت طويل حتى انتمى إليهم.

---

[17] طه حسين، الشعر الجاهلي، دار المعارف ١٩٢٧، القاهرة.

ذكر طه حسين أن حديث القرآن عن إبراهيم وإسماعيل لا يعني إثباتًا لوجودهما الفعلي كأناس من لحم ودم. بالطبع كان طه حسين يرتكز في بحثه على ما تتبناه حركة الإصلاح الإسلامية من أفكار، الحركة التي وصلت إلى أوجها بنهاية القرن التاسع عشر، والتي وضعت حدًا فاصلاً بين مفهومي التاريخ والنص الديني. محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) المفكر العقلاني ورائد مدرسة التفكير الإسلامي الحديث، اعتقد أن قصص القرآن كانت جميعها حكايات رمزية وليست حقائق تاريخية عن أحداث وقعت بعينها، موضحًا أن استخدام القرآن للأسلوب القصصي كان لإيصال الحقائق الروحية والأخلاقية.

أكد طه حسين أن قصص القرآن لا تعكس بالضرورة الوقائع التاريخية، وأن نصوص ما قبل الإسلام كالنصوص الشعرية كتبت بعد نزول القرآن، واكتسبت مكانة لم تؤت لأي نص مماثل. ربما يعتمد النص الديني على حادثة تاريخية، لكن هذا النص ليست مهمته أن يعكس حادثًا تاريخيًا بعينه، القصص لها معانٍ أخرى تتعدى حدود النص. أشعلت آراء طه حسين خلافًا حادًا، كيف يمكن أن يدعي أي شخص أن القرآن ليس دقيقًا تاريخيًا؟

بالطبع كانت هناك قضايا أخرى، وعلى الرغم من أنني قرأت عنهم جميعًا، لم يعرف الناس عن الثورة التي كانت تجري داخل قسم اللغة العربية جامعة القاهرة في الماضي القريب. في عام ١٩٤٧ قدم محمد أحمد خلف الله، مدرس مساعد، أطروحته لنيل درجة الدكتوراه بقسم اللغة العربية في جامعة القاهرة.

أشرف الأستاذ أمين الخولي، وهو باحث إصلاحي مهم لم تلق أبحاثه التقدير الذي يليق بها، على أطروحة خلف الله، والتي كانت تحمل عنوان "الفن القصصي في القرآن الكريم". طوّر الخولي مدخلاً فنيًا لدراسة القرآن الكريم، وهو الاتجاه الذي بدأه محمد عبده، وتلاه طه حسين ثم أكمل هو في نفس الاتجاه. لقد أثبت بكل وضوح أن النص المقدس يمكن دراسته من زوايا عدة مثل الزوايا الفلسفية والأخلاقية، لكن من أجل أن نفعل ذلك يجب أن نبدأ بدراسة القرآن كنص أدبي.

استخدم خلف الله المدخل الأدبي لاستكشاف معاني القرآن. بنى رسالته على تفريق واضح بين التاريخ والقصة في القرآن. بعد نقاش محتدم رفضت الجامعة رسالة خلف الله، وأعلنت أن المدخل الذي استخدمه في دراسة القرآن الكريم يلقي بالشك حول أصولية وقدسية النص الإسلامي. فصلت الجامعة خلف الله، وحولته لوظيفة إدارية في وزارة التعليم. كما منع أمين الخولي، الرجل الذي أعتبره بمثابة جد لي، من التدريس والإشراف على الرسائل العلمية في تخصص الدراسات الإسلامية، وسمح له فقط بتدريس النقد الأدبي واللغة العربية التراثية. في عام ١٩٥٤ بقرار من حكومة الضباط الأحرار تم إجبار الخولي على التقاعد هو وعدد من الأساتذة. تبعًا للحكومة، كان هذا الفعل جزءاً من الحركة الثورية التي هدفت لاستئصال الفساد من المجتمع المصري وتطهير الجامعات. أصبح الكرسي الذي شغله أمين الخولي خاليًا، وترك أمر تدريس الطلاب لأي أستاذ يبدي رغبته في ذلك.

أردت أن أعرف ماذا حدث في النهاية لمحمد أحمد خلف الله. لقد توحدت معه وآمنت بأننا نشكّل مجموعة من الباحثين الصاعدين، نعتني

بيعضنا البعض كما يعتني البستاني بالزهور، ثم أتت ريح عاتية أطاحت بكل شيء. اكتشفت لاحقًا أن خلف الله كتب رسالة أخرى، بعض مضي ثلاثة أشهر على رفض الأولى، رسالة تافهة، فقط لينال الدرجة العلمية. قابلته وتعرفت عليه، ولاحقًا حين بدأت مشاكلي، التي انتهت بوجودي بالمنفى، كتب ثلاث مقالات مهمة تتناول أعمالي وتشرح كيف يمكن كتابة تقرير علمي. كان متحمسًا أن يشرح للجمهور المصري أن اتهامي بالهرطقة والردة كان بسبب أن من اتهموني بذلك لا يعرفون شيئًا عن كيفية أداء البحث العلمي.

حين كنت أدرِّس بجامعة القاهرة، دعوت خلف الله ليأتي ويحاضر طلابي. كانت تلك أحد طرق التدريس لدي، دعوة الأساتذة من خارج الجامعة ليشاركوا الطلاب خبراتهم وحكمتهم. أبدى تردده فذكرته "أنت جزء من جامعة القاهرة شاءت أم أبت، وحتى المشاكل التي واجهتها مع رسالتك هي جزء من تاريخ هذه الجامعة. أنت باحث بالدراسات الإسلامية، أود لطلابي أن يقابلوك، ستكون مناقشة مفيدة".

وافق في النهاية، في اليوم المتفق عليه كنت في طريقي لأصطحبه حين اتصل بي قائلاً: "اسمع يا نصر، أنا آسف، لن أستطيع المجيء، لم آتِ لجامعة القاهرة منذ خمسين عامًا، أنا فقط لا أستطيع أن أفعل ذلك". تفهمت موقفه في ذلك الوقت، وربما أتفهمه أكثر اليوم. أتساءل لو أنه قدر لي أن أعود وأدرِّس مجددًا بجامعة القاهرة بعد غياب بلغ ثماني سنوات. أوقات كثيرة أشعر فيها كطفل منبوذ، لا بد أن خلف الله يشعر بذلك أيضًا.

الخلاصة أنني كنت واعيًا بتاريخ قسم اللغة العربية حين بدأت دراساتي العليا بجامعة القاهرة، وعلى الرغم من اهتمامي طوال الوقت بالدراسات الإسلامية، ورغبتي في الحصول على درجتي العلمية بهذا المجال ، إلا أنني رفضت المضي قدما بهذا الطريق وشعرت بخطورته وقررت أن أعمل بمجال النقد الأدبي عوضًا عن ذلك. لم يقتنع القسم بهذا القرار، الذي مارس عليّ بعض الضغوط، مؤكدًا أن المعيد الجديد لا بد أن يكون في مجال الدراسات الإسلامية. حين اعترضت، بدا رد فعلي غريبًا، وبدأ أعضاء القسم يسألونني لماذا؟

أجبت: " تعرفون المشكلة، مشكلة علي عبد الرازق، طه حسين، محمد أحمد خلف الله"، لكن أساتذتي حاولوا التهوين من مخاوفي، وأخبروني أن المشاكل التي واجهها هؤلاء كانت شخصية ونتيجة لخلافات بين الأساتذة. لم يكونوا على علم كيف أنني أعرف تاريخ القسم جيداً. سألني أحد الأساتذة: "لماذا تظن أن مصيرك سيكون مثلهم؟ هل تعتقد أنك ستضيف جديداً؟". هذا بالطبع هو التفكير المعتاد، إذا عملت بمجال الدراسات الإسلامية، فالمفترض أنك لن تكتشف جديداً. الباحثون الإسلاميون، بشكل عام، يشرحون ما تم الاتفاق عليه. يعتبر التحقيق العلمي غير ضروري، بل ويحمل قدراً من الخطورة، ولا تتعدى الدراسات الإسلامية كونها وعظًا.

لقد بدأ أمين الخولي، طه حسين، وآخرون في إخضاع مجال الدراسات الإسلامية لقواعد البحث العلمي، وهو ما حاولت عمله أيضًا. لكن معظم العالم الإسلامي يرفض تطبيق قواعد البحث العلمي على دراسة الإسلام،

هذه هي المشكلة الأساسية. حين يُذكر موضوع الدراسات الإسلامية، يبدأ الناس يفكرون بالإيمان وليس البحث العلمي. اليوم تأتي الدراسات الإسلامية معظمها بأفكار مجربة للناس من خلال الوعظ، لكن دون النظر لتلك الأفكار من خلال عدسة ناقدة. بالطبع، استفزني حديث أستاذي، وتساءلت: "ماذا تقول؟ هل تم تعييني كباحث بالدراسات الإسلامية فقط لأعيد ما قيل من قبل؟ كيف يمكن أن يعد ذلك احترامًا للقرآن الكريم؟ هل تشجعني ألا آتي بجديد لمجال الدراسة؟ لماذا إذن سأصبح باحثًا؟!

بالفعل، لقد كنت صريحًا في ردي، وكنت أيضًا ناقدًا لافتراضهم أن دراسة الإسلام لا تثمر عن جديد. وبَّخني الأستاذ مذكرًا إياي أنني ما زلت عضوًا جديدًا بالقسم. وعلى الرغم من بذلك شعرت بأنني يجب أن أتحدث بما أراه. "أنا آسف، لكنني أعتقد أن مهمتي كباحث هي إضافة جديد لمجال الدراسة". ولتجنب مزيد من المشاكل تجاوبت مع الخطة البحثية التي وضعها القسم لي، وأصبحت باحثًا بالدراسات الإسلامية، لكنني عزمت على ألا يكون مشرفي واحدًا من الأساتذة التقليديين الذين أشرفوا على معظم الرسائل السابقة. ومنذ فراغ المنصب الذي شغله أمين الخولي بعد أن أجبر على التقاعد، لم يكن هناك أحد بهذا المجال ليقوم بالإشراف عليّ، فاخترت عبد العزيز الأهواني، وهو خبير الدراسات الأندلسية وأستاذ التراث ليشرف على رسالتي.

قررت أن يكون موضوع رسالة الماجستير هو "دراسة تفسير المعتزلة للقرآن" مركزًا على مبدأ المجاز. حركة المعتزلة بدأها واصل بن عطاء (٧٤٨) وبلغت أوجها في النصف الأول من القرن التاسع. طبقًا للمعتزلة،

فالقرآن هو كلمة الله غير المخلوقة، لكن الكلمات والحبر والورق المستخدمين في التعبير عن النص الذي جاء لنا في وقت معين ومكان معين هي من تم خلقها، وبالتالي فالنص الأصلي الذي نملكه اليوم هو ظاهرة مخلوقة. بين أعوام ٨٢٧ و٨٣٣ بدأ الخليفة العباسي المأمون تحقيقًا أعلن فيه أن أي قاضٍ شرعي يقاوم منطق المعتزلة بخلق القرآن سيخسر وظيفته، وربما يتعرض للسجن. هذا لم يمنع أحمد بن حنبل (٧٨٠ ـ ٨٥٥) المعين من قبل المأمون، أن يتمسك بالفهم التقليدي للقرآن باعتباره غير مخلوق وأبدي.

هل كلمة الله موجودة في متن الرسالة المعبر عنها باللغة البشرية؟ هل تحتوي تلك الرسالة على اللغة كعامل أساسي؟ القرآن يذكر: " قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا" (سورة الكهف، الآية ٢٧)، لو أن كلمة الله لا يمكن حصرها، كيف يمكن للقرآن وهو النص المحدود بزمان ومكان، أن يكون التعبير الأوحد لكلمة الله؟ في الوقت ذاته القرآن يشير لنفسه على أنه كلام الله، وهي الفكرة التي تساوي بين القرآن وكلمة الله. إن فكرة أن الله هو نفسه المتحدث، تثير العديد من القضايا اللاهوتية، وهي القضايا التي حلها المعتزلة بتأويل عدد من آيات النص بشكل مجازي.

لقد كان المعتزلة متأثرين بشدة بالفلسفة اليونانية والمنطق، وبالتالي طبقوا قواعد الاستنتاج المنطقي في تفسيرهم للقرآن. لم يتفق اللاهوتيون منهم على بعض النقاط، لكن جميعهم كانوا متفقين على خمسة مبادئ أساسية، "العدالة، التوحيد، صدق الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين ـ ارتكاب ذنب كبير لا يجعل منك كافرًا ـ والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر". أما خصومهم فكانوا المحافظين على التفسير الحرفي للقرآن، والتسليم بسيادة القضاء والقدر.

بعد أربع سنوات من التحليل ومقارنة خطاب المعتزلة اللاهوتي مع خطاب منتقديهم، أدركت ما يقع في قلب معركة التفسير. كيف نجد المعنى في النص تتعارض فيه (الآيات المحكمات) ـ وهي العمود الفقري للقرآن ـ مع الآيات المتشابهات؟ لا جدال داخل بناء الإسلام أن الآيات المتشابهات تُفسر في ضوء الآيات المحكمات. إذن ما هي المشكلة؟ إن الآيات التي اعتبرها المعتزلة آيات محكمات، اعتبرها معارضوهم آيات متشابهات، والعكس صحيح. تشبث كل طرف بقوة بوجهة نظره مؤمنًا بأن هذا الخلاف يضع معنى وبناء القرآن على المحك. تناولت رسالتي لدرجة الماجستير هذا الأمر، وتمت طباعتها لاحقًا ككتاب بعنوان "التيار العقلي في التفسير: دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة"[١٨].

واحد من الاستنتاجات التي توصلت إليها في دراستي، هي محاولة كل طرف أن يفرض فكره وآيديولوجيته الخاصة على معنى النص، بمعنى، أن كل طرف حاول أن يجعل القرآن متفقًا مع معتقداته، وتعجبت كيف يمكن لمعنى النص أن يؤول بهذه السهولة.

حين بدأت القراءة عن الهرمنيوطيقا (مبادئ وأدوات تفسير النص) في الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٧٨ ـ ١٩٨٠) كنت بالفعل على معرفة بمنهج التحليل النقدي للنص في محاولة لفهم الغرض منه. في أثناء التجوال

---

[١٨] نصر أبو زيد، الاتجاه العقلي في التفسير: دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة، المركز الثقافي العربي ١٩٨٢، بيروت.

مكتبات الولايات المتحدة للبحث عن كتب عن فلسفة التأويل وتاريخها، وجدت اللفظ العربي "تأويل" كمقابل قريب للمصطلح الإنجليزي. حين عدت لمصر من الولايات المتحدة الأمريكية كتبت عن التأويل بالعربية، واعتقد أنني كنت أول باحث في هذا الشأن.

كانت أطروحتي الأساسية المتناولة للنص القرآني تقول إنه حتى يصبح الفكر الإسلامي ملائمًا للعصر، لا بد أن يتم الأخذ في الاعتبار جانبه البشري. إن تحري مكانة القرآن في التاريخ لا يعني أن أصوله بشرية، فأنا أؤمن بأن القرآن نص آلهي أوحي به من الله للنبي محمد من خلال جبريل. هذا الوحي تشكّل عن طريق لغة، وهي العربية، بجذورها الموجودة في السياق التاريخي.

لقد خاطب القرآن العرب في القرن السابع، آخذاً في الاعتبار الحقيقة الاجتماعية لهؤلاء القاطنين بشبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت. كيف يمكن لهم أن يفهموا هذا الوحي؟ لم نكن لنستوعب كلمة الله ما لم تتجسد لنا في صورة لغة بشرية.

تقول الآية القرآنية: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (سورة إبراهيم، الآية ٤)، كيف نفترض إذن أن القرآن هو حصرياً وحرفيًا كلمة الله؟ كلمة الله في الكون التي تتعدى أي معرفة بشرية، لكن على الجانب الآخر يمكننا تطبيق مبادئ التأويل لأي نص أوجد في مكان وزمان معين. تاريخيًا، أصر معظم المسلمين على أن القرآن المكتوب باللغة العربية هو كلمة الله الحصرية، وهو ما ينفي وجود أي نص آخر يعبر عن كلمة الله في أي لغة

أخرى. أعتقد أن أحد أسباب الركود الذي نواجهه حالياً في الفكر الإسلامي هو الإصرار الزائد على الجانب المقدس للقرآن على حساب صفاته البشرية.

أرى أن أبحاثي العلمية هي استمرار لمدرسة الفكر العقلاني التي بدأها المعتزلة، وطورها الفلاسفة المسلمون من أمثال الكندي، الفارابي، ابن سينا وابن رشد، كما تعكس أيضا جذور الإسلام التقليدي لدي. حين بدأت دراسة القرآن كما تم تأويله صوفيًا، وجدت نفسي مشدوداً لخطاب ابن عربي الصوفي الأندلسي المولود بإسبانيا، المعروف بكتابه "الفتوحات المكية"[19] (توفي في سوريا عام ١٢٧٩) وقررت التركيز عليه في بحث الدكتوراه، واستطعت تقديم دراسة تأويل النص القرآني من منظور صوفي.

في حين رجعت محاولة المعتزلة لتطبيق تفسيرهم على القرآن لأسباب سياسية واجتماعية (مماثلين لما يطلق عليهم الآن النشطاء السياسيين)، كنت مقتنعًا أن ابن عربي قدم تفسيره للقرآن دون التأثر بأي آيديولوجية. في هذا الوقت كنت متصوراً أن الصوفيين لا يشغلون أنفسهم بالعالم الخارجي، مهتمين فقط بالتركيز على تجربتهم الصوفية، إلا أنني بمرور الوقت تغيرت رؤيتي. فكما حدث مع دراستي للمعتزلة، بدأت ألحظ من جديد من خلال دراستي للصوفية كيف أن تفسير النص دومًا يتأثر بالعوامل الاجتماعية، السياسية والثقافية، وهو ما ينطبق على النص القرآني أيضًا.

---

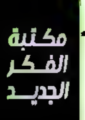
[19] ابن عربي، الفتوحات المكية، مطبعة بولاق ١٨٥٨، القاهرة.

أراد ابن عربي أن يضفي على تفسيره للقرآن جانبًا حداثيًا. لقد آمن بأن الفكر الإسلامي يجب أن يكون مرنًا بما يكفي ليحتوي مجتمعه تحت مظلة الإسلام. "دين الحب" كان وصف ابن عربي لرؤيته اليوتوبية في أشعاره. حاول أن يجمع مختلف عناصر الفكر من المسيحية، اليهودية، الإسلام وكل الديانات الأخرى في مجتمعه ليدمجها في نظام إسلامي موحد. لقد ثبتت صعوبة تطبيق مشروع ابن عربي، ففي محاولته لخلق هذا المجتمع اليوتوبي، لم يتصدَ للمشكلات الاجتماعية بشكل واقعي، حتى في أثناء تطويره لفكره كانت التوترات تتنامى في المجتمع، ولم تكن لتختفي من خلال تطبيق مبادئه.

تعلمت الكثير عن الصوفية من أحد أصدقاء أبي ـ حسن سمك ـ ممن كانوا يرتادون دكاننا الصغير في القرية لتبادل الحديث، متنقلاً بين الموضوعات المختلفة، من النميمة المحلية للوضع السياسي، كان يكتب الشعر. نمت صداقتنا بعد أن تقدم بيّ العمر وأصبحت أستاذاً بجامعة القاهرة. كان يمر لزيارتي إن كان موجوداً بالقاهرة، وحين عدت لقريتي كان له حضور روحي طاغٍ في أرجاء المكان. كان رجلاً صوفيًا، تعلمت منه الكثير قبل أن أشرع بدراستي الأكاديمية عن ابن عربي.

يومًا ما جاء لزيارتي في أثناء وجودي بقحافة في زيارة قصيرة، وكنت سعيداً لاستقباله بمنزلي. لاحظت للتو أنه كان يرتعش من قمة رأسه لأخمص قدميه، وبصعوبة أخبرني "لا بد أن أتحدث إليك". تصورت أن كارثة ما أحلت به.

فور إغلاقه الباب بدأ يبكي. سألته: "ما بك؟ ماذا حدث؟".



أجابني في رثاء: "لقد رأيته، لقد رأيته، لقد رأيته، لا أستطيع الاحتفاظ بالسر أكثر من هذا".

تساءلت: "أي سر؟ و من رأيت؟".

بدأت الدموع تنهمر على وجنتيه.. "لقد رأيت النبي، تحدثت إليه وقلت: أنا أحبك سيدنا محمد، وهو قال: أنا أحبك يا حسن".

سألته بصوت عالٍ: وما الخطأ في ذلك؟

أجاب: "ألا ترى؟ أنا الآن أفشي السر، سر رؤية النبي محمد في المنام".

لم يكن مني سوى أن أنظر له بوجه خالٍ من التعبير: ثم؟

أصر قائلاً: "سوف أعاقب.. لن يظهِر لي نفسه مرة أخرى، لكنني لم أستطع كتمان السر، كان لا بد أن أتحدث لشخص ما".

في هذا الوقت لم أكن على وعي كامل بالاضطراب العظيم الذي يمر به حسن. كل ما استطعت فعله هو التساؤل حول طبيعة العبء الذي يحمله. لو أنه مقتنع بالنتائج العكسية التي قد تجر عليه بسبب اعترافه، فما الذي دفعه لذلك؟ لكن حين قرأت عن صوفية ابن عربي، الرؤية، السر. الحفاظ على السر وعقاب إفشائه لآخرين ليسوا على استعداد لذلك، بدت تجربة حسن منطقية.

كنت في الولايات المتحدة الأمريكية حين بدأت بحثي عن ابن عربي، وكانت تجربة حسن أمامي تشق طريقها بين كلمات النص، أعتقد أن هذا ما

يضفي على أبحاثي طابعها الإنساني الصادق. حين أكتب عن شيء ما، لا يكون تمرينًا ذهنيًا فقط، لكن قراءاتي وأبحاثي وتجاربي تتعانق جميعها، هذا الانصهار أراه ضروريًا من أجل عملية خلق المعرفة، وهو ما ينقص العديد من الأبحاث الأكاديمية اليوم.

أنهيت رسالة الدكتوراه في عام ١٩٨٠، العام الذي عدت فيه إلى مصر من الولايات المتحدة الأمريكية. بعد عدة أشهر نلت درجة الدكتوراه عن رسالتي عن ابن عربي بعنوان "فلسفة التأويل"[٢٠].. وكان هذا كتابي الثاني.

ظلت بعض النقاط تلح عليّ نتيجة لدراساتي لدرجتي الماجستير والدكتوراه، ولتجاربي الحياتية، ما هو الإسلام؟ هل هو دين العدالة الاجتماعية؟ هل يدعم الإسلام الرأسمالية؟ هل يحمي الإسلام الملكية الخاصة؟ هل الإسلام دين الجهاد ضد العدو؟ أم دين السلام؟ هل القرآن يدعم تفسير المعتزلة أم معارضيهم؟ هل الصوفي ابن عربي كان أفضل من فهم القرآن؟ وأيضًا ما هو القرآن؟ السؤال الذي يجب طرحه هو هل القرآن هو أساس الإسلام؟ هل القرآن واضح أم مبهم؟ لم أستطع أن أجد أجوبة سهلة.

كان لا بد أن أصل لاستنتاج من خلال رسالتي الماجستير والدكتوراه، وهو أن كل تفسير للقرآن لم يكن أبدًا منفصلاً عن التأثير الاجتماعي والسياسي. في قول آخر، إنه من غير الممكن التحدث عن القرآن كنص

---

[٢٠] نصر أبو زيد، فلسفة التأويل، المركز الثقافي العربي ١٩٨٣، بيروت.

مجرد يسمو فوق المكان والزمان، فالناس يفهمون النص من خلال منظور يختلف اعتماداً على التجربة الفردية والثقافية معًا.

نتيجة لمزيد من الدراسة والبحث، كان كتابي الثالث "مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن"[21]. فقبل التعامل مع هذه الأسئلة الخاصة بتأويل النص، أردت أن أدرس وأستكشف القواعد الحاكمة لدراسة النص وكيف يمكن تطبيقها على القرآن. فدون هذا التطبيق الصارم لقواعد البحث العلمي، سيصبح القرآن مثله كأي نص آخر، معرضًا لأن يخضع لأيديولوجية من يؤوله.

ماذا عن بنية القرآن الكريم؟ نحن على علم بأن محمداً استقبل الوحي على مراحل في فترة زمنية تصل لثلاثة وعشرين عامًا. محمد لم يكن يقرأ أو يكتب، لكن الكتبة دوّنوا ما تلاه عليهم، وقد تمت إعادة الترتيب الزمني لسور القرآن كما نراها اليوم. هذه العملية من ترتيب المصحف تحتاج أيضًا أن توضع في الحسبان عند تفسير القرآن. لن نفهم القرآن فعليًا إذا لم ندرس التاريخ لنعلم أكثر عن السياق "الجغرافيا، السياسة، المجتمع" الذي نزل فيه القرآن. لقد أثار الناس في مجتمعهم الخاص أسئلة عن أمور مختلفة، الخمر، القمار، الأيتام، الحيض، الطعام، الزكاة والحرب. إجابات تلك الأسئلة كانت موجودة بالقرآن، وأصبحت هي أساس الشريعة؛ النظام الفقهي الذي يبحث عن مبادئ قانونية داخل النص المقدس والحديث الشريف ليؤسس قوانين في مجتمع إسلامي معين.

---

[21] نصر أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠، القاهرة.



أعود مرة بعد مرة للبحث وراء تلك الأسئلة. ما هو القرآن؟ وماذا يعني لي، كفرد؟ وماذا يعني للأمة؟ الفلسفة الإسلامية لم تتطور كثيراً منذ القرن الثالث عشر، ظلت الأسئلة الأساسية مجمدة. إن العمل الذي أؤديه، أبحاثي النقدية، له كل الصلة بجعل الإسلام ملائماً لواقعنا المعاصر.

الفصل الخامس

هـنا أقـــف

أعتبر نفسي مصريًا، مصريًا خالصًا، ما أعنيه بهذا هو أنني أستطيع التعامل عن قرب مع كافة أنواع المصريين. أعرف كيف أمزح معهم، كيف أتواصل معهم، أيًا كانت مكانتهم الاجتماعية، أتقبلهم كما هم. ربما دفعتني وفاة والدي وأنا في الرابعة عشرة من عمري للالتحام بالعالم في سن مبكرة عن أقراني. لم تكن لي رفاهية التمتع بفترة المراهقة. كان يجب أن أتعلم كيف أحيا، عرفت الشارع وحياة الفقراء والمهمشين من المجتمع المصري. أعتقد أن تجاربي اليومية التي عاصرتها في قريتي قحافة هي ما طورَّت شغفي تجاه تحقيق مبدأ العدالة.

تلقيت معظم تعليمي الديني المبكر في كتّاب القرية، تعليمًا يعتمد على التلقين، وعلى قائمة الأولويات حفظ القرآن وتلاوته، وكانت أهدافنا النطق الصحيح والواضح للكلمات العربية، وهو موضع تقدير الأساتذة. حفظت القرآن كاملاً ببلوغي الثامنة من عمري، إلا أنني لم أفهم الكثير مما يقوله النص. شرح لي والدي ووالدتي وإمام المسجد وآخرون من أبناء

القرية معنى النص. حافظت على أداء الصلاة خمس مرات يوميًا، وصيام رمضان. كان هناك أناس في قريتي لا يداومون على تلك الطقوس، وهي طقوس تعد مركزية بالنسبة للإسلام. كان هذا مقبولاً، فلم يكن هؤلاء منبوذين من المجتمع، وأنا لم أعتبر يومًا هذه الطقوس الجزء الرئيسي المكوّن للإسلام. حتى في طفولتي أدركت أن الإسلام يدور حول النمط العام الذي تسير به حياتك، حيث الأولوية للسلوك المستقيم وليس اتباع العقيدة الحرفي. تعلمت في مجتمعي الصغير أن الدين الإسلامي هو دين مساعدة الفقير والضعيف، الوقوف مع المظلوم أينما كان وفي أي وقت.

بين عامي ١٩٩٢ و١٩٩٥ السنوات التي اتهمت فيها نهائيًا بالردة، ظهرت صورتي باستمرار في الجرائد والمجلات المصرية. يومًا ما بينما كنت أقرأ الجريدة فوجئت بكاريكاتير يصورني على هيئة شيطان. ظل الرسم يحدق بي، شيطان يطعن القرآن والدماء تندفع من النص المقدس. هكذا أصبح الشعب المصري على معرفة جيدة بوضعي.

في مساء أحد الأيام، توقفت في طريقي أنا وابتهال للمنزل، عائدين من الجامعة، عند سوبر ماركت لشراء بعض المستلزمات لإجازتنا الطويلة. دخلنا السوبر ماركت، جمعنا الأغراض التي نريدها في عربة التسوق، تحركنا للرحيل قبل أن يقف أمامي رجل كبير في السن أخذ يحملق بي، هيئته ذكرتني بوالدي وجدي، بل وكل الآباء في مصر. أدركت أنه تعرف عليّ، بدأ يدور حولي، يتفرسني وينظر لي من أعلى وأسفل، ثم سألني "هل أنت..؟".

كنت على دراية بما يريد قوله، ففي ذلك الوقت أينما ذهبت كانوا الناس يسألونني أن كنت الرجل المتهم بالهرطقة، وكنت أجاوبهم: "نعم نعم، أنا هو"، بنبرة صبر مستهزئ يشعر بالملل. أما هذا الرجل المسن ففقد أعصابه وبدأ يصرخ في وجهي، فتجمع الناس حولنا "ألا تشعر بالخجل من نفسك؟ يجب أن تفعل. أنا أعرف أن والدك رجل مسلم، أليس كذلك؟.. نعم بالفعل، واسمه حامد"، وهو اسم في العالم العربي لا يخفي انتماء صاحبه الديني.

استمر الرجل موجهًا حديثه إليّ: "كيف تعتبر نفسك مسلمًا؟ كيف وأنت من أبوين مسلمين تهين القرآن الكريم، النبي محمد والإسلام، ألا تشعر بالخجل من نفسك؟ لا بد أنك مجنون". ثم استمر الرجل يردد هذه الأسئلة مرة بعد مرة، فقط مع ترتيب مختلف للأسئلة والاتهامات.

سألته في النهاية: "من فضلك، هل انتهيت؟"، أجاب: "نعم، انتهيت".

"حسنًا، من فضلك استمع لي، لقد شاهدتني لمدة عشر دقائق في هذا السوبر ماركت، شاهدت كل إنش من جسدي ووجهي، هل هذا صحيح؟".

وافقني الرأي: "نعم، هذا صحيح".

"إذن أخبرني، إذا لم تكن على دراية بسمعتي، ما هو الانطباع الذي كنت ستأخذه عني؟ هل أبدو لك في حاجة لعلاج نفسي؟ أم أبدو طبيعيًا؟ أنت بالفعل لا تعرفني بشكل شخصي، ما هو حكمك؟".

الكثيرين وحكم على آخرين بقضاء عقوبات طويلة في السجن، وبدا أن جماعة الإخوان المسلمين تحطمت، لكن ما ظهر كهزيمة كان مجرد وهم.

خلال هذا الاضطراب كنت مقتنعًا بأن مصر في حاجة لتغيير سياسي حقيقي، وهو ما لن يتحقق بالقوة والإجبار، هذه ليست طرقًا سلمية يمكنها أن تجلب إصلاحًا دائمًا. إن المجتمع في حاجة أن يكون مجالاً مفتوحًا بشكل كاف للناس ليشعروا بالحرية في المناقشة وتبادل الأفكار، فالنقاش وحده هو القادر على جلب الحلول. في بعض الأحيان يأخذ ذلك وقتًا، لكن دون حرية النقاش والجدال ـ حين يشعر الناس بأنهم دون صوت ـ يتحول المجتمع بسهولة للعنف. هذا لم يحدث، فقد قضى نظام ناصر على حرية التعبير.

٤ـ هذه الخطوات من شأنها أن تؤدي في النهاية لاستعادة نظام الخلافة (النظام السياسي الذي طبقه المسلمون تاريخيًا وتم إلغاؤه عام ١٩٢٤) عن طريق لم شمل المسلمين في دولة واحدة.

بدأ حسن البنا (١٩٠٦ ـ ١٩٤٩) حياته كمدرس، أنشأ جماعة الاخوان المسلمين عام ١٩٢٨. تأثرت أفكاره بالصحفي رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) وهو رجل وسطي آمن بأن مصر يمكن أن تكون دولة عصرية وإسلامية في آن واحد. كما تأثرت الجماعة بالصحفي الهندي والسياسي ومؤسس الجماعة الإسلامية بباكستان أبي الأعلى المودودي (١٩٠٣ ـ ١٩٧٩). كان المودودي على قناعة بأن التدخل الغربي سيؤدي لهدم الإسلام، وأن المسلمين في حاجة للتلاحم من أجل محاربة هذا التدخل. مهدت آيديولوجية المودودي الطريق لتأثير سيد قطب (١٩٠٦ ـ ١٩٥٠)،

الناشط الإصلاحي بجماعة الإخوان المسلمين منذ عام ١٩٥٣. قضى سيد قطب عامين (١٩٤٨ ـ ١٩٥٠) في كلية التعليم بجامعة ولاية كولورادو في جريلي. كان قطب ناقدًا أدبيًا في القاهرة، وواحدًا من الأوائل الذين تنبهوا لنجيب محفوظ، مع أوائل الخمسينات استولت القومية العربية على مخيلته، وفي أثناء دراسته بالولايات المتحدة الأمريكية أصابته خيبة الأمل في الغرب، الذي كما رآه يفتقد للقيم الروحية في نمط حياته المنحل.

كان سيد قطب ممن قضوا سنوات بالسجن لعضويته ونشاطه بجماعة الإخوان المسلمين. بعد أن شهد قطب تعذيب أعضاء جماعة الإخوان المسلمين وقتل بعضهم في السجون، أخذ تفكيره منحى أكثر أصولية في تفسيره للإسلام، أكثر من المودودي نفسه. قال قطب إن عبد الناصر على الرغم من ادعائه للإسلام فسلوكه يثبت أنه ليس كذلك، فإن حكومته تُحيّد الإسلام، وبالتالي فهي مهمة كل مسلم بذل كل ما يمكن من أجل تنحيته عن السلطة. لقد كانت تلك أوقاتًا صعبة بشكل استثنائي احتاجت لرد فعل درامي.

كتب قطب: "ووجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة، لقد واراها ركام الأوضاع والأنظمة التي لا صلة لها بالإسلام ولا بالمنهج الإسلامي.. لا بد أن تحيي حركة البعث الإسلامي بأمة تكون مثالاً لكي يؤدي الإسلام دوره المرتقب في قيادة البشرية مرة أخرى.. لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة وتمضي في الطريق[22]". في عام ١٩٦١ تم الكشف عن حركة سرية لجماعة الإخوان المسلمين المنحلة وغير الشرعية، وكان قطب

---

[22] Lawrence Wright, "The Man behind Bin Laden," *The New Yorker* (September 6, 2002): 62

اعترف قائلا: "أنت تبدو مثل الجميع".

سألته: "إذن، أنا لست مختلاً عقليًا، لست مجنونًا؟".

"لا، لا تبدو مجنونًا".

أكملت المحادثة قائلاً: "أخبرني إذن، لو أن شخصًا لا يبدو مجنونًا، بل طبيعيًا، مثل ابنك ربما، يعمل في جامعة القاهرة في مجتمع مسلم مثل مصر، وأراد الحصول على ترقية ترفع من راتبه ليوافق الزيادة في أسعار المعيشة، هل تعتقد أن هذا الشخص الطبيعي لو تقدم لنيل ترقية سيعلن إلحاده أمام لجنة الممتحنين؟".

بدا العجوز منصتًا، فتابعت: "أنا لا أتحدث عن إذا كان ملحدًا أم لا، لدينا بالفعل ملحدون في مجتمعنا ويظهرون أنفسهم كمؤمنين، لكن لو لم تكن صائمًا في رمضان، هل ستذهب لتأكل أمام الجميع؟ بالطبع لا، ستذهب لتأكل خلف باب مغلق. إذن حتى لو كنت ملحدًا، هل كنت سأعلن هذا أمام الجامعة وأطلب منها ترقيتي؟ كيف كنت سترى شخصًا يفعل ذلك؟".

أجاب: "سيكون مجنونًا بالطبع".

"لكنك قلت لتوك إنني لست مجنونًا، هل تعتقد أنني مجنون؟".

قال: "لا".

"هذا صحيح، رجل عاقل مثلي كان سيقدم شيئًا لائقًا للجامعة، شيئًا مخلصًا للإسلام، ثم بعد أن أنال الترقية ربما سأظهر إلحادي، لأنني

مثلك تماماً، الحياة صعبة، أحتاج لراتبي، وهذه هي زوجتي ـ قدمت ابتهال له ـ وأنت تعلم الأسعار هنا" .

تحول الرجل الذي كان يهاجمني منذ عدة دقائق لرجل هادئ، ثم سألني: "إذن، لماذا هؤلاء الناس يتهمونك بذلك؟ هم ليسوا أغبياء، إنهم رجال دين طيبون؟" .

اتفقت معه: "نعم، هم رجال دين طيبون، هل تريد أن تعرف ما هي المشكلة؟" .

أجاب في إصرار: "نعم، أخبرني" .

.. "لقد انتقدت هؤلاء الرجال الطيبين، لأنهم يدعمون شركات توظيف الأموال الإسلامية، ولأنهم نفس الرجال الذين سرقوا الشعب المصري" .

صرخ الرجل: "لعنهم الله جميعًا" .

لقد كان كل مصري على دراية بالفضيحة التي تحيط بشركات توظيف الأموال الإسلامية، وحين أخبرني بقصته، عرفت أن هذا الرجل عمل في الكويت لمدة عشر سنوات، ثم أودع كل أمواله التي اكتسبها من هناك في إحدى تلك الشركات وخسرها جميعها.

سألني: "إذن، هذا هو سبب كل هذا اللغط حولك؟" .

أجبت: "نعم هذا هو السبب تحديداً. هل تعرف اسم الرجل الذي اتهمني بالردة ـ لقد كان مستشاراً شرعيًا لإحدى تلك الشركات ـ لهذا

السبب انتقدته. أنا مجرد مصري مثلك، ولأنه لم يكن لدى أي أموال لأستثمرها، لم أخسر شيئًا مثلك، لكنني كنت أدافع عنك، عن ابنك وحفيدك، هؤلاء الناس استطاعوا أن يسرقوا الآخرين باسم الدين". انهار الرجل: "يا بني، لم أكن أعرف، أنا آسف، لم أكن أعرف"، ثم تقدم ناحيتي وقبَّلني واحتضنني وسط السوبر ماركت المزدحم.

أحسست بالراحة والرضا وأنا في طريقي للمنزل، أقطع مسافة أربعين كيلومترًا، أخبرت ابتهال: "ما أحتاج إليه هو أن أقابل كل مواطن مصري وأشرح له قصتي، كيف أفعل هذا؟". عن طريق التليفزيون بالطبع، أستطيع أن أتواصل جيداً مع الناس، لكن لا بد أن يكون لي بث مباشر فتجميع قطع من الحديث سويًا لن يجدي. هذا ما أعنيه حين أقول إنني أعتبر نفسي مصريًا خالصًا قادراً على التواصل مع الناس من مختلف الخلفيات التعليمية، كما مع غير المتعلمين. لطالما عبّر المصريون عن أنفسهم بعدة طرق، تاريخنا الحديث خاصة يبرهن هذا.

كنت ما زلت صغيراً حين عرفت مصر الضباط الأحرار في ١٩٥٢، عدد من ضباط الجيش ثاروا على النظام الملكي، ليتزعوا منه السلطة. كانت تلك نقطة تحول فارقة في تاريخ مصر، أُنهك الناس من الفساد الذي استشرى في كل جزء من المجتمع، فساد تسببت في معظمه العائلة المالكة، والاحتلال البريطاني منذ عام ١٨٨٢، مع بعض الأحزاب الصغيرة المتصارعة على السلطة. عاش المصريون في معاناة، لذا تجمع الضباط الأحرار سويًا، تخلصوا من الملك وأعلنوا جمهورية مصر العربية وبدأوا في إجراء بعض الإصلاحات. رحب الناس بهذا التغير في مسار الأحداث،

مصر يحكمها المصريون أخيراً. خلال هذا التحول اختلفت آراء الناس حول الاتجاه الذي يجب أن يأخذه البلد، تطورت آيديولوجيات وطرق تفكير مختلفة، وحاول جميعهم تضمين الإسلام في رؤاهم الخاصة. بتعبير آخر، وقتها إن أردت أن تحظى بالاستماع لآرائك، كان لا بد أن توازن وجهة نظرك مع الفكر الإسلامي.

استولت القومية العربية منذ منتصف الخمسينات وحتى الستينات على مخيلة البلاد، ونُشر عدد كبير من الكتب عن الإسلام والقومية العربية. فسر هؤلاء الكتّاب الإسلام بما يخدم أفكارهم عن الاتجاه والشكل الذي يجب أن تكون عليه دولة مسلمة، وهو الإخلاص والتفاني لمصر. في ذلك الوقت انتهجت الدولة سياسة الاشتراكية، وإنه لمن السهل أن تدعي أن الإسلام يعلم الاشتراكية أيضاً.

في ذلك الوقت كنت في أواخر فترة المراهقة وبداية العقد الثاني من عمري، اتفقت مع هذا التفسير الاشتراكي للإسلام، وجدته منطقياً. إن الإسلام الذي تعلمته وأنا أكبر في قحافة مارس العدالة الاجتماعية، وكان يؤمن بالمساواة بين الناس وحتى بين الرجال والنساء. في الستينات اكتسبت النساء أرضية معقولة مع تسرب الاشتراكية لوعي المصريين، كان ملاحظاً بشدة التوسع في تعليمهن، وقد أحببت هذا التفسير للدين.

وخلال الخمسينات والستينات، كان يتم القضاء بسرعة على أي معارضة للنظام، من الشيوعيين كانت أو الإسلاميين. أصبح جمال عبد الناصر (١٩١٨ ـ ١٩٧٠) رئيس مصر الجديد في عام ١٩٥٤، كان عضواً في تنظيم الضباط الأحرار الذي أطاح بالنظام الملكي (كما كان كذلك خليفته

أنور السادات). دشّن ناصر نظامًا اجتماعيًا جديدًا في البلاد، نظامًا أتاح التعليم للجميع. طه حسين كان يحمل نفس الفكر في بداية القرن، لقد آمن بأن التعليم لا بد أن يتاح للجميع كالماء والهواء. لم أكن لأجرؤ على الحلم بالالتحاق بالجامعة، دون هذا التحول الاجتماعي، فمصاريفها كانت مرتفعة، وعلى الرغم من هذا أصبحت في النهاية منتقدًا لنظام ناصر. لقد كان هناك صوت سياسي وحيد، وهو صوت الدولة تحت الحكم العسكري، حكم لا يتقبل النقد. روعت كمواطن مصري كيف كان النظام يحكم على منتقديه بالإعدام. في ذلك الوقت كان لي أصدقاء من الشيوعيين والاشتراكيين وبعض ممن انتموا للتيار الإسلامي ممثلاً في جماعة الإخوان المسلمين.

أتذكر خلال فترة الخمسينات أن قريتي الأم قحافة استضافت فرعًا من جماعة الإخوان المسلمين. بذلوا حينها مجهودًا لتعريف الناس بفلسفتهم وأنشطتهم، لكن فوق كل شيء، أرادوا مصر إسلامية، تحكمها مبادئ إسلامية فقط. على الرغم من صغر سني في ذلك الوقت، استمعت لما قاله الإخوان المسلمون، وكباقي المصلحين في ذلك الوقت حملوا رؤيتهم للإسلام حسب آيديولوجيتهم واستندوا للنقاط التالية:

١- بما أن الله قد أعلن عن نفسه في القرآن والسنة، وجب على كل مناحي الحياة أن تسير وفقًا لمبادئ القرآن والسنة النبوية. وينظر للقرآن والسنة أنهما صالحان لكل مكان وزمان (القرآن دستورنا والرسول قدوتنا، أصبح الشعار الخاص بهم).

١ يجب أن يعود المسلمون إلى الإسلام الأول في صورته النقية قبل أن يتأثر بالفلسفة اليونانية، والقرآن الكريم والسنة المطهرة فقط هما مرجع كل مسلم في التعرف على أحكام الإسلام.

٢ القضاء على الروح الأجنبية في المجتمع المصري - طريقة إلقاء التحية، استخدام اللغات الأجنبية، ساعات العمل، التقويم، وسائل الترفيه، من خلال إرساء نظام جديد قائم بالكامل على الشريعة الإسلامية.

بعد فترة وجيزة من استيلاء الضباط الأحرار على الحكم، ألغوا وجود جميع الأحزاب السياسية عام ١٩٥٣. تم الإعفاء عن الإخوان المسلمين باعتبارهم جماعة دينية وليس حزبًا سياسيًا، وكان هناك أسباب خلف هذا الإعفاء. بعض أعضاء الضباط الأحرار كانوا ينتمون للإخوان المسلمين قبل الثورة، وقد راقوا للمصريين من معظم الطبقات باختلاف توجهاتهم. طلب الإخوان المسلمون من حكومة ناصر أن تعين خمسة رجال من بينهم بوظائف رسمية، لقد أرادوا قدراً كافياً من السلطة والنفوذ ليخططوا لمستقبل مصر، أرادوا أن يتخلصوا من الملكية بكل عوائقها للأبد. قبلت الحكومة الجديدة وزيراً واحداً فقط من الإخوان المسلمين. استمر صراع القوى مع استمرار حكم ناصر بينه وبين الإخوان المسلمين، حتى شعر ناصر بأنه بات مهدداً من ناحية محاولتهم لإقامة دولة إسلامية، ورد على ذلك بحل الجماعة عام ١٩٥٤.

في ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤، أطلق محمد عبد اللطيف، أحد أعضاء جماعة الإخوان المسلمين النار على جمال عبد الناصر في حادث المنشية. نجا ناصر من محاولة الاغتيال، وبدأ في الانتقام من الإخوان المسلمين، تم القبض على

من ضمن من قبض عليهم، وبعد خمس سنوات حكم عليه بالإعدام في ٢٩ أغسطس ١٩٦٦، وقبل تنفيذ الحكم قال: "الحمد لله، لقد عملت خمس عشرة عاماً بالجهاد لنيل الشهادة"[٢٣].

من تبقى من الإخوان المسلمين ـ بعد حركة التطهير ـ استكملوا أعمالهم في السر، وهو الوضع الذي دفعهم له من جديد عبد الناصر. كان نظام ناصر على علم بأنشطة الإخوان واجتماعاتهم السرية، استمر في مطاردتهم واعتقالهم، لكن ما لم تستطع الحكومة فعله هو القضاء على تلك الأفكار. تعاطفت مع جماعة الإخوان المسلمين، قبل مجيء الستينات، أعجبني تفسيرهم للإسلام، لقد كانت العدالة الاجتماعية في قلب رسالتهم، وقد احتفيت بهذه الرسالة.

حاول الإخوان المسلمون إقامة مجتمع أكثر عدلاً عن طريق اختراق المؤسسات الاجتماعية مثل المستشفيات والمدارس، كما تشعبوا في المؤسسات الاقتصادية. دعم العديد من المصريين رسالتهم، لأن وجودهم سد بعضاً من احتياجاتهم. حتى الجماعات الإسلامية الأصولية التي نشأت في الثمانينات والتسعينات استمرت في تقديم خدمات الرعاية الصحية والتعليم لمن حرموا منها. إلا أن فترة الستينات شهدت انحرافاً في رؤية الإخوان المسلمين نحو اتجاهها أكثر أصولية. لم يخش الإخوان المسلمون شيئاً أكثر من تحديث ـ تغريب ـ مصر، ورأوا فيه قضاء على الدين في المجتمع المصري. شعرت الجماعة بالعزلة وعدم القدرة على المشاركة في تطور مصر، وشعر أعضاؤها بأن هويتهم كمسلمين مصريين كانت على المحك. وخلال تلك الفترة،

---

[23] نفس المرجع السابق.

ظللت مقتنعًا بأن الفهم الصحيح للإسلام هو الطريق لتحقيق العدالة الاجتماعية، المساواة والتسامح. كنت مكروبًا من الطريقة التي كانت تقضي بها السياسة المصرية على أي نوع من المعارضة مثل الإخوان المسلمين، هؤلاء من تقلدوا السلطة كانوا يعتقلون الناس دون سبب، فقط يلقون بالقبض عليهم ويلقون بهم في غياهب السجون، ولم يكن لديهم الحق في الاستئناف القضائي، لقد كانت ممارسات غير إنسانية ظالمة.

على الرغم من أن العديد من الدول رأت في فكر ناصر فكرًا علمانيًا، فإن المصريين رأوه بشكل مختلف، يتضح هذا في محادثة أجريتها مع طبيب بدرس بالولايات المتحدة الأمريكية (١٩٧٨ ـ ١٩٨٠) لها دلالتها الواضحة. في البداية لم يكن الطبيب على علم بأنني مصري، لكن مع معرفته بهذا، بدأ في التحدث عن السادات بوصفه بطلاً قوميًا ورجل دولة عظيم. لم أتفق معه، وبدا من سلوكي اختلافي معه فسألني: "ها. . أنت ناصري إذن؟"، حين أجبت بالإيجاب، استنتج فورًا: "إذن أنت شيوعي"، فرددت فوراً "لا، على الإطلاق"، "لم يكن ناصر شيوعيًا". هذه المناقشة القصيرة أوضحت لي أنه أحيانًا تختلف صورة القائد في بلده كليًا عن صورته خارجه. حتى يومنا هذا أشعر بأنه دون الإصلاحات الاجتماعية التي جاء بها نظام ناصر ـ حتى في غياب الحرية السياسية ـ لم نكن لنشهد كل تلك التغيرات الإيجابية التي حدثت بمصر، لقد احتفظت باحترامي لناصر حتى مع انتقادي له.

تخرجت في المدرسة الفنية عام ١٩٦٠، وبدأت بالعمل في المحلة الكبرى في قسم البوليس متخصصًا في صيانة أجهزة الاتصالات، مارست

هذا العمل لمدة ١٢ عاما. في عام ١٩٦١ التحقت بناد أدبي صغير يضم عدداً من الشعراء وكتاب القصص القصيرة من المنطقة. هؤلاء المشاركون تم إقصاؤهم من التجمع الشبابي المحلي لأنهم يفكرون بشكل نقدي، أكثر مما ينبغي. المثير للتأمل كيف أصبح هؤلاء المنبوذون لاحقًا من أهم الكتاب المصريين. في ذلك الوقت أتذكر أنني أصبحت منتقداً قويًا لمصر من منظور إسلامي. صار البوليس السري متشككًا من مجموعتنا، وبدأ في تتبع عدد منا، وقبض على واحد من الأعضاء، وقضى ١٥ عامًا في السجن. ذهبت لمركز البوليس في غير مواعيد عملي بعد هذا التعرض وإلقاء القبض على زملائي، لم يكن فعلاً حكيمًا، لكنني بادرت الضابط بالسؤال: "لماذا تتبعني؟". أجابني بأن هذه هي وظيفته، أن يتحقق، شعرت حينها بالاستياء الشديد من هذه العسكرة للمجتمع. خلال ذلك الوقت بدأ المفكرون في إصدار روايات وقصائد تنتقد النظام السياسي المصري، ليس بوضوح بالطبع، لكن باستعارات رمزية. في مجتمع لم تكن حرية التعبير به مكفولة، كان على المفكرين أن يتوخوا الحذر، بمعارضتهم للنظام السياسي في السلطة.

أتاح لي العمل في قسم البوليس التأمل، بل وفي بعض الأحيان الانخراط في عدد من المشاكل الاجتماعية، خاصة المشاكل التي يعاني منها الفقراء والمحرومون والمهمشون. أذكر في هذا السياق حادثة بعينها، جاءت سيدة لقسم البوليس تشتكي أن زوجها اعتدى عليها بالضرب. كانت تنزف، ولم يكن من السهل أن ترى مصدر النزيف، تم تجاهلها وظلت هي تنتظر وتنتظر، ماذا كان بمقدورها أن تفعل غير ذلك؟ مهمة البوليس بالطبع

في حالة تعرض شخص ما لنزيف أن يتم اصطحابه للمستشفى، لكن لسبب ما تجاهل الضابط هذه السيدة. في مصر لا نعتبر الشرطة هيئة تقدم خدمات عامة للمواطنين، وفي مجتمع سلطوي، حيث يستحوذ ضباط البوليس على السلطة فقط لأنهم يحتلون هذا المنصب، فهم عادة ما يسيئون استخدام تلك السلطة. النظام السلطوي يعتبر أن من بالسلطة "يعرفون" ولأنهم "يعرفون" فأنت المواطن الذي لا يمتلك سلطة لا يحق لك مساءلتهم من الأساس، ناهيك عن طلب شيء ما. نحن المصريين بشكل عام لدينا تجارب غير سارة مع جهاز الشرطة. تدخلت بالأمر، سآني تراخي القسم. سألت في ضيق الضابط المسئول، أجابني: "لماذا أنت غاضب؟، هل تعرف هذه المرأة؟"، رددت عليه سؤاله: "لا، هل كان هذا ليحدث فرقًا؟ لا بد أن نؤخذ للمستشفى، ونأمر بإحضار زوجها لاستجوابه، أليس هذا المتبع؟".

كنت أعلم أن الوضع لو تطور مع الضابط، فسوف أضع نفسي تحت رحمة معاملتهم السيئة، بل ولن أحقق ما تدخلت من أجله بالأساس، وهو مساعدتها. انتهى الأمر بأن اصطحبت السيدة للمستشفى، ومكثت معها طوال الليل حتى عولجت وانصرفت. عدت مجددًا لقسم الشرطة، سلمتهم تقرير المستشفى وتابعت مهام عملي. بعد يومين أحضر القسم الزوج، ولم أتدخل أكثر من هذا.

لاحقًا في نفس اليوم، جاءت المرأة لمكتبي، أحضرت لي وجبة ساخنة من الأرز والدجاج. خشيت أن يتصور الضباط الموجودون أن عدم التكلف الذي تظهره نحوي يدل على أنني كنت بالفعل على معرفة بها، لكنني لم أرد ذكر ذلك حين تدخلت في قضيتها. أخبرتها: "انظري، هذا تصرف لطيف

منك، لكنني لا أستطيع قبوله. أنا في العمل ولا أستطيع أن أتكسب من وراء وظيفتي"، اقترحت: "أرجوك خذ الطعام معك المنزل، اعتبره هدية من أختك"، وهكذا فعلت، لقد كنت أعيش بمفردي في تلك الفترة. جاءت المرأة لاحقًا لتسحب شكواها ضد زوجها، وفسرت لي الأمر أنها أرادت أن تعاقبه الشرطة بشكل ما، لكن دون أن تؤذيه جسديًا، "هو بالنهاية زوجي ووالد أطفالي". سألتها: "هل تحبينه؟"، بدا أنها لم تفهم السؤال، فكررت إجابتها: "إنه والد أطفالي"، فسألتها: "هل يعتدي عليكِ زوجك بالضرب كثيرًا؟" قالت: "لا، لقد كان غاضبًا بشأن بعض الأمور". كانت القصة أن زوجها، الذي كان يعمل بائع فاكهة متجولاً، في أحد أيام الصيف الحارة بمحافظة القاهرة الخانقة فسدت منه بضاعته، فصب جام غضبه عليها.

"هل سيساعد الوضع لو قمت بزيارته؟ لقد أحضرتِ لي بعض الطعام مما يعني أنكِ دعوتني لمنزلك".

أجابت: "بالطبع، سيكون هذا رائعًا".

أضفت: "سآتي فقط بإذن زوجك، لكن إحضارك لي الطعام يدل على أننا صديقين"، لم أرد أن يشعر الرجل بالتهديد في وجودي.

قمت بزيارتهما، لديهما ثلاثة أطفال، وكانوا في غاية الفقر. الرجل كان شخصًا محترمًا، أخبرته زوجته عن تدخلي في قضيتها بقسم البوليس واصطحابي لها بالمستشفى، لم تخجل من سرد تلك التفاصيل. كما أخبرته أنه هو من كان يجب أن يصطحبها للمستشفى.

جعلتني هذه الحادثة أرى كيف أن الفقر قد يؤثر على الناس إلى حد أنه يضع حبهم واحترامهم لبعضهم البعض رهن سطوة المال، بطرق لا يمكن أن يفهمها الأغنياء. لقد شهدت الكثير من الحوادث مثل هذه الحادثة، معظمها يتفرع من بنية غير متزنة من علاقات القوى. سألني زوج المرأة: لماذا لست متزوجًا؟ لديك وظيف جيدة ومستديمة؟ أخبرته أنني أعول عائلتي، وقعت تلك الحادثة حين كنت أحيا بمفردي قبل أن تنضم لي العائلة في القاهرة من المحلة الكبرى، وقبل أن أبدأ بالتدريس بجامعة القاهرة.. "لا أستطيع أن أتحمل تكاليف الزواج". حين استقرت عائلتي بالقاهرة، نشأت صداقة جميلة بين عائلتي وعائلته.

مثلما كانت ثورة الضباط الأحرار نقطة تحول في تاريخ مصر، كذلك كانت نكسة ١٩٦٧. في الحقيقة، تأثر العالم العربي كله نتيجة للهزيمة المنكرة للجيوش العربية من قبل إسرائيل، فيما عرف بحرب الأيام الستة. لقد تصورنا كمصريين أننا أنشأنا مجتمعًا قويًا له جيش قوي، وتصورنا أنه كان يسيراً أن ندفع بإسرائيل للبحر المتوسط. في ذلك الوقت دعم العرب الجهاد ضد العدو الصهيوني الذي بدا التصرف الأمثل حينها.

لقد ارتكزت الصهيونية على مبدأ عودة الأرض الموعودة للشعب اليهودي. لقد واجه اليهود التشتت والإعدام منذ أن قضى الرومان على الثورة اليهودية بأورشليم، وهو الحدث الذي أدى لهدم معبدهم في ٧٠ بعد الميلاد. بعد ذلك بقرون عام ١٨٩٧ في بازل بسويسرا، نظم ثيودور هيرتزل أول مؤتمر صهيوني، لكن كان وعد بلفور بالاستقلال في عام ١٩١٧ هو الذي أكسب للصهيونية وجودها الفعلي. وعد بلفور أنشأ الشرعية للشعب

اليهودي أن يحصل على وطن في فلسطين، منذ ذلك الحين والمستوطنات اليهودية تستشري في فلسطين، تثبت وجودها وتستولي على الأرض الفلسطينية، تشرد العائلات وتعيث فساداً وتتسبب في مصاعب اقتصادية.

لم تكن هزيمة ٦٧ بالمفاجأة الكاملة لي، بل ولمعظم المفكرين، لكن الشعور بالهزيمة كان صادماً. لم أكن قد تزوجت في ذلك الوقت، لكن كان لدى العديد من الأصدقاء المتزوجين، واستمعت منهم للقصة تلو القصة عن عدم قدرتهم على ممارسة علاقات جنسية مع زوجاتهم، كما لو كان تم إخصاؤهم، كان المجتمع يضج بتلك الشهادة، شعر الرجال بأن رجولتهم هددت. الهزيمة فهمت أيضاً في سياق ديني، كأن الله يعاقبنا نحن المسلمين لتخلينا عن الإسلام، في مكافأة لليهود على ما يبدو، انتصرت اليهودية على العلمانية. كيف يمكن أن يأتي المسلمون بحل لهذه المهانة؟ الحل يكمن في العودة للإسلام، وإقامة دولة إسلامية قوية تنافس الدولة اليهودية.

كان أخي محمد أحد المشاركين في حرب الأيام الستة، التي اندلعت يوم الخامس من يونيو ١٩٦٧. تسلمنا خطاباً منه في الرابع من يونيو، ومع نهاية الشهر بدأ الجنود في العودة من سيناء، أرض المعركة. لم يكن هناك تنظيم، ولا قيادة، لا شيء سوى الفوضى في القطار ومحطات الأتوبيس المزدحمة بالجنود القادمين للوطن. بحثنا عن محمد، لكننا لم نجده، ألحت والدتي في عويل على ولدها المفقود: "أريد فقط أن أعرف مكان وجوده". هيأنا أنفسنا لتقبل موته، أردنا فقط العثور على جثته. لهذا السبب ذهبت للقاهرة، متنقلاً من مكتب لآخر أبحث عن أي معلومة تدلني عن مكانه. لم أجد شيئاً، ثم ذهبت إلى كل مستشفى بالقاهرة، أتفقد لوائح الموتى

والجرحى، التي كانت تجدد كل ساعة. جاء الناس من كل مكان بمصر لمستشفيات القاهرة يبحثون عن أبنائهم، إخوتهم وأولادهم. بعضهم كان لا يجيد القراءة، فظللت أقرأ لهم أسماء الموتى والجرحى من اللوائح بصوت عال. لقد كانت تجربة رهيبة وأنت تشهد أفراد العائلات لدى معرفتهم أن آباءهم، إخوتهم وأولادهم جرحوا ـ أو الأسوأ ـ ماتوا، مضى شهر كامل وأنا أبحث عن أخي.

أخيراً وجدت اسم محمد أبو زيد بأحد المستشفيات، لم أشعر بشيء حينها سوى الراحة. وفقًا للائحة كان في غيبوبة، لا يهم، ما زال حيًا. أخذت ما تبقى من أموال معي، واشتريت له بعض الفاكهة والحلوى والمكسرات. وصلت إلى سريره بما اشتريت، لكنني تعجبت أنه لم يكن أخي محمد، كان رجلاً آخر له نفس الاسم. تركت كل ما معي عنده، ودون أموال معي أجبرت أن أسير ساعة ونصف الساعة لبيت أحد أصدقائي بالصحافة، الذين انتقلوا للقاهرة، وانتظرت عشر ساعات حتى وصل صديقي من العمل، ويبدو أن ملامح وجهي كانت تشي بخطب عظيم، فسألني فور رؤيتي: "ماذا هنالك؟".

بعد أن نلت قسطًا من الطعام والراحة عدت لمنزلي. لم تسفر جهودي عن شيء. بعد شهر تسلمت خطابًا عن مكان وحدته بالجيش. اصطحبت سيد ـ زوج أختي بدرية ـ أخذنا معنا طعامًا أعدته والدتي، وهرعنا للمعسكر. الآلاف كانوا منتظرين فوق الرمال بساحة المعسكر، حتى يتم إبلاغ أبنائهم وآبائهم أنهم بالخارج. اشرأبت أعناقنا أنا وسيد باحثين عن محمد في انتظار خروجه من البوابة، في النهاية اقترب منا شاب صغير، لم

نعرفه. . "يا الهي، أهذا هو أنت، محمد؟"، وحتى يومنا هذا لم يتحدث محمد عن تجربته، وقد توقفت عن سؤاله عنها.

آنذاك بعد حزب الأيام الستة، أشيع خبر ظهور العذراء مريم فوق قبة إحدى الكنائس. اجتمع العديد من الناس حول الكنيسة آملين في رؤيتها. لقد شعر الناس في ذلك الوقت بالحاجة للدعم من أمثلة مقدسة كالسيدة العذراء، وهي الرمز المقدس لكلا المسلمين والمسيحين. في نفس الوقت بدأ الشيوخ يروون قصص زيارة النبي لهم في المنامات. . "بالطبع، لا بد أن تعاني هذه الهزيمة، لا بد أن تتعلم. لو عدت لتعاليم النبي محمد فستنهض وتنتصر على أعدائك".

في هذه الفترة كنت قد بدأت أفكر بشكل نقدي، تخرجت في المدرسة الفنية، بل وكنت أتعلم الكثير من تجاربي اليومية من وظيفتي، واستمررت في القراءة، كما هي عادتي منذ الطفولة. حين بدأت أقرأ بجدية، كان أكثر ما استهواني هو الأدب (الشعر والرواية). لقد كان الأدب نقطة الانطلاق للتعامل مع النصوص الأكاديمية. أبهرتني الفلسفة خاصة فكرة الله، واستطعت الحصول على كتب مترجمة عن الإنجليزية والفرنسية. خلال تلك الترجمات بدأت أقرأ عن الإسلام من مختلف وجهات النظر، على الرغم من أنني كنت متماشيًا مع الأيديولوجية الاشتراكية (وكانت لمصر في هذا الوقت انتماءات اشتراكية محددة) إلا أن افتقاد المجتمع للحرية أزعجني. الجيش في محاولته لخلق هذا المجتمع العادل والمتساوي الذي كان يتحدث عنه، تحكم في المواطنين بدعوى تحريرهم، لقد راعني هذا كممارسة غريبة، مثيرة للسخرية، وقطعًا ظالمة.

أنهت حرب الأيام الستة ١٩٦٧ وحرب أكتوبر ١٩٧٣ (والتي اشترك بها أخي محمد أيضًا) عصر القومية والاشتراكية في مصر. لم يعد الإسلام مفهومًا في ضوء العدالة الاجتماعية، بل في ضوء مفاهيم القوة. بدأ الناس يتحولون بالتدريج نحو فهم أصولي للإسلام، متصورين هكذا يجب أن تكون الدولة.

توفى ناصر عام ١٩٧٠ ليتقلد أنور السادات الحكم. حارب السادات بائسًا لإبقاء القومية والاشتراكية كجسر تواصل خاصة مع طلبة الجامعة، ووضع تعريفه الخاص للإسلام، تكلم عن مصر بوصفها دولة العلم والإيمان. كانت هذه أول مرة حاول أحد تغطية العديد من القواعد بهذا الشكل، مصر كدولة دين، إيمان، علم ودين، علم وإيمان. استعرض مفاهيمه بطريقة مسرحية ليقتنع الناس بأنه قلبًا وقالبًا مسلم مخلص، ارتدى كل جمعة الجلباب في طريقه للمسجد، تصطحبه كاميرات التلفزيون وهو يصلي، وتلتقط صورته لتذيعها على مصر كلها. ظهرت علامة صلاة بارزة جدًا في جبهته، لتدل على سجوده المستمر، وأصر على الظهور بالسبحة على الملأ، ثم لقب نفسه بالرئيس المؤمن، المصطلح الذي يوحي بأنه ملهم في سياق ديني، وكان هو أيضًا من بدأ بإذاعة الأذان خمس مرات يوميًا بالتلفزيون.

في عهده ارتفعت أسعار المواد الأساسية بشكل جنوني، ليشتعل العنف في إضرابات رغيف الخبز (١٩ ـ ٢٠ يناير ١٩٧٧) بعدد من المدن الكبيرة، خاصة القاهرة والإسكندرية، حتى استطاع الجيش السيطرة وفرض النزر اليسير من النظام. على صعيد آخر أفرج السادات عن أعضاء

جماعة الإخوان المسلمين المعتقلين، ولأول مرة تم الاعتراف بالجماعة ـ وإن كان بشكل غير رسمي ـ بأنها حزب سياسي، وخرجت للنور تمارس نشاطها بالجامعات.

حتى جاء نوفمبر ١٩٧٧، وقرر السادات منفرداً زيارة القدس. بدا القرار مفاجئًا، جاء دون تفكير، الرسالة التي أراد توصيلها.. "أنا قادر على الذهاب حتى للشيطان لتحقيق السلام بين إسرائيل وفلسطين". رأى الكثير من المصريين بمن فيهم أنا، كم كانت زيارته غير مناسبة، ساءنا من هذا السلوك المنفرد المتهور. كان هذا في الوقت الذي أصبح فيه السادات منخرطًا في عملية السلام مع إسرائيل في اتفاقية كامب ديفيد بالولايات المتحدة الأمريكية. تلا هذا قراره الكبير بالذهاب لكامب ديفيد دون استشارة الشعب المصري أو القادة العرب الآخرين، وهو ما تعرض على أثره لمعارضة قوية.

على الرغم من كل هذا، بدأ السادات بالسماح ببعض المعارضة، لكنه سريعًا ما ضاق صدره بها، مما حدا به لأن يصدر العديد من المراسيم القانونية في سبتمبر ١٩٨٠ والتي نتج عنها إلقاء القبض على أكثر من خمسة آلاف شخصية من مختلف التيارات السياسية، بمن فيهم الإسلاميون. تبع ذلك فصل كل أساتذة جامعة القاهرة الذين اعترضوا على سياساته، على الأقل كانوا ستة وخمسين أستاذًا، وكنت واحداً منهم، اتهمنا السادات بإثارة الفتنة الطائفية بين المسلمين والمسيحيين. في أكتوبر ١٩٨١ اغتالت منظمة الحركة الإسلامية الأصولية الجهاد السادات وكانت الصدمة.

خلال السبعينات لدى عملي كأستاذ مساعد بجامعة القاهرة، كنت أثير الموضوعات السياسية الجارية أمام الطلاب آملاً في فتح مساحة للنقاش، ربطت خطاب السادات السياسي بالخطاب الديني، موضحًا كيف يرتبط الاثنان ببعضهما البعض. على السطح كانت خطابات السادات طابعها سياسي، إلا أنه بنظرة متعمقة تجدها دينية. عن طريق استحضار خطاباته لعدد من الرموز الإسلامية، حاول السادات أن يجعل آيديولوجيات معينة (مثال تحول الاقتصاد من اقتصاد القطاع العام لسياسيات السوق الحر) مستساغة للشعب المصري.

حتى مع تدهور الأحوال المعيشية، ظل السادات يؤكد للناس أنه باتباع بعض السياسات يحمي الإسلام الممتلكات الخاصة. ذهبت كل الإصلاحات التي أتت بها ثورة الضباط الأحرار للفقراء مثل استصلاح الأراضي أدراج الرياح، وحدد قانون استصلاح الأراضي الصادر عام ١٩٥٤ مساحة ملكية الأرض لأي شخص ما لا يزيد على ١٠٠ فدان، وكانت الدولة تستولي على ما يزيد على ذلك وتوزعها على الفلاحين. لكن حكومة السادات أدارت وجهها لهذا القانون وقررت أن قانون استصلاح الأراضي هو ضد الشريعة.

حين وصل السادات للحكم، حاول أن يسترضي جماعة الإخوان المسلمين بتغيير المادة الثانية من الدستور المصري من "الشريعة أحد مصادر التشريع" لتصبح "الشريعة هي المصدر الأساسي للتشريع"، وهو ما يشكل اختلافًا كبيرًا. لذا بدأت الحكومة تأخذ الأراضي من العائلات الذين عملوا من أجلها لأكثر من خمسة وعشرين عامًا وأعادوها لملاكها الأصليين، تحت

اسم إعادة التوزيع. اعتبر قانون ضرائب المواريث أيضًا ضد الشريعة وفقًا لحكومة السادات، فلم تكن الضرائب تفرض على الورثة، وكان هذا كما رأت ضد إرادة الله، باختصار اعتبرت جميع القوانين التي أراد بها تحقيق عدالة اقتصادية ضد الشريعة. تحدث السادات أيضًا للناس بسلطة الإمام، مقتبسًا آيات طوالاً من القرآن قبل توجيه الحديث للمصريين، كان يقول: "حين وليت أمركم" ثم يستكمل قراءة خطبته المعدة سلفًا، ناصر كان يوجه حديثه للمصريين بـ"إخوتي وأخواتي" أو "سيداتي سادتي" أو أحيانًا "أعزائي المواطنين"، لقد كان في أسلوبه غطرسة لم أستثيغها يومًا.

وعلى الرغم من الطابع الديني الذي حاول إظهاره للعيان، ظلت ثروة مصر في أيدي قلة غنية، وظل المصريون فقراء. كان من الصعب التصديق بأن الرئيس الذي خلقت سياساته هذا التفاوت الاقتصادي يهتم حقًا بما اعتبره قلب الإسلام، العدالة الاجتماعية.

أنتجت مصر في السبعينات نوعًا من رجال الأعمال بدوا وكأنهم أصبحوا أثرياء من لا شيء. هؤلاء لم ينفذوا أي مشاريع منتجة في مصر أو قاموا بتوظيف آخرين، كانوا مقاولين، يصدرون المنتجات، دون الانخراط في أي نظام اقتصادي منتج. بدأت الطبقة المتوسطة في الزوال، وكأستاذ جامعي أنتمي لتلك الطبقة، وجدت أن الحياة ازدادت صعوبتها. لم أكن قادراً على دفع إيجار شقتي بالمرتب الذي كنت أحصل عليه من الجامعة، وعلى الرغم من أنني تخطيت سن الثلاثين، ظللت أعيش مع عائلتي في شقتنا الصغيرة. اتسعت الهوة بين الأغنياء والفقراء، ولم يعد الشباب يمتلكون رؤية مستقبلية لأنفسهم. أذكر أنني في تلك الفترة أصبح لي صوت

مسموع، وبدأت أتساءل: كيف لأي شخص بالعالم أن يبرر أن الإسلام يقف وراء هذا النظام السياسي الذي أنتج هذه المعاناة الاقتصادية. لقد حاول السادات مستخدمًا الرموز الدينية (التلفزيون، الصلوات المذاعة، السبحة، زبيبة الصلاة، الرئيس المؤمن) يحمّل الإسلام أغراضه الخاصة، وهو ما أثار غضبي.

كان هذا موقفي مما يحدث، بالنهاية أنا أنحدر من عائلة فقيرة، أنتمي للفقراء، أدافع عن حقوقهم. آمنت لسنوات بأن الإسلام لا يمكن أن يؤول إلا كدين يسعى لتحقيق العدالة الاجتماعية. بالطبع كان لا بد أن أطبق نفس النقد لتفكيري كما أفعل مع كل شيء. لكن كيف يمكن التلاعب بمعنى الإسلام بهذه السهولة؟ لقد استمر معنى الإسلام في التحول والتغير اعتمادًا على الأيديولوجية التي يحملها أي شخص على الدين. ما هي العلاقة بين الأيديولوجية وتفسير النص؟ لقد صار هذا هو السؤال الملح الذي ظل يطاردني. اليوم ما زلت أقف مع المضطهدين، على الرغم من اتساع رؤيتي لتشمل ـ ليس فقط الفقراء والضعفاء من المسلمين ـ لكن فقراء العالم بأكمله، وهذا حيث أجد نفسي، أدافع عن حقوق الفقراء أيًا كانوا وأينما كانوا.

لم تنحصر جهودي الخاصة بالمدافعة عن الفقراء والمضطهدين في المجال الديني. كيف أتمسك بمبادئي عن (العدالة والتسامح والحرية) مبادئي التي استقيتها من القرآن ولا تنعكس هذه الأفكار على تفكيري بالمجال السياسي؟

إذن، بالنسبة لما يطلق عليه الكثيرون بالغرب "تفجيرًا انتحاريًا"، مع من تقف؟ أقف مع الفقراء والمستضعفين، هؤلاء الذين يدافعون عن حرية

أراضيهم. لقد دعوت لمخيم فلسطيني حين كنت في زيارة لدمشق أبريل عام ٢٠٠٢. خلال هذه الزيارة سألني الكثيرون: "ماذا ترى في إسلام الشهادة؟ مع من تقف؟"، بالطبع أقف مع الفلسطينين ومع محاربة الاحتلال الإسرائيلي، حين لا يملك الناس أسلحة يحاربون بها، يجعلون من أنفسهم أسلحة، هذا أمر مشروع، أما إكساب الأمر صبغة حرب دينية فهذا مدعاة للقلق.

أنا على دراية كافية بالدعاية العربية للعمليات الاستشهادية. أنت تعرف المشهد، أب وأم يتهلان لله حين يعرفان أن ابنهما قد فجّر نفسه أشلاء. لسوء الحظ يصدق الناس هذه الدعاية، لقد نجح التسويق لتلك الصور بشكل مؤثر. لكن ما يفشل العالم في فهمه، هو أن الناس في المجتمعات العربية غير مسموح لهم بالتعبير عن مشاعرهم الحقيقية، إنهم يعبرون عما يتوقع معهم. هل فعلاً تعتقد أنه يمكن لأم وأب أن يكونوا سعيدين لأن ابنهم أو ابنتهم قتلوا؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنت تبتلع البروباجندا. هذا هو تحديداً ما أخبرت به الفلسطينيين الذين سألوني عن رأيي في العلميات الاستشهادية.

هل فعلاً تعتقد أن هؤلاء الآباء بنهاية اليوم حين يغلقون باب منزلهم يحتفلون بوفاة ابنهم؟ علينا أن نتعلم أن نعبر عن مشاعرنا الحقيقية. هل نحن سعداء بتحول أبنائنا لقنابل؟ ليس علينا الاحتفاء بالموت. أتفهم ذلك حين يشعر الناس أنه لا طريق آخر للدفاع عن أنفسهم، تبدو العمليات الاستشهادية هي الطريقة الوحيدة المتاحة. لا بد أن نفكر في الأبرياء، وبصراحة فأنا لا أقتنع بأن الإسرائيلين يدعمون حكومتهم المسلحة، لا بد

ان نشرح للعالم أننا نشعر بالأسف حيال ما نفعل، لكننا لا نشعر بأن هناك خياراً آخر. هذه ليست حرب دينية، ونعتها بهذه الصفة (وقد أشير لها باسم الحرب الدينية منذ ١٩٤٨) غير فعّال لإنهاء هذا الصراع. لا تصدق هذا الوصف، لو أننا بالفعل نحارب حرباً دينية فنحن قد خسرنا بالفعل، إن ديننا قائم على اليهودية، لا يمكن أن نهدم اليهودية إلا إذا هدمنا الإسلام. نحن لسنا ضد الشعب اليهودي، نحن ضد الاحتلال الإسرائيلي، وربما ضد مبدأ قيام دولة إسرائيلية للشعب اليهودي.

لقد بذلت ما بوسعي حتى لا أسيء للناس، لكن أردت أن أوسع من رؤيتهم للعالم وفي نفس الوقت أكون صادقًا حيال التعبير عن مشاعري. تحدثت عن الثورة الفرنسية في مواجهة النازية خلال الحرب العالمية الثانية، حين كان يذهب جندي ضد النازيين، لم يكن يحمل اسمًا ولا رتبة. لكننا أهبياء، حين نذهب لمضطهدينا نعلن اسم الجندي وعائلته. أي نوع من الحرب هذا؟ هذا عرض مسرحي. نحن نقوم بعرض من دماء أبنائنا، شيء يجب ألا نفخر به أو نشعر بالسعادة نحوه. لو كان الموت اختياراً فيجب أن يكون الملاذ الأخير، ولا بد أن نشعر بالأسف أننا لم نجد حلاً آخرا مشاكلنا.

حين تنظر للتاريخ اليهودي، لا بد أن تقف ضد الظلم والقمع الذي تعرض له اليهود على مر السنين بما فيها الهولوكست، والتقليل من أهمية هذا الحدث لهو خطأ كبير. لا يهم كم من اليهود ماتوا، الأعداد غير مهمة، المهم هو مبدأ إعدام الناس فقط لمجرد أنهم مختلفون. إسرائيل على الرغم من هذا أصبحت هي المضطهِد في هذه اللحظة. وعلى امتداد نفس الخط

شيء يبرر الاعتداء الجبان والشنيع ضد الشعب الأمريكي في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، لا شيء! لقد كان هذا فعلاً إجراميًا، والمجرمون لا بد أن يواجهوا جرائمهم.

أنا ضد أي نوع من القمع والاستبداد، أحيانًا يكون من الصعب التفريق بين المضطهِد والمضطهَد، أقرأ الأمر في صورة الطرف القوي والضعيف. القوة تمارس في المجال السياسي، داخل الجيش، وبالطبع داخل الكادر الديني. كما يمكن للناس أن يستغلوا غيرهم معتمدين على قوتهم الجسمانية. أحيانًا يصبح الضعيف قويًا ويتحول لمستبد هو الآخر، هذا الأمر لا علاقة له بأي انتماء اجتماعي أو ديني، إنها حدود انسيابية تتغير بسهولة.

حاليًا أنا مدافع عن حقوق المسيحيين في بلدي، وكذلك حقوق النساء، وهو الأمر الذي كتبت عنه بعنوان "دوائر الخوف"[24]. أحيانا في سياق مصري أدافع عن حق الإسلاميين في الحديث في وسط سياسي مفتوح، ولمَ لا؟

إذن، حين تسلمت ميدالية حرية العبادة بالاشتراك مع أربعة مستلمين آخرين من مؤسسة فرانكلين روزفلت في يونيو ٢٠٠٢، حتى لو كنت أملك بعض الشكوك الأساسية، شعرت بالسعادة البالغة. تلقى نيلسون مانديلا ميدالية الحريات الأربع، وذهبت حرية التعبير لراديو أوروبا الحرة/ راديو الحرية، وتلقى دكتور جرو هارلم برنتلاند الميدالية عن التحرر من العوز، والتحرر من الخوف لإيرنستو زيديلو بونسي دو ليون.

---

[24] نصر أبو زيد، دوائر الخوف: قراءة في خطاب المرأة، المجلس الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٩

تسلمت وأنا بباريس خطاب ترشحي لميدالية حرية العبادة. تساءلت: لماذا اختارتني مؤسسة إليانور روزفلت، وهي المؤسسة الأمريكية، لتسلم تلك الجائزة؟ لماذا أنا؟ لماذا هذا العام؟ ألقي باللوم على عقلي النقدي. لكن حين تناقشت أنا وابتهال بشأن شكوكي رأت أن سمعة المؤسسة تتخطى أمريكا. وافقت، لكنني كنت خائفًا من رد فعل مصر وباقي العالم الإسلامي. كنت أعلم أن هناك من سيقولون: "حسنًا، أنت الآن مبارك رسميًا من أمريكا، لقد تخيلنا أنك كنت دميتهم طوال الوقت، ويبدو أن شكوكنا كانت صحيحة". لقد اتهمني الزملاء المسلمون دائمًا ـ خصوصًا منذ ١٩٩٢ ـ بتأثري الشديد بالغرب.

ناقشت هذه المعضلة مع أصدقائي بالطبع. جاء صديق، كنت أعرف أنه بالتأكيد سيكون مع تسلمي الجائزة من القاهرة ليكون معي في لحظة التكريم. قررت بالنهاية الأخذ بنصيحة أصدقائي، لكنني أذكر أنني أخبرت ابتهال: "سأذهب للتكريم، حيث ملكة هولندا والشعب الأمريكي موجودًا، وسأصر على ارتداء الشال الفلسطيني على كتفيّ حتى أبعث برسالة للشعب الأمريكي وللعالم".

قبل مراسم الاحتفال ببضعة أيام، تناولت العشاء مع السفير ويليام فاندن هيوفيل، مساعد مدير مؤسسة فرانكلين وإليانور روزفلت، وأخبرني: "لقد سمعت عنك الكثير، وأنا مبهور للغاية بأفكارك".

"أشكرك، لكنّ عندي سؤالاً لك وأريد إجابة أمينة، هل كنتم تبحثون عن مسلم بشكل خاص لينال الجائزة هذا العام؟".

أجاب: "بصراحة، نعم".

تفاجأت بصراحته، لم أكن معتاداً على هذا الوضوح من المسئولين. أكمل حديثه: "كنا بحاجة لإرسال رسالة للعالم الإسلامي وللشعب الأمريكي أننا لسنا ضد المسلمين. لأصدقك القول لم نكن نعرفك من الأساس"، "كيف إذن علمتهم بوجودي؟"، كنت أعلم أن الجائزة تمنح في أمريكا بالسنوات الفردية، وبولندا في السنوات الزوجية، عائلة روزفلت بالطبع يأتون من خلفية ألمانية. أخبرني السفير فاندن هويفيل أنهم اجتمعوا وقرروا إذا كان ممكنًا أن يبحثوا عن باحث مسلم أو شخص يؤمن بالمبادئ التي يقف معها روزفلت، لإعطائه الجائزة.

"تركنا الأمر بيدي زملائنا في زيلاند بهولندا وفوجئنا بأن محرر جريدة (زيلاند) أشار في ناحيتك"، زار المحرر جامعة لايدن عام ١٩٩٥ في منحة لمدة ستة شهور، عرفني فقط بالاسم وبعث باسمي كممثل من المؤسسة مع هذا التحذير: "أنا لا أعرف شيئًا عن عمل أبو زيد". في هذا الوقت هذا المحرر كان يدرس بجامعة لايدن، كل من بالجامعة كانوا على معرفة بالمشاكل التي واجهتها ببلدي، والتي أدت لوجودي بالمنفى، فقام هو بإرسال اسمي لويليام ستوكهوف، المدير التنفيذي بمعهد لايدن للدراسات الآسيوية الدولية بالجامعة، والذي كان وراء إيفادي للايدن في عام ١٩٩٥. اتصل السفير فاندن هيويفيل بستوكهولف الذي رشحني لهذه الجائزة: "لقد رأينا في ترشيح البروفيسور ترشيحًا لافتًا للنظر، ممتاز". أصبح في ضوء هذه المناقشة أمر ارتدائي للكوفية الفلسطينية أكثر إلحاحًا كرمز

لتضامني مع المعاناة اليومية للشعب الفلسطيني، إن للأمريكان رسالة يريدون إيصالها وأنا أيضًا.

سألني مراسل ألماني في أثناء التكريم: "ألا ترى أن المؤسسة تعرض نفسها للنقد بإعطائك هذه الميدالية لأنك مسلم؟"، أجبت: "ربما تكون محقًا، لكن سأبقى دائمًا معرضًا للنقد، إذا كانت المؤسسة تضحي بشيء فلا بد أن تكون على معرفة أنني أضحي بقبولي إياها كذلك". "هذا غرور"، "لا، بل سؤالك هو المغرور، لو أن المؤسسة تقوم بتضحية، فأنا كذلك".

انتهت المراسم على خير، وحضر السفير الأمريكي الحدث. كنت متأثرًا بخطبة آنا إليانور روزفلت، سليلة مباشرة لعائلة روزفلت[25]. ارتديتنا أنا وابتهال شالين فلسطينيين فوق رداء أسود، أبرزنا رمزيًا تضامننا مع إخواننا وأخواتنا الذين لا تُسمع أصواتهم.

---

[25] كل من خطابي آنا إليانور روزفلت ونصر أبو زيد الملقى باحتفالية فرانكلين روزفلت للحريات الأربع في يونيو ٢٠٠٢، مذكوران في الملحق بنهاية الكتاب.

الفصل السادس

مغامرتي بأمريكا

استطعت في أثناء عامي ١٩٧٨ ـ ١٩٨٠، وبينما كنت أعمل على إنهاء أطروحة الدكتوراه، الحصول على منحة تتيح لي الحياة والدراسة بالولايات المتحدة الأمريكية، من خلال برنامج تبادل وقُع بين جامعة القاهرة وجامعة بنسلفانيا بفيلادلفيا. استفادتي كانت لا تقدر بثمن، ورسميًا كنت هناك لدراسة الفولكلور وتعلم منهجية البحث الميداني، وقد فعلت هذا بطريقتي الخاصة. تجولت بكافة الولايات المتحدة الأمريكية أزور مختلف الجامعات، يو سي إل إيه، بيركلي وبرنستون. كما زرت العديد من المكتبات وأماكن أخرى مثيرة للاهتمام في الغرب، نيفادا، كاليفورنيا وأوريجون. كنت شابًا حينها، اشتريت تذاكر ذهاب وعودة مستخدمًا الأتوبيسات، الطائرات والقطارات. أنفقت مبلغًا لا بأس به في المواصلات، فقط أردت أن أتعلم على قدر استطاعتي، وهل هناك وسيلة أفضل إلا زيارة العديد من الأماكن؟

لدى عودتي من فيلادلفيا، قابلني توم نيف، مدير معهد دراسات الشرق الأوسط الذي كنت أحد أعضائه وتحت إدارته. أدركني متعجبًا وأخذني من ذراعي: "أين كنت في الشهرين الماضيين؟".

"كنت في رحلة حول الولايات المتحدة الأمريكية".

سألني: "هل زرت الجامعات؟".

"بالطبع، والمكتبات أيضًا". ثم عرضت عليه النسخ المصورة التي حصلت عليها لبعض الكتب التي استطعت تجميعها.

"حسنًا، يمكنني أن أدفع لك تكاليف تلك الرحلة لو أحضرت لي كعوب تذاكر السفر والمواصلات، ما فعلته كان جزءًا من مجهودك البحثي. لا أرى في ذلك مضيعة للوقت". ذهلت من رد فعله، لكنه أسعدني للغاية، كنت أملك وقتها ١١ دولارًا وبعض الفكة، ما تبقى من أسفاري.

حين وصلت للولايات المتحدة الأمريكية، بدأت في استكشاف فيلادلفيا نفسها. وجدت أنها ليست فقط مقسمة لشمال وجنوب، لكن لمجتمع ما فوق الأرض وتحت الأرض. الأتوبيسات، بشكل عام، هي وسيلة انتقال أصحاب البشرة البيضاء، أمّا المترو فكان لأصحاب البشرة السوداء، الذين كنت أرتاد نواديهم أحيانًا. كنت دائمًا ما أستمتع بسماع موسيقاهم وأترك نفسي أندمج مع الجو العام، لكن هذا لم يحل دون تعرضي لتجربة مخيفة.

ذات مساء بعد أن تركت أحد تلك النوادي متوجهًا لمنزلي، في وقت متأخر، لاحظت بعض المراهقين السود في محطة المترو. أقاموا حولي دائرة.

وبدا أنهم سيعتدون عليّ. تصرفت بلطافة على الرغم من ذلك، سأل أحدهم: "من أين أنت؟"، أجبت: "إفريقيا"، بدا عليهم الاهتمام، لذا سألتهم: "هل تعرفون إفريقيا، أنا من بلد بها تدعى مصر"، كنت قد مكثت بالولايات المتحدة وقتًا كافيًا لأعرف أن معظم الأمريكان الأفارقة يعرفون أن أجدادهم من إفريقيا، لكنهم لا يعرفون المزيد عن هذه القارة.

أكملت: "أنا هنا أدرّس وأدرس".

"أووه إنه مدرس، هل سمعت ذلك؟ إنه يدرّس"، كانوا يستهزئون بي، سأل أحدهم: "ماذا تدرّس؟".

"أدرّس العربية".

"لماذا لا تستضيفنا في منزلك لنحتسي شيئًا؟".

"نعم، ولمَ لا؟ لكن الوقت متأخر جدًا، لو جئتم معي يمكن أن نحتسي شيئًا معًا، لكنني مضطر للنوم مبكرًا لأنني أدرّس لفصل بالصباح".

بدا عليهم التعجب من رد فعلي، أنا نفسي لم أصدق أنني كنت أطلب من هؤلاء المراهقين أن يذهبوا معي للمنزل لاحتساء شيء ما، لكنني كنت خائفًا من الرفض. استقللنا المترو، وطوال الطريق تركزت أفكاري حول دخول هؤلاء الستة معي لمنزلي ثم قتلي.

حين وصلنا لمنزلي قال أحدهم: "ماذا لديك لنشرب؟ أريد بيرة".

"حسنًا، ليس لدي بيرة، أنا لا أحتسي الكحول. لكن يمكن أن تختار بين الشاي، القهوة، عصير البرتقال أو اللبن".

"لماذا لا تشرب الكحول؟"، بدا السؤال على وجوههم جميعًا قبل أن ينطق به أحدهم.. "هل أنت من شهود يهوه؟"، "لا. أنا مسلم، واحتساء الكحول ضد معتقداتي الدينية".

نظروا لي بشيء من الشك، لكنهم لم يضغطوا عليّ. هكذا قدمت لستة مراهقين مجموعة من المشروبات حسب الخيارات التي أعطيتها لهم. كانوا مهذبين جداً في أثناء وجودهم بمنزلي، سألوني أسئلة جادة عن مهنة التدريس، وبعد عدة دقائق شكرني أحدهم قائلاً: "لقد استمتعنا حقًا بصحبتك"، ثم تركوني ورحلوا في سلام. أحب أن أعتقد أن سلوكي المحترم ناحيتهم أنقذني من تعدٍ عنيف، واعتبرت نفسي محظوظًا أنهم لم يذبحوني بدم بارد.

في حادثة أخرى، بإحدى رحلاتي - أعتقد ببورتلاند بأوريجون - صادفت أحد نوادي السود التي كنت أرتاد مثلها في فيلادلفيا، كنت جائعًا ودخلت لأحصل على ما آكله. مرت دقيقة أو أكثر حتى تمكنت من رؤية المشهد كاملاً، لكن بعد أن نظرت حولي قليلاً، تصادف أني دخلت بارًا للمثليين جنسيًا. جلست واقتربت مني امرأة - وبدا هذا غريبًا.. "هل تمانع أن أجلس معك؟".

أشرت إليها بالإيجاب، فجلست، وبدأنا في التحدث. بعد قليل بدأنا نتحدث بشكل شخصي، واكتسبت انطباعًا أنها تريد - ما يطلق عليه الأمريكان - قضاء وقت لطيف وممتع، ممارسة علاقة جنسية معي، سألتني: "أين تسكن؟"، "أسكن بفندق آخر الشارع"، واستنتجت أنني سأكون

مهتماً بإقامة تلك العلاقة. استكملت الحديث بناء على هذا الاستنتاج. .
"لا بد أن أخبرك بشيء قبل أن نرحل".

.هنا أخبرتني أنها رجل، في انتظار الخضوع لعملية تحول جنسي، عواطفه، أو عواطفها، هي أو هو أكد لي أنها لامرأة، إذا قبلت فستستطيع أو يستطيع أن يشعرني بالرضا. كنت مصدوماً بشكل ما، لكنني لم أرد أن أكون فظاً. لم يقترب مني رجل من قبل ـ في زي سيدة ـ من أجل ممارسة الجنس. لا بد أنني كنت مرتبكاً، فسألني: "هل تكرهني الآن؟".

"لا، لا بالطبع". كان ممكناً أن أخبره بأنني لست مهتماً، لكنني تصورت كم أن هذا الموقف صعب بالنسبة له.

سألني: "هل لنا أن نكمل الحديث؟".

أجبت: "لمَ لا؟".

"هل تحب أن أريك المدينة؟ لقد وصلت اليوم وسترحل غداً وأنا لدي سيارة".

أمضينا اليوم سوياً، هذا ما فعلنا فقط، وقد كان بالفعل وقتاً ممتعاً.

ثقافتي لا تتسامح مع ما يعرِّفه الاسلام بالسلوك الجنسي الشاذ، وتنطوي المثلية الجنسية والتشبه بالجنس الآخر تحت هذا البند، ويعلّق عليها الناس بالعديد من الألفاظ مثل "خطيئة، شذوذ، خروج على إرادة الله". هل عليّ أيضاً كمسلم أن أقف وراء ثقافتي وأصدر أحكامي وأدين أفراداً موجودين خارج حدودي الأصولية؟ إنه من السهل الإنضمام إلى الجوقة وإصدار أحكام صارمة بحق المختلفين عني. من خلال تجربتي بهذا البار

للمتحولين جنسيًا، اكتشفت أنني على استعداد لتفهم السلوك الذي نظريًا لا يمكنني قبوله. كوّنت صداقات مع عدد من المثليين جنسيًا القاطنين بالولايات المتحدة الأمريكية، أذكر بعضهم من الموهوبين بشدة يعملون كفنانين أو موسيقيين. أعجبت بعدد منهم، لكنني أبدًا لم أستطع الكتابة عن هذه التجربة بمصر، إن أصدقائي من المثقفين لم يتفهموا ذلك، واعتبروه غريبًا، وبالتالي كان لي أن أتصور كيف يكون رد فعل الصحافة.

بعد مضي وقت طويل من بداية حياتي بالمنفى في هولندا، مايو ١٩٩٦، تلقيت مكالمة من د. رودولف شتاينبرجر، طبيب نفسي طالبًا مقابلتي. اتضح لاحقًا أن تخصصه هو المثلية الجنسية في العالم الإسلامي. أخبرني بأن هناك العديد من المثليين يأتون لهولندا من أفغانستان، باكستان، إيران ودول شرق أوسطية مسلمة أخرى، حيث تعتبر المثلية الجنسية سلوكًا إجراميًا.

لا توجد آية قرآنية محددة تدين المثلية الجنسية، إلا في موضع قصة قوم سدوم وعمورة (حيث قضى الله فيها بإحراق المدن) التي تدين الرجال الذين يمارسون الجنس سويًا. لم أكن واثقًا أنني يمكن أن أساعد د. شتاينبرجر وأخبره أكثر من هذا. أكد لي أنه لو أعطيته قليلاً من وقتي، فهو على ثقة أن مناقشتنا سوف تفيد عمله إيجابيًا. جاء لمكتبي وتحدثنا لأكثر من ثلاث ساعات، تطرقنا فيها لعدد كبير من الموضوعات، ما هي العلاقة بين الثقافة الإسلامية والعربية؟ ما هي الثقافة الجاهلية؟ ماذا تعني الرجولة في الثقافة العربية؟ الصداقة؟ ما هي العلاقة بين الرجال والنساء في المجتمعات الإسلامية؟ لقد كان الرجل يبحث بحق.

د. شتاينبرجر كان عاملاً مساعداً في اتساع معرفتي عن المثلية الجنسية، عرفت منه أنها ليست مرضاً، لقد كانت تلك معلومة جديدة بالنسبة لي، كما أنهم من الناحية البيولوجية، كما قال، مختلفون جينيًا. تناقشنا في تاريخ المثلية الجنسية، "شيء ما انحرف في مجتمع، لم يعد يرى أو يتعرف أو يتقبل الأشكال المختلفة بين أفراده"، أصبحت واعيًا أكثر بالمثلية الجنسية كظاهرة طبيعية، وأقمت صداقات مع المجتمع المثلي بهولندا. كما شعروا بالحرية أن يناقشوا معي بعض الصعوبات التي يواجهونها مع عائلاتهم. استمعت لهم، الناس هم الناس، يتفاعلون في علاقاتهم كما الجميع.

هل سيقبل الإسلام المثلية الجنسية كشيء لا يراه شاذاً؟ ليس إلا إذا شهدنا ثورة حقيقية، تغيراً في الطريقة التي نفهم بها القرآن في الأمور المتعلقة بحيواتنا. لقد أقر الفقهاء، باحثو القانون، على مدار التاريخ الاسلامي بعقوبات مستقاة من خلال القرآن بناء على تحميل بعض المعاني للنصوص واختزالها في مواضع أخرى. كما أدرجوا مصدراً آخر وهو الحديث الشريف أو السنة النبوية، المصدر الثاني للتشريع. القرآن والسنة لم يكونا كافيين للتعامل مع الأمور الملحة المتزايدة اجتماعيًا، اقتصاديًا وجنائيًا، لذا تبنى الفقهاء مصدراً ثالثا للتشريع مبنيًا على إجماع العلماء من الأجيال الإسلامية الأولى من صحابة الرسول. المبدأ الرابع كان الاجتهاد، والذي كان ضروريًا إرساؤه لحل المشاكل التي لم يتمكن التعامل معها بالمصادر الثلاثة الأولى.

إلا أن مبدأ الاجتهاد كان قاصراً على استخدام القياس. فحل أي مشكلة يكون من خلال مقارنتها بواقع سابقة مشابهة ثم التعامل معها من

خلال أي من مصادر التشريع الثلاثة السابقة، المصادر الأربعة هي ما يطلق عليها المسلمون مجتمعة قانون الشريعة.

قانون الشريعة هو قانون بشري، لا شيء مقدساً بخصوصه. حين نتأمل عقوبات تشريعية خاصة ذكرت بالقرآن، مثل عقوبات الزنى، السرقة، القتل أو زعزعة السلام الاجتماعي، نجد أنفسنا بحاجة للتساؤل، هل هذه العقوبات ابتدعها الإسلام؟ هل نعتبرها إسلامية؟ بالطبع لا. لقد توافقت هذه العقوبات مع ما كان مقرراً قبل مجيء الإسلام، بعضها جاء من القانون الروماني، والبعض الآخر جاء من التقليد اليهودي، ومجموعة أخرى انتمت لأزمان بعيدة. في العصر الحديث، حيث جرى تشريع جميع حقوق الانسان، يتوقف تفكير العديد من الناس عند مجموعة من العقوبات مثل بتر أعضاء الجسد البشري أو الإعدام على أنها عقوبات آلهية، وبالتالي فهي إجبارية.

بعض الجوانب الأخرى من الشريعة خاصة التي تتعلق بالأقليات الدينية، حقوق المرأة وبعض حقوق الإنسان مثل حقوق المثليين لا بد من إعادة النظر بها أيضاً. لقد كانت وظيفة الفقيه دائماً هي البحث عن أسس القانون داخل الشريعة وتطبيقها في مختلف السياقات الاجتماعية. القرآن ليس كتاب قانون، هناك بالفعل أسس ومبادئ تشريعية مذكورة به، لكنها تترك مساحة كبيرة للتأويل وإعادة التأويل من قبل المجتمع البشري، لكن ادّعاء أن الشريعة وآدابها هي ملزمة لكل المجتمعات الإسلامية بغض النظر عن الزمان والمكان هو إصباغ صفة القدسية على التفكير البشري الذي تطور عبر التاريخ. حين يبحث المشرعون عن المبادئ القانونية فهم يعملون تحت مظلة

الأهداف الخمسة المستقاة من القرآن والمتفق عليها، وعليه لا بد لأي قانون يقره المشرعون أن يتفق مع هذه الأهداف. لو أن هناك تعارضًا بين أحد الأهداف والقانون يعتبر القانون غير قرآني. هذه الأهداف هي الحفاظ على الحياة، النسل، العقل، الملكية و الدين أو الإيمان، هذه الأهداف لها رؤية عالمية وأصبحت جزءاً مما يعرف بالإسلام التقليدي.

اكتمل الشكل النهائي للإسلام التقليدي في القرن الثالث عشر، كل الكتب التي تتناول مبادئ الشريعة اليوم تكرر فهم أجدادنا الذين توصلوا له آنذاك، لم يحدث أي تطوير لقانون الشريعة منذ ذلك الوقت. الاستنتاجات التي توصل لها أسلافنا كانت الخلاصة بوقتهم، اليوم نحن في حاجة لمعرفة جديدة نعمل وفقًا لها، إلا أن الفكر الإسلامي في كل جوانبه ظل ثابتًا يبدو وكأنه وصل للجمود منذ قرون مضت. أدركت من خلال محادثتي مع د. شتاينبرجر شيئًا عن ثقافتي لم أكن قادراً على رؤيته، إن مجتمعنا، على الأقل على الملأ، قائم على الصداقة بين الرجال. الرجال يشعرون بالملكية تجاه أصدقائهم من الرجال، كمثل الطريقة التي يشعر بها الرجال والنساء تجاه بعضهم البعض في إطار علاقة حميمة. ليس غريبًا أن تسمع رجلاً يخبر صديقه: "أنت صديقي، لماذا فعلت هذا بي؟ كيف يمكن أن تأخذ مثل هذا القرار دون أن تستشيرني؟". اكتشفت ـ وكان أمرًا فارقًا في تلك الفترة ـ أنه حين تكون فرصة اختلاط الجنسين بحرية في المجتمع، يشكّل الرجال روابط قوية مع رجال آخرين، علاقة ملكية غير صحية تنشأ بين الاثنين. أينما وجد هذا النوع من الملكية (أب وابنه، زوج وزوجته) تظهر المشكلات، لا بد أن يشعر الفرد بالحرية ليتخذ قراراته الخاصة حسب ما يمليه عليه ضميره، وليس وفقًا لشخص آخر.

حين تزوجنا أنا وابتهال عام ١٩٩٢، تعجب أصدقائي. ابتهال متحدثة لبقة، مفكرة وأستاذة بجامعة القاهرة. في المجتمع المصري، سلوكها الصريح المتحدث والمفكر يصمها بعدم الأنوثة، على عكس رؤيتي للأمر، فأنا أرى أن الإنسان، سواء رجلاً أو امرأة يحمل بداخله خليطًا من الصفات التي تصفها الثقافة برجولية أو أنثوية. إن إجبار النساء على اتخاذ أدوار معينة تعرف عن طريق المجتمع بأنها أنثوية أو ذكورية هو نوع من الاستبداد خصوصًا للمرأة، التي تعاني من هذا الأمر بشكل أكبر.

كان والد ابتهال رجلاً استثنائيًا في الطريقة التي تعامل بها معها، بعيدًا عن التفكير التقليدي للعائلة، سمح لابنته الوحيدة بالسفر لفرنسا بمفردها للدراسة. لم يكن عند أصدقائي أي شك بأنني سأتزوج ابتهال، حين انتشر الخبر وأدركوا أنني لم أناقش الأمر معهم، شعروا بالغضب، واعتبروها نوعًا من الخيانة أنني لم أستشرهم. ها أنا الرجل المصري حتى النخاع المشبع بكل الطرق المصرية في الفعل والتفكير، وجدتهم غير محقين في شعورهم بالغضب، لقد كانت قرار الزواج ملكًا لي ولابتهال فقط، حتى لو ظنوا أنه كان عليّ استشارتهم.

لقد تعلمت تقدير معنى الخصوصية وأنا بالولايات المتحدة. حين رجعت لمصر بعد عامين من رحلتي هناك، حياني أحد الاساتذة الذي كان بمثابة الأب الروحي لي بوابل من الأسئلة، أسئلة عامة (ماذا درست؟ ماذا زرت؟) وأخرى أكثر تدخلاً (كم من الأموال ادّخرت؟). أجبته كيفما اتفق، لكنه بدأ في نقل لي ما فعله كل من أصدقائي، فأوقفته: "من فضلك، لا داعي أن تخبرني، لقد أوكل إليك أصدقائي بأمور شخصية

لثقتهم بك، سيخبرونني بها إذا أرادوا ذلك، هناك ما يسمى الخصوصية. حين أخبرك بشيء عن نفسي ربما لا أريد أن أخبر الباقين به، لا بد أن نحترم ذلك".

ضحك الأستاذ إما من إحراجه أو من المفاجأة، وربما خليط من الاثنين.. "إذن هذا ما تعلمته هناك في الولايات المتحدة؟".

"نعم، بالإضافة لأشياء أخرى. وكم هي راحة ألا يتطفل شخص على آخر ويحترم الأسرار التي يمنحها له الناس".

ربما منحتني وفاة والدي وأنا بالرابعة عشرة من عمري مساحة من الحرية لم أكن لأحصل عليها لو ظل حيًا. اكتشفت أنني لم أكن بحاجة لإذن أو سماح من أصدقائي تجاه اتخاذ أحد قراراتي الشخصية. بما أنني لم أعتمد على سلطة أبي بعد أن قاربت مرحلة الرجولة، ولأن الأمهات لا يملكن نفس السلطة في المجتمع المصري، تعلمت مبكرًا أنني يجب أن أتحمل تبعات قراراتي. اتخذت بعض القرارات الخاطئة، وتعلمت من ارتكاب الأخطاء، ولم أكن لأرغب في أن يسير الأمر بشكل آخر. لذا انتقدت أصدقائي سائلاً إياهم: "هل حين قررتم الزواج استشرتموني؟ ليس لأنني أرى أنه كان واجبًا عليكم، لكن إذا لم تعجبوا بزوجتي فهذه مشكلتي. أنا لا أطلب منكم أن تحبوها، ما هي مشكلتكم معي؟"، إلا أن معظمهم لم يفهموا، كيف لهم ذلك؟ كانت طريقة التفكير المصرية هي الطريقة الوحيدة التي يعرفونها.

اتسعت مداركي من خلال تجربة الحياة في أمريكا، كنت ألتقي طلابي وأتحدث معهم ونحن نتناول القهوة، ما زلت أعتبر الكثيرين منهم

أصدقائي. تعلمت من الحياة في ظل ثقافة مختلفة عن ثقافتي ألا أحكم على ثقافة أخرى بمقاييسي المجتمعية، أصبحت أقل إثنية، كما أصبحت شغوفًا لمعرفة ما يستثير تفكير الأمريكان ويشكل رؤيتهم للأمور والأشياء.

حين انتقلت لفلاديلفيا أول مرة، استأجرت شقة من سيدة عجوز، سألتني وهي تسلمني المفتاح لشقتي الجديدة.. "من أين أنت يا بني؟" في نهاية السبعينات كان سهلاً على الأمريكان من نظرة واحدة معرفة أنني لست أمريكي المولد والمنشأ، فأنا قصير ومستدير ولون بشرتي مختلف.

"أنا من مصر"..

"مصر؟ أين مصر؟"..

"مصر التي تقع بإفريقيا. بدا التعبير على وجهها جامدًا، فأكملت: "تعرفين، الأهرامات، أبا الهول، الحضارة المصرية ذات السبعة آلاف عام؟".

سارعت بالقول: "لا، ليس ممكنا".

"كيف ذلك؟ نحن نتحدث عن تاريخ هنا؟".

"حسنًا، حسب الإنجيل فالحياة بدأت من خمسة آلاف عام فقط!".

لم أكمل تلك المناقشة، رأيت أنها لن تكون مثمرة، فلقد كانت المرأة على ثقة من حقائقها الإنجيلية. لكنني بدأت في تجميع قطع الثقافة الأمريكية معًا، وبدأت أردك أن هناك عددًا لا بأس به من سكان الولايات المتحدة الأمريكية يعتمدون على الإنجيل كمصدرهم الأساسي للوقائع التاريخية (العديد من المسلمين يعتمدون على القرآن بنفس الطريقة). أجريت محادثة

أخرى مع سيدة مسنة في سوبر ماركت أمريكي. كانت تتجول بقطتها في عربة التسوق، وكانت القطة على وشك أن تقفز من العربة حين أمسكتها وأعدتها للسيدة، شكرتني وسألتني من أين أنا؟ وأخبرتها أنني من مصر.

عبست المرأة، لا شك أنه بذهنها، العرب شيء واحد، سألتني: "لماذا لا تقبلوا بأن يعيش اليهود معكم؟"، استنتجت أنها تقصد فلسطين وإسرائيل، أجبت: "أعتقد أن هناك يهوداً بإسرائيل لا يستطيعون تقبل أن يعيش الفلسطينيون معهم". زاد عبوس المرأة.. "هذه هي الأرض الموعودة التي ورثها إسحاق من أبيه إبراهيم"، رددت في هدوء: "هذا صحيح. نحن نتحدث عن الأرض الموعودة، لكن إبراهيم كان له ولدان ـ إسحاق وإسماعيل. هل يبدو صحيحًا لك أن يخص ابراهيم ابنًا واحداً له، إسحاق، بالميراث؟"، فاجأتني وهي تقول: "نعم، نعم، بالطبع إبراهيم كان له ولدان".. "أنتِ محقة، أعتقد أن هذا هو أحد الأسباب التي يجب من أجلها أن يتقبل الشعب اليهودي الفلسطينيين ـ أحفاد إسماعيل ـ لأن يعيشوا معهم".

ساعدني كثيراً الاشتباك مع الناس كمناقشات كتلك لاستيعاب مفاهيمهم المتوارثة، والتي تظهر بشكل واضح في سلوك الأفراد في أي مجتمع. حين يتعامل عدد لا بأس به من الناس بشكل واحد، فهذا هو ما يعطي المجتمع طابعه المميز.

كذلك كانت تجربة مواعدة الأمريكيات، شاقة. في مصر لم يكن هناك سؤال من سيدفع فاتورة العشاء أو حتى ثمن فنجان القهوة، الرجل يفعل ذلك بالطبع، لكن أحيانًا كنت أتسرع وأدفع الفاتورة، فكانت الأمريكيات

يتهمنني بأني أحاول التحكم بهن، كذلك لو فتحت الباب لزميلة كان ممكنًا اتهامي بنفس التهمة. تعلمت كيف أتأقلم وأضحك على أخطائي لأخفف من حرج المواقف الاجتماعية. أخبرت أصدقائي يومًا ما عن الوقت الرائع الذي قضيته مع سيدة واعدتها، وذكرت أمامهم أنني أردت "إرضاءها"، ضحكوا وأخبروني أنه ليس من اللائق أن أقول هذا لأنه تعبير يحمل ايحاءًا جنسيًا. تعلمت الكثير عن الثقافة الأمريكية بمشاهدة كيف يستخدم الأمريكان لغتهم.

لم أكن لأتعلم شيئًا لو كنت قد اكتفيت بالانخراط في الحياة الجامعية مستخدمًا خطابها السائد، لهذا قررت أن أخرج من الجامعة قدر الإمكان وأخالط الناس من مختلف القطاعات. قمت بزيارة توم نيف وزوجته جين بمنزلهما وأنا بفيلادلفيا. عاش الزوجان بمصر لمدة سبع سنوات، حيث عمل توم بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. المرة الأولى التي تناولت فيها العشاء في منزلهما أعطتني جين ملاحظات حول أفضل السبل لتناول الطعام مع الأسر الأمريكية.

"اسمع يا نصر، سأتصرف معك كما أفعل مع أي أسرة مصرية، سأضع الطعام بطبقك. إذا قلت لي: شكرًا هذا يكفي، سأتوقف عن وضع المزيد". أخبرتني أن بعض العائلات الأمريكية ستقوم بدعوتي لتناول الطعام معها. "إذا قلت شكرًا" سيقتنع الناس أنك لا تريد المزيد من الطعام، سيأخذون بكلمتك ويتوقفون عند هذا الحد". أخبرتني جين أيضًا إذا لم أجد شيئًا ما على الطاولة "كوكاكولا، مستردة، شاي" فلا عيب في أن أطلبه، على الرغم من أن هذا لا يصح مطلقًا بالمجتمع المصري. قدرت

لها إخباري بتلك الأمور، لكنني واجهت صعوبة في أن أطبق الأفكار التي أطلعتني عليها.

اتصلت بي جين يومًا ما مقترحة.. "دعنا نتناول الغداء سويًا". أردت إجراء حديث بسيط معها فسألتها عن توم، على الرغم من أنني كنت أراه يوميًا بالجامعة فأخبرتني.. "أنت تعرف، نحن منفصلان"، "لا، لم أكن أعرف، توم لم يخبرني". فاجأني هذا الانفصال، لقد كانا متزوجين منذ وقت طويل وأنجبا أطفالاً. أخبرتني بعدها أنها تريد مقابلتي، كنا نتصرف كمصريين، في مصر لو هناك خلاف بين رجل وامرأة فأي طرف ثالث لا يجد عيبًا من أن يتدخل لإصلاح الأمور بينهما، لكني كنت أعرف كيف يتعامل الأمريكيون مع الزواج كأمر خاص. بالرغم من ذلك عرضت المساعدة: "لو أن هناك شيئًا يمكن أن أفعله"، أجابت جين: "ما يمليه عليه قلبك"، وفهمت أنها كانت تطلب مني أن أفعل شيئًا.

اليوم التالي قابلت توم في المكتب.. "لقد تناولت الغداء مع جين أمس وأخبرتني أنكما انفصلتما". كان توم رجلاً طيبًا، لكنه قطع دابر الحديث، وأخبرني: "نصر، أنا آسف، لكن هذا ليس شأنك. بالإضافة إلى أننا لا نريد أن نزيد من همومك ونضيف عليك عبئًا جديدًا" (كانت أختي بدرية قد توفيت مؤخرًا). تحدثت لجين مرة واحدة تقريبًا بعد حديثي مع توم، لكن حديثي مع توم أنهى تواصلي معها. قطع توم اتصالاته بها، ومن خلال تلك التجربة فهمت القليل عن كيفية رؤية الأمريكان لأمور الزواج والطلاق. بشكل عام في مصر ليس معتادًا التفكير في الانفصال والطلاق بعد عشرين عامًا من الزواج خاصة في وجود أبناء متقدمين في

السن. لم أحكم على توم وجين، كشخص غريب شعرت أنني لن أفهم كل مدخلات ومخرجات الموضوع. المصريون العرب في موقف مماثل سيتعجبون.. "كيف يمكن أن أبدأ حياتي مرة أخرى في هذه النقطة"، لم يكن متاحًا لي أن أفهم في تلك اللحظة هذا المنطق، لكن بعد ١٢ عاما واجهت موقفًا مماثلاً.

من الأشياء التي استفدت منها خلال دراستي بجامعة بنسلفانيا كان عدد المناهج الرهيب المقدم في مختلف التخصصات، خاصة علم الاجتماع، الأنثروبولوجي ودراسة الثقافة بشكل عام. خبراتي الأكاديمية في الولايات المتحدة الامريكية آتت أكلها، قرأت الكثير بمفردي في مجالات الفلسفة، الهرمنيوطيقا وهي علم تأويل النصوص وفتحت لنفسي أبواب عالم جديد تمامًا.

تم تطبيق مبادئ علم الهرمنيوطيقا لأول مرة على نصوص الإنجيل، الأدب، الأنثروبولوجيا وحتى علم النفس. استنبطوا أدوات هذا العلم في أبحاثهم، فالعلوم الإنسانية تعتمد على تأويل النص (الخطب، الأحلام والثقافات البشرية) وليس على التجربة المعملية المحكمة كوسيلة للمعرفة.

القرآن، النص المقدس للإسلام، هو كلمة الله. أمسك الله بزمام المبادرة، وبدأ في الاتصال بالإنسان من خلال النبي محمد في وقت معين (القرن السابع) وفي مكان معين (الجزيرة العربية)، هذا يتفق عليه المسلمون فيما بينهم. كلمة قرآن نفسها تعني "أن تقرأ" وحين نحلل الرؤية الأولى لمحمد - أول حادثة للوحي - نلاحظ أن محمداً نقل معلومات لنا، لم نكن هناك، لم يكن أحد هناك. بعد رؤيته، أخبر محمد أصحابه أنه قابل ملاكًا

تحدث إليه، ما لدينا هو كلمة محمد التي تحدث بها الملاك له من وحي كلمة الله. هل تحدث الله حقًا من خلال ملاك لمحمد؟ لو هذا هو الأمر، فنحن ليس لدينا أي فكرة ما هي اللغة التي استخدمها الملاك، ولا توجد طريقة لمعرفة هذا. تكهن المسلمون عن واقعة الوحي الأولى منذ القرن السابع، وأدّى التكهن حتمًا لتدشين النظريات، لكن ما نعرفه أن محمدًا أخبر أصحابه أن الملاك كشف له عن كلمة الله، وهو كرر الرسالة، إذن ماذا لدينا؟ كلمة محمد تؤكد أنها كلمة الله، هذا هو القرآن.

يؤمن المسلمون أن محمدًا استقبل كلمة الله، لا جدال حول هذا، نصدق محمدًا كما نصدق أنه أخبرنا بالحقيقة، وفي نهاية الأمر إنه محمد، أحد البشر، الذي ينقل لنا كلمة الله. لا توجد طريقة تثبت أن القرآن هو كلمة الله، وبناء على المعلومات التي لدينا لا يمكن أن نبني حقائق مطلقة، لكن لدينا مساحة للمناورة حين نفكر بكلمة الله التي نقلها محمد كطريقة لفهمها. إذن ما هي كلمة الله؟ هناك فقرات بالقرآن تخبرنا بأن كلمة الله لا يمكن "حصرها" كما ذكرت في موضع سابق، تفوق كلمة الله كل شيء يمكن أن نستوعبه من خلال حواسنا ونسجله. لو أنك اعتبرت القرآن هو فقط النص الذي نملكه اليوم، يمكنك أن تكتبه بسهولة في بضع ساعات باستخدام قلم واحد وحاوية حبر.

يجب أن يوضع حد فاصل بين كلمة الله والقرآن، كلمة الله بالقرآن يمكن أن توصف بأنها أفضل تجلٍ لكلمة الله، وبالتالي، هناك تجليات أخرى لكلمة الله. إن الله لا يتحدث العربية فقط، بل لا يتحدث لغة محددة كما نفهم اللغة، إذن لو أنه ليس لله لغة محددة، يفتح هذا الباب للعديد من

المخطوطات لتعتبر كتجلٍ آخر لكلمة الله. كل هذه التجليات لكلمة الله تأتي لنا عن طريق البشر، مثل عيسى، موسى، الرسل ومحمد الذين نقلوا كلمة الله من خلال اللغة. لقد توصلنا لنقطة مهمة وهي ما معنى أن نتحدث بلغة معينة؟ اللغة لا تنبت من الفراغ، اللغة لها سياق ثقافي، اجتماعي وسياسي، والبشر هم من ينشرون هذه السياقات، البشر القاطنون في مختلف أنحاء العالم في أوقات معينة يتركون بصمتهم على اللغة. إذن لو أردنا فهم كلمة الله كتجلٍ في نص معين (القرآن، الإنجيل في نسخته العبرية، العهد الجديد) فأمر أساسي أن نفهم تاريخ هذا النص.

يصر البعض على النظر لكلمة الله كنص مكتوب بلغة بشرية، متصورين أن فهم النص المقدس بهذه الطريقة هو ضد الإيمان. ما نوع اللغة التي استخدمها الله ليتواصل مع البشرية؟ حين تتحدث مع طفل صغير كيف تبدو اللغة وأصواتها؟ هل ستتحدث مع مراهق كما ستتحدث مع شخص ناضج؟ هل ستستخدم اللغة الأكاديمية لتوصل نقطتك؟ حين تريد لطفل أن يفهم ما تقول تستخدم نفس لغته، لو لم تفعل فلن يكون هناك تواصل.

إذن حين نتحدث عن تواصل الله مع البشر، فإن ما لدينا هو القرآن مكتوبًا بلغة بشرية. كلمة الله كانت لا بد أن تؤقلم نفسها ـ تكون أكثر بشرية ـ لأن الله أراد التواصل مع البشر، لو تحدث الله بلغته الإلهية لم يكن البشر ليفهمون شيئًا. إن الأمر شبيه بحديث أستاذ فلسفة أرسطوية لطفل يبلغ من العمر عامين، الطفل ليس لديه السياق الذي يستقبل به فلسفة أرسطو. المسيحيون يؤمنون بأن الله تجلى على البشرية في صورة عيسى، لذا

فالمسيح له الطابع البشري والمقدس أيضًا، كذلك يؤمن المسلمون بأن الله تجلى في القرآن وبالتالي فالقرآن له الطابع البشري والمقدس.

كيف يمكن أن نفهم الطبيعة المزدوجة للقرآن؟ كيف للجانب البشري والمقدس أن يكتملا معًا؟ هل الجانب البشري هو من أنتج الجانب المقدس أم العكس؟ حين نقرأ القرآن نجد بالطبع بصمة التاريخ، يتضح هذا في العديد من الآيات. فنحن نتبع محمداً لأماكن جغرافية معينة وهو مسافر مع عائلته، وهو يتفاعل مع مجتمعه، وينصحه بأمور معينة. محمد موضوع بشكل واضح في سياق تاريخي، بنفس الوقت يتخطى القرآن حاجز التاريخ، فهناك آيات تتحدث عن الكون، عملية الخلق، الله، صفات الله، رسالة الرسل، الجنة، الأرض، الجبال، الحيوانات، جمال الكون والأخلاق، والقراءة المتعمقة للقرآن توضح جانبيه المقدس والتاريخي البشري.

لقد أصبح النص المقدس بشريًا منذ اللحظة التي أوحي بها لمحمد، فكيف كان للبشر أن يفهموه؟ في هذه اللحظة أصبح النص محكومًا بمبادئ التبديل والتحويل كأي كتاب آخر. النصوص الدينية هي نصوص لغوية بالأساس، تنتمي لثقافة خاصة وهي نتاج لسياق تاريخي معين، هكذا القرآن، خطاب تاريخي ليس له معنى ثابت.

ما هو النص؟ ما هو بنيان النص؟ كيف نبدأ تأويل نص؟ هل هناك ما يمكن أن يطلق عليه تأويلاً محايداً للنص؟

هل يكمن المعنى بالنص منتظراً أن يتم اكتشافه؟ ما هي العلاقة بين النص والقارئ؟

قد ينتمي القارئ لنفس ثقافة مؤلف النص وربما لا، وبداخل أي ثقافة يكمن عدد من العوامل التي تؤثر على فهمنا للغة التي استخدمت بالنص. هل القارئ معاصر للمؤلف؟ إن لم يكن كذلك، فالعلاقة ليست مباشرة، لأن النص تم تأويله في فترة زمنية وجد فيها التفسير طريقه للنص الأصلي. لا يمكن للقارئ أن يتجنب التأويل المتراكم حول النص، نحن نحيا في عالم التأويل. حين تنظر لساعتك على سبيل المثال وتقول: "إنها الظهيرة" فأنت تعبر عن ظاهرة طبيعية، لكنك في واقع الأمر تنظر لجهاز وتعلن أنه وقت الظهيرة، لقد تعلمت أن تؤول ظاهرة طبيعية مستخدما ساعتك.

اللغة التي نتحدث بها طبيعتها شفهية، لكن المكتوبة بصرية، في النهاية يشكّل الاثنان معًا علاقتهما بالحقيقة. ما هي العلاقة بين المبدأ والحقيقة أو المبدأ واللغة؟ يأخذنا هذا لمجالات أوسع مثل اللغويات (دراسة الخطاب البشري) والسيموطيقا (دراسة العلامات والرموز التي تتفاعل داخل اللغة).

أحد الأشياء التي اكتشفتها وأنا أعمل على أبحاثي في الولايات المتحدة الأمريكية هو أنه لا يوجد تأويل نقي للنص، أي نص معطى يحمل وجهة نظر معينة، في نفس الوقت القراء/ المفسرون للنص يحملون آيديولوجياتهم الخاصة التي تؤثر على فهمهم الخاص بالنص.

انقسم علم اللاهوت الإسلامي على نفسه مبكرًا حول خطين للتفسير، التفسير الحرفي والرمزي للقرآن، ادّعى كل منهما فكرة مختلفة عن طبيعة النص وكيف يتصل بالله، البشرية، اللغة والثقافة.

تعتبر الرؤية الرمزية للقرآن اللغة كاختراع بشري، فهي لا تعكس الحقيقة بشكل مباشر، لكنها تعكس الطريقة التي يستوعب بها البشر، وينظرون ويرمزون بها للحقيقة. استوعب المعتزلة هذا الأمر لأنهم استقبلوا القرآن كتعبير الله المخلوق وليس الأبدي. ينطوي مبدأ خلق القرآن على أن العلاقة بين اللغة (الرمز) والحقيقة (المرمز إليه) توجد فقط عن طريق التدخل البشري، لا يوجد شيء مقدس في هذه العلاقة، إضافة لذلك فالقرآن كونه منتجًا ثقافيًا وتاريخيًا لا يمكن فهمه بوضوح دون دراسة السياق التاريخي المميز الذي صاحب نزول النص. يتفق المسلمون على أن القرآن هو كلمة الله، لكنهم يختلفون حول ماهية القرآن ما بين نص أزلي غير مخلوق أم مؤقت مخلوق، وهذا الخلاف هو ما أدى للنزاع والجدل العظيم الذي استمر من ٨٣٣ وحتى ٨٤٨، وانتهى بانتصار رأي الإمام أحمد بن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥) ضد مبدأ خلق القرآن.

على الجانب الآخر فالتفسير الحرفي للقرآن الكريم يجعل من اللغة هدية إلهية وليس اختراعًا بشريًا. إن كلمة الله ليست مخلوقة، لكنها أحد صفاته الأزلية. حين يشير القرآن لشيء غير موجود في العالم المادي، يفهم من ذلك أنه موجود بعلم الغيب. يعتبر المفسرون الحرفيون أن القرآن قبل أن يتنزل على محمد وجد بالسماء، حيث تم تسجيله على لوح محفوظ بالحروف العربية كل حرف منها في حجم جبل قاف، حين تتأمل حرف القاف تجد دائرة صغيرة تقبع فوق يمين نصف دائرة كبيرة، هذا التعبير البصري بسهولة يعكس صورة كوكب الأرض. على عكس التفكير الكلاسيكي الإسلامي فأنا أنتقد هذه الفكرة، موضحًا أن القرآن هو منتج ثقافي اتخذ شكله في زمان

معين، وتاريخية القرآن لا تعني أنه نص بشري، ونتيجة وجود البعد التاريخي للنص نستطيع فهمه وتفسيره بسهولة. يجب ألا نشعر بالخوف تجاه تطبيق كل الوسائل المتاحة لنصل لمعنى النص، أما الكلمات الحقيقية لله فهي توجد بفضاء يتعدى المعرفة البشرية، في فراغ ميتافيزيقي لا نعرف عنه شيئًا سوى أنه ذكر بالنص.

إن رسالة الإسلام لم تكن لتؤثر على البشر في حال لو كان أول من استقبلوا الوحي لم يفهموا الرسالة، لكن لأن المجتمع استطاع بالفعل أن يفهم الرسالة، أنتج القرآن ثقافة جديدة. بشكل واضح، ظهر القرآن لأول مرة كنص في زمان و مكان معين له سياق ثقافي واجتماعي خاص به وبلغة معينة هي اللغة العربية، ومنذ هذا الزمان والمكان والفضاء وُلد نوع مختلف من الثقافة. لا بد أن نتذكر أن القرآن وصل إلينا من خلال مجتمع بشري تاريخي متغير، ولأن تفسير النص دائمًا يتداخل مع النص الأساسي، فإنه من المهم فهم كيف أن المجتمع الإسلامي الأول فسر القرآن، لكن يجب الا نتقبل استنتاجاتهم الأخيرة أو تفسيرات الأجيال اللاحقة لهم كحقيقة نهائية ومطلقة وكأنها نقشت بالحجر. بعد أن تُفَك رموز النص في ضوء أبعاد التاريخ والثقافة واللغة، لا بد أن يعاد قراءته في السياق الثقافي واللغوي الحالي، رسالة القرآن لا بد أن تكتشف ويعاد اكتشافها.

إن اعتبار النصوص الدينية ناتجة عن واقع تاريخي وثقافي معين ليست فقط مرفوضة، بل مكفرة من معظم العالم الإسلامي كونها فكراً إلحاديًا، فلقد تم قبول القرآن باعتباره النص الأزلي والدقيق المعبر عن كلمة الله العقيدة الأساسية في الفكر اللاهوتي الكلاسيكي. إن إنكار نصية القرآن

يؤدي لفهم متصلب وحرفي للنص يجمد المعنى الذي تحمله الرسالة. لا يوجد أبداً مساحة لإعادة تفسير القرآن بناء على الحقائق المتغيرة، لا وجود لأي اختلاف بين نص وروح الوحي المقدس، وحين يصبح معنى النص مجمداً تنشأ سلطة من نوع ما (الدولة، رجال الدين، السياسيون) بسهولة، مدعية حق الوصاية على الإسلام، وهؤلاء الوصاة هم من يفرضون أجندتهم الخاصة على القرآن، ليتلاعبوا بالنص المقدس بما يخدم أهدافهم.

أما الفهم الرمزي لكلمة الله يترك مساحة لإعادة تأويل الشريعة، لأنه فهم نابع من روح النص وليس حرفيته، وما يتبع ذلك منطقيًا هو أن المجتمع من خلال السلطة العامة يشعر بالحرية لتأويل وتطبيق الشريعة حسب الظروف الحالية.

حين أدرس القرآن والنصوص الدينية الأخرى، أحاول أن أكوِّن إطاراً علميًا محايداً لتحليل النصوص. يتكون هذا الإطار من جزأين، الأول هو إعادة اكتشاف المعنى الأصلي للنص من خلال وضعه في سياقه الثقافي والاجتماعي، والآخر هو محاولة إيضاح الإطار الثقافي والاجتماعي الحالي والأهداف السياسية التي تتحكم في التأويل القرآني. إن كل التأويلات تحمل بداخلها محتوى آيديولوجي، ومحاولة تفسير هذا نادراً ما يتسق مع المعنى التاريخي.

ينفي الخطاب الديني الحالي البعد التاريخي عن القرآن، مع اعتبار أننا يمكن أن نطبق الحلول التي نجحت يومًا ما في الماضي للمشاكل التي نواجهها حاليًا. أشعر دائمًا بالقلق لدى سماع آيات قرآنية تطرح كحلول للمشاكل الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية والثقافية الحالية في العالم الإسلامي،

وفي معظم الأوقات يفترض أن الآيات المذكورة هي في حد ذاتها برهان كاف، الأمر ليس بهذه السهولة.

تتحدث معظم الصور القرآنية عن الله كملك له عرش وجيش من الملائكة، ويتحدث البعض الآخر عن قلم ولوح محفوظ، هذه الصور لو فسرت حرفيًا ستؤدي لفهم أن الكون منظومته الاجتماعية هي الملكية، وربما يكون المجتمع الإسلامي الأول لم يصل سوى لفهم المعنى الحرفي للقرآن، ومن المتوقع أن يكون النص عاكسًا للحقيقة التي عاشها المجتمع الأول، هذا أمر طبيعي، لكنه من غير الطبيعي أن يظل الخطاب الإسلامي مع التقدم الاجتماعي على تشبثه بتفسير المجتمع الأول البدائي للنص.

يتخذ هذا التفسير شكلاً جامدًا غير مناسب للاحتياجات الحديثة. إن العديد من الآيات القرآنية تحمل بداخلها أهمية اللجوء للقراءة الرمزية، ففي واقعة حث المؤمنين على أن يقرضوا الله قرضًا حسنًا سيماد لهم أضعافًا مضاعفة، سأل اليهود بالمدينة النبي سؤالاً منطقيًا في ذلك الوقت: "كيف أن رب محمد وهو الذي حرَّم الربا يعد بإعطاء فوائد على القروض؟" ومن أجل إسباغ المنطقية، فإن التفسير الحرفي للنص - الذي يحرم الربا - لن يستقيم هنا. أرجع العديد من فهمي للهرمنيوطقيا للفرص التي قدمتها لي في أثناء فترة وجودي بالولايات المتحدة الأمريكية، لقد وسع هذا العلم رؤيتي، وهي الرؤية التي أتمنى أن يراها المزيد من المسلمين.

الفصل السابع

التجربة اليابانية

حين تسلمت دعوتي للذهاب إلى اليابان كأستاذ زائر في قسم اللغة العربية بجامعة أوساكا للغات الأجنبية، اغتمنت الفرصة. لم أتصور أنني سأكون بوضع يتيح لي أن أتحمل ثمن تذكرة السفر لزيارة مكان مثير كهذا، لذا كانت تلك أفضل فرصة لأذهب للشرق الأقصى. قضيت باليابان مدة تزيد على أربعة أعوام من مارس ١٩٨٥ حتى يوليو ١٩٨٩. النظام الياباني للتعليم العالي لديه سياسة خاصة بضرورة أن يوجد في أقسام اللغات الأجنبية لكل لغة أستاذ واحد على الأقل تكون اللغة التي يدرسّها هي لغته الأم، وقد تقلدت هذا المنصب الذي تناوب شغله من قبلي وبعدي زملائي بجامعة القاهرة.

لم ترهقني مهامي التدريسية في جامعة أوساكا كما كان يحدث بجامعة القاهرة. الفصل الممتلئ بأوساكا كان يعني أن عدد الطلاب ما بين سبعة وعشرين طالبًا حتى ثلاثين، ليس مائة كما الحال في مصر. درست فصلين في اللغة العربية المستوى الأول، فصل بالأدب وفصل بالفكر الإسلامي،

كما أشرفت على طالب واحد في رسالة الماجستير. لم يأخذني التحضير للفصل كل وقتي، اكتشفت أنني استمتعت بهذا الرتم الهادئ للحياة والذي أتاح لي السفر حول البلد. كما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية طورت مجال تخصصي وكنت قادراً على التركيز على كتاباتي.

أبهرني الطلبة اليابانيون، كانوا يعملون بجد وتفان، أيًا كان نوع العمل الذي أكلفهم به كانوا يكملونه دون شكوى. أحيانًا كنت أعطيهم فوق المائتي بيت من الشعر الكلاسيكي لقراءته بالإنجليزية. وعلى الرغم من أن الإنجليزية ليست لغتهم الأم، كانوا دائمًا على أتم استعداد، بل كانوا متظرين لتعلم المزيد والمشاركة. في صف اللغة العربية المستوى الأول لم يكن يعلم الطلاب شيئًا عنها. كانت لي تجربة مماثلة بمصر في تدريس اللغة العربية لطلاب من دول أخرى، ألمانيا، إنجلترا، فرنسا وحتى المكسيك. طبقت بعض من تقنيات التدريس التي تعلمتها بمصر مع طلابي باليابان وقد لاقت نجاحا. استخدمت لغة الجسد في بناء بعض المرادفات قبل استخدامها في جمل كاملة مثل "أنا مدرس" "اسمي نصر" "أنا من مصر" "كيف حالك؟" . بعد الشهر الأول كانوا قادرين على تكوين عبارات بسيطة أكسبتهم الشعور بالإنجاز، وهو ما شجعهم على المضي قدمًا في تعلم المزيد من المعلومات الأكثر صعوبة.

لم آخذ وقتًا طويلاً لأقيم علاقات مع طلابي اليابانيين، وهو الأمر غير المعتاد في نظام التعليم الياباني التقليدي. اليابانيون حريصون على وجود مسافة احترام بين الطالب والأستاذ، مسافة ليست بالكبيرة، لكنها بالقطع موجودة، يظل الطالب طالبًا والأستاذ أستاذًا. لم تختلف تجربتي مع الأساتذة

اليابانيين عما حدث بالولايات المتحدة الأمريكية. هناك كنت أستخدم وأستطيع مناداة أستاذي باسمه الأول، على الرغم من صعوبة هذا عليّ، فكنت أقف حين يتوجه إليّ أستاذ بالحديث، ولا أبدأ أبدًا محادثة وأنا جالس، كنت دائمًا أستخدم لقب بروفيسور. حتى أخبرني أحد أساتذتي: "لماذا تصر على أن تحادثني بهذه الطريقة الرسمية؟"، كنت الطالب الوحيد الذي يفعل هذا. أخبرته أنني أتفهم التقاليد الامريكية وأحترمها، بل أحبها، لكنني "لا أستطيع أن أناديك باسمك دون ألقاب". في اليابان تغير الأمر تمامًا في الاتجاه العكسي، حاولت أن أقيم جسورًا من العلاقات بيني وبين الطلاب الذين أدرس لهم، دعوتهم لمنزلي، وعرفتهم على الطعام المصري، واصطحبتهم لمسجد بكيوتو لحضور بعض الاحتفالات الرمضانية. كما نسقت مع الإمام هناك ليدعو طلابي لأحد الاحتفالات الكبيرة بالمسجد، وهو ما تحمس له، ووجد في ذلك طريقة عظيمة لدعوة الناس للإسلام. بالطبع لم يكن هذا هدفي أبدًا، الإسلام هو جزء من الثقافة العربية، ولا تستطيع أن تتعرف على الثقافة العربية دون أن تعرف شيئًا عنه، لذا كان منطقيًا أن يشترك طلابي في هذه التجربة، لقد خلقت الرحلة خارج الفصل واستقلالنا القطار معًا في الطريق للجامع مناخًا من القرب.

إن اليابانيين قادرون على التعبير عن مختلف المشاعر، وهو ما يتناقض مع الفكرة النمطية التي يأخذها عنهم الكثيرون بأنهم جامدون، هذا قناع، وقد تعلمت كم هو مهم هذا القناع أثناء حضور المسرح الكابوكي. هذا القناع يخفي مشاعر التي تظهر على وجه الممثل، فيصبح صوته هو الوسيلة التي يعبر من خلالها عن مشاعره. أحيانًا كنت أقف بالمسرح سبع ساعات

ولا أفهم شيئًا، حتى أدركت لاحقًا أن اليابانيين أنفسهم لا يفهمون اللغة التي تستخدم في الكابوكي، فهي لغة قديمة مندثرة، لكن كما في كل الحضارات فاليابانيون يستخدمون السيميوطيقا، لغة الإشارات.

في أثناء الحياة باليابان تغيرت رؤيتي، بدأت في التفكير بشكل مختلف، قرأت بنهم عن الثقافة اليابانية والتاريخ الياباني، كما زرت المعابد، لكن ليس في ثوب سائح. بحثت عن أناس يرتادون هذه المعابد يتحدثون الإنجليزية، كنت أسألهم وأسجل ما يقولون من إجابات. عشت بأحد المعابد ما يزيد على الثلاثة أسابيع. وفّروا لي غرفة ورحّبوا بي كمشارك في طقوسهم، لم يكن لديهم أدنى اعتراض على أن يرافقني طالب مصري يترجم لي ما يقولون. أكلت وجباتهم، وهي في معظمها نباتية، وفي اليوم الأخير قبل نهاية الثلاثة أسابيع، جاءني راهب المعبد وقال لي: "لقد كنت هادئًا في وجودك بيننا. أود لو أدعوك لتناول العشاء معنا، لا بد أنك تفتقد اللحم. هناك مطعم للمشويات ليس بعيداً عن هنا، ستكون ضيفي". أكلنا ولا أذكر أنني استمتعت بتذوق اللحم بهذا القدر في حياتي.

حين نتحدث عن الديانات اليابانية دائمًا نفكر في الشنتوية والبوذية، إلا أنه لا يمكننا التغافل عن وجود المسيحية في هذا الخليط. لقد كان هناك وجود مسيحي حي في اليابان منذ القرن السابع عشر (إرساليات التبشير المسيحية سافرت للصين والهند أيضًا). تعرفت على الديانة الشنتوية، الدين التقليدي باليابان، لدى وجودي بالمعبد، كما كنت قد قرأت عنها قليلاً. لكن بعد الحياة الفعلية في معبد، ترسّخت التجربة في وعيي، وأكسبتني ما لم أكن لأحصل عليه من أي قراءة.

تخرج أحد أصدقائي اليابانيين في جامعة القاهرة، درسنا معًا العديد من المناهج قبل التخرج، لكنه كان متعثراً بدراسته فلم نتخرج سويًا، تخرجت أنا وأصبحت معيداً فقمت بمساعدته ليجتاز امتحاناته، موشين أوجاسوارا. أحب أوجاسوارا الطعام المصري، وخاصة الملوخية، لذا كنت أقوم بدعوته لمنزلي لو تصادف وأعدتها والدتي. راق لوالدتي قدرة موشين على التحدث بالعربية، لكن أكثر ما أثّر بها هو أنه كان مبتعداً عن والدته منذ سبع سنوات. لذا أسبغت عليه من رعايتها وحنانها الأمومي، الشيء الذي كانت متأكدة أنه يفتقده بشدة. اليابانيون مهذبون للغاية، لو أخبرته والدتي: "موشين، يجب أن تأكل"، كان ليفعل ذلك حتى لو أصبح على وشك الانفجار. حين تآلف موشين معنا، أصبح يقول: "أمي أنتِ تقتلينني، حبك سوف يقتلني". لقد كان يسعدني جداً أن أرى والدتي تضحك، فهي لم تكن تضحك كثيراً، بعد فترة أصبح موشين من أفراد عائلتي.

حين ذهبت لليابان كان أول ما فعلت أنني بحثت عنه، ولم يكن صعبًا أن أجده، متجولاً بالجامعة يومًا ما سألت أكثر من شخص "أين أجد موشين"، لم يعرف أحد عن من كنت أتحدث، لكن فور قولي: "أوجاسوارا" عرفوه بسهولة. كان اجتماعنا مبهجًا، تحدثنا بالعربية واستخدمنا العبارات التي تعود للوقت الذي قضيناه سويًا بمصر، الوقت القصير الذي جعله جزءاً من عائلتي. اليوم التالي زارني موشين بأوساكا ليدعوني لزيارة قريته، مخبراً عائلته أنني كنت معلمه. حين وصلت لمنزله قدمني موشين محتفيًا بي لكل فرد من عائلته. لا أذكر أنني كنت مرحبًا بي

هكذا في أي مكان آخر، حتى في مصر. قضيت أسبوعًا بقريته القريبة من طوكيو، كان هذا الأسبوع قبل رأس السنة اليابانية، حيث كانت تضوي الاحتفالات. فتحت هذه التجربة أمامي نافذة أختلس منها النظر على حياة العائلة التقليدية باليابان. كان أكثر ما شدني هو الحب والاحترام الذي تعرضت لهما في منزل هذا الرجل المتواضع في قريته الأصلية، وهو الرجل الذي أدخل السعادة والضحك على حياة والدتي يومًا ما.

حين كنت في أوساكا كنت أمشي من منزلي للجامعة، ما يقرب من ساعة، لكنني اكتشفت أن هذا التمرين مفيد بالنسبة لي. أحيانًا كانت توجد النساء أمام منازلهن ينظفن الممرات، استوقفتني واحدة منهن يومًا ما، ومن خلال الإيماءات والكلمات البسيطة استطعنا التواصل. تعرفت على مصر حين أخبرتها أنها وطني، لكنها لم تعرف ما هي اللغة العربية حين أخبرتها أنني أدرسها، فتحدثت لها بالعربية، وأدركت هي أنني أدرّس لغة. اعتبرت تدريسي للغة العربية لـ"أولادنا" على حد تعبيرها هو معروف كبير، كما لو كنت في مهمة كبيرة باليابان. لا أذكر أنني حصلت على هذا القدر من الاحترام في أي مكان آخر درّست فيه.

أثناء وجودي باليابان كنت أستقل دومًا القطار كوسيلة انتقال، في القطارات المزدحمة لاحظت أن الرجال لا يقدمون مقاعدهم للسيدات، بل على العكس لو كان رجل وزوجته يسافران معًا في قطار مزدحم، فالرجل هو الذي سيجلس والمرأة تظل واقفة. في حادثة معينة صعدت القطار سيدة عجوز، وكان رد فعلي الطبيعي هو أن أقف وأعرض عليها مقعدي، تأثرت جدًا وظلت تتحدث لي باليابانية، لكن كل ما فهمته هو كلمة "شكرًا". حين

نرجلت من القطار أعطتني الكارت الشخصي الخاص بها، كان هذا تقليداً معروفًا، ورددت أنا بإعطائها الكارت الخاص بي. بعد شهر تلقّيت مكالمة هاتفية من ابنها، كانت إنجليزيته صعبة الفهم، لكنني فهمت أنه ابن هذه السيدة ودعاني هو لتناول العشاء معه. وافقت، وكانت الإنجليزية هي اللغة المشتركة بيننا، لكن المناقشة كانت محدودة للغاية، أتذكر انحناءاتي الكثيرة خلال العشاء.

بجانب الاستمتاع بحياتي هناك، التدريس للطلاب والتجول والخبرة التي حاولت أن أكتسبها، قمت بترجمة كتاب إينازو نيتوبي (بوشيدو: حياة الساموراي ١٨٦٣ ـ ١٩٣٣)[26] والذي كتبه بالإنجليزية. هذا الكتاب تحديداً خاصة يعرض الثقافة اليابانية التقليدية، ومع ترجمة الكتاب للغة العربية قمت بعمل لتحليل مقارن. في تخصصي، بعد حصولي على درجة الدكتوراه، ألّفت كتابي الأول "مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن"[27]، كما ألفت كتابي "نقد الخطاب الديني"[28] لدى وجودي باليابان، كنت أمتلك وقتًا هائلاً للتركيز على دراستي والتجول بالبلد.

تمحورت دراساتي بالولايات المتحدة الأمريكية حول علم الهيرمنيوطيقا، وهو علم تأويل النص. في اليابان أدركت أن التجربة الدينية اليابانية لا ترتكز حول نص، بل حول التجربة الشخصية. الدين يعبر عن

---

[26] Inazo Nitobe, *Bushido—The Way of the Samurai* (New York: G. P. Putnam, 1905)

[27] نصر أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠، القاهرة.

[28] نصر أبو زيد، نقد الخطاب الديني، دار سينا ١٩٩٢، القاهرة.

نفسه من خلال تأويل النص الفردي المنعكس على تصرفات صاحبه، ليس هناك عقيدة بالمعنى المتعارف عليه. يرتبك العديدون حين يسألون شخصًا يابانيًا: "ما هو دينك"، ليجيب بعد تردد: "ليس عندي دين"، فيصل السائل عادة إلى استنتاج أن الياباني لا يؤمن بشيء. هذا بالطبع غير صحيح، ليس هناك عقيدة محددة، هم يؤمنون بعدة أشياء، لكن حياتهم العملية لا تعتمد على نص محدد.

لا يعاني الياباني من الصراع بين التقليد والحداثة بنفس الطريقة التي يعاني منها الشخص الذي يتبع دينًا له نص مقدس، لا يوجد هذا التوتر بين الحداثة والتقليد في اليابان. في المنزل في المناطق الشعبية يصعب وجود كرسي للجلوس عليه عند عائلة يابانية، في حين أنه بداخل الجامعة يصعب القول إن هذه هي اليابان، فالتكنولوجيا بكل وسائلها الحديثة حاوطتني من كل ناحية. بينما كنت أركز على كتاباتي في اليابان، رأيت بوضوح أن المشكلات التي نواجهها مع الإسلام المتعلقة بمعنى النص المقدس لا يمكن أن تنطبق على التقاليد الدينية التي لا تعتمد على نص. لو أن الله قد تحدث، بشكل فعلي، تحدث حرفيًا، يصبح لكل حرف من النص دلالة إلهية. الحرفية تصر على معنى واضح وثابت للنص، وهو ما يصر عليه الأصولويون، ينقشون فهمهم للنص على الحجر. بالطبع غياب النصوص الحاكمة لا يعني أن الدين ليس معرضا للأصولية، فالأصولية لا تعرف الحدود الآيديولوجية، وتستطيع أن توجد بأي آيديولوجية دينية أو سياسية أو اجتماعية.

وعلى قدر ما يبدو مبدأ النص النقي جذابًا، فلا وجود لشيء كهذا، النص يتبلور وجوده من خلال عملية مستمرة. على الرغم من هذا يمكننا أن نتحدث عن الدين من خلال سياق نص ثابت، حيث المعنى المجمد، لكن من دون فهم كيف يكتسب النص للحياة، تجد الأصولية تربة سهلة للوجود. الاشتراكية كنظام سياسي على سبيل المثال يمكن أن تحمل طابعًا أصوليًا، فهي ترتكز حول نص ماركس، الاشتراكية هي آيديولوجية مرتكزة حول نص. اختلف الناس فقط حول كيفية تأويل ما قاله ماركس، ماذا كان يعني حقًا؟ اللحظة التي تنشئ فيها عقيدة من أي نص، أنت في خطر، حتى لو كان هذا النص هو نص أدبي مثل قصيدة. سلطة النص ليست مطلقة، لكنه يكتسبها من خلال من يهبونه هذه الأهمية، الأمر بهذه البساطة.

ولدت في ثقافة عربية إسلامية، أعرّف نفسي كمسلم، وكمثلنا جميعًا، أنا نتاج ثقافتي التي تشكلت بفعل القوى التاريخية والاجتماعية والسياسية. القرآن هو نص يقع في مركز هوية كل مسلم. بعد أن تركت اليابان عام ١٩٩٦ قاصداً مصر وبعدها لهولندا، اشتركت مع البروفيسور دايتر سينجهاس من معهد الدراسات الثقافية والدولية بجامعة بريمين في نقاش بعنوان "العالم الإسلامي والعصر الحديث"، نشر هذا النقاش لاحقًا في مسودة العيد العاشر لمؤسسة التطور والسلام[29]. سألني خلال هذا النقاش بروفيسور سينجهاس: "لماذا حتى أنت متشبث بالنص هكذا؟".

---

[29] Dieter Senghaas and Nasr Abu Zaid, "The Islamic World and the Modern Age" *in Development, Cultural Diversity and Peace: Visions for a New World Order* (Bonn: Development and Peace Foundation, 1996)

القرآن هو قلب الإسلام، وبالتالي السؤال الملحّ الذي يواجه المسلمون يدور حول طبيعة هذا النص. هل يحمل النص بداخله سلطة كامنة؟ ما هي العلاقة بين سلطة النص، سلطة المفسر، سلطة المجتمع ككل؟ هؤلاء من يصرون على تفسير حرفي للقرآن كما يفعل الأصوليون، يشتركون ـ بقصد أو دون قصد ـ في إرساء مبادئ التأويل من خلال إيمانهم بأن المعنى يكمن داخل النص، فهو شارح لنفسه. حين يتمحور دين حول نص مقدس، يصبح النشاط الفكري الديني محوره التأويل. هذا هو الحاصل بالنسبة للأديان التوحيدية الثلاثة، اليهودية والمسيحية والإسلام. الأديان الآسيوية لها نصوص، لكنها لا تملك سلطة كامنة بداخلها، فهي تتمحور حول التجربة الذاتية. بوذا على سبيل المثال لم يكن إلهًا أو نبيًا، كان حالة فردية، وبالتالي يستطيع أي فرد أن يصبح بوذا.

الشنتوية، الديانة المرتبطة بشكل أساسي باليابان، ليس لها نص مؤسس. لكن كيف يصبح لتأويل معين للنص المقدس (وكل ما سيفهم من خلال هذا التأويل) هو المقاربة الوحيدة الصحيحة؟ لكل نص سياقه الخاص، لقد أثرت القوى الاجتماعية والسياسية على ترتيب ومحتوى سور القرآن. حين أوحي لمحمد بالنص، تجاوب مع المشاكل الحالية التي تعرض لها المجتمع وجاوب على أسئلة معينة بخصوص هذه المشاكل.

لنأخذ مثال الربا، لماذا يحرم القرآن الربا؟ في المجتمع المكي كأي مجتمع، كان هناك من يبتز الفقراء والمستضعفين. الأنبياء مثل محمد كانوا صوت الأرامل والأيتام ومن لم يكن له صوت. استغلت النخبة الثرية هؤلاء من بهم حاجة من خلال ممارسة الربا. لذا كان التوجيه القرآني

بتحريم الربا يهدف لغاية معينة، ألا وهي حماية مواطني مكة الفقراء من استغلال النخبة الثرية، الهدف العام هو تحقيق العدل. لكي نفهم الدين، خاصة الأديان التي لها سلطة ونص مقدس، لا بد أن نبدأ بدراسة طبيعة النص. أحاول أن أخبر زملائي في مختلف أنحاء العالم الإسلامي بأن النص رسالة ليس لها سلطة بذاتها، نحن البشر من نكسب النص هذه السلطة. إن وظيفة عالم اللاهوت هي تطبيق مبادئ التأويل للنص من أجل اكتشاف معنى له. هل تشير هذه المبادئ إلى تفسير حرفي؟ تفسير رمزي؟ ربما الاثنين معًا؟ من خلال تطبيق الأدوات (اللغويات، علم المعاجم، السيميوطيقا) على النص ليعطينا المعنى، هذا هو العمل الذي أقوم به، ومضمون كتابي الرابع "نقد الخطاب الديني".

استخدمت عن قصد مصطلح "الخطاب الديني" بعنوان الكتاب وليس "الفكر الديني"، حيث تشير كلمة الخطاب إلى أي نوع من الخطاب المسموع أو المكتوب، بل والسلوك الاجتماعي أيضًا، لكن حين تتحدث عن الفكر فأنت تتعامل مع نية الكاتب، فمن الممكن لأي خطاب (سياسي، ديني أو إجتماعي) أن يوصل أفكار ليس لها علاقة بنية الكاتب. على الرغم من النيات الطيبة، قد يخلق الخطاب زوبعة كبيرة، فالخطب والكتابات والسلوك الاجتماعي يحملون المعنى بداخلهم.

حين بدأت في كتاب "نقد الخطاب الديني"، أردت أن أذكر الاعتبارات الموروثة في الخطاب الديني. ما هي نقطة البداية؟ ما هو ما يأخذه الناس على عواهله؟ اكتشفت أن الخطابين الديني والسياسي يتشابهان، كلاهما ينطلق من فرضيات غير مختبرة. الفرضية الأولى للخطاب الديني

هي أن السيادة الإلهية مطلقة، يتبع ذلك ثنائية أن الله يملك الحكمة والمعرفة، البشر جاهلون والله هو القوي، الناس ضعفاء، لذا فأي ما يأمر به الله يؤخذ حرفيًا. النص يتكلم بنفسه، فماذا تعرف أنت أيها الانسان الجاهل والضعيف على أي حال؟ بالإضافة لذلك، ينظر للناس على أنهم ماكينات من صنع المهندس - الله، وبما أن الله خلق الناس، فهو من يعرف بواطنهم وما يبدونه، والنص المقدس هو كتيب الإرشادات عن كيفية التعامل مع هذه الماكينة. يقع الناس على عاتقهم مسئولية تطبيق الإرشادات لحيواتهم، وأي تدخل يعبث بالماكينات يعرضها للتدمير. بالنسبة للمفكرين الإسلاميين الأصوليين، وهناك الكثير منهم يتصدر لهذا الخطاب بمصر، هذه هي تحديداً الصورة التي يملكونها. هم لا يرون في الناس كيانات اجتماعية نشطة في حوار مع الله، بل مجرد كائنات توجد في فضاء منفصل عنه، وعليه فاستخدام العلوم الاجتماعية لفهم القرآن بالنسبة لهم لا يتعدى كونه هراء.

أما الخطاب السياسي بالعالم الإسلامي فهو ليس بنفس حدة وجود الخطاب الديني، لكنه يتبع نفس النسق. هؤلاء من يمتلكون السلطة لا يستشيرون الشعب لدى اتخاذ القرارات التي تؤثر بحياتهم. يسأل الناس دائمًا: "لماذا لم تستشيرونا؟"، فيجيبون: "قرارنا يعتمد على حقائق لا تعرفونها"، فهم يملكون المعرفة في حين يفتقدها الآخرون. الرسالة الواضحة هنا هي "نحن نكتم المعلومات، وبما أنك جاهل بها فليس من حقك التظاهر، نحن نعرف ونبني قراراتنا على هذه المعرفة التي لا تملك الحصول عليها". هذا جد مثير للغضب، إنه إقصاء. في التعبير الديني يعبر الإقصاء عن نفسه من خلال تصور أن هناك جسراً غير قابل للعبور يوجد

بين الله والإنسان. في المجال السياسي تتحكم الصفوة بقوة في المعرفة والسلطة، أما من غيرهم فيطلق عليهم الجهلة. يستبطن العوام هذا الفكر، فمن المعتاد أن تسمعهم يقولون: "الحكومة تعرف أما نحن فلا". كما يظهر تباين توزيع السلطة في مناح أخرى، المدرس، على سبيل المثال، هو من يعرف، الطلبة هم الجاهلون. ماذا عن الأب؟ الأب يعرف وعلى الأبناء الطاعة. حين نأتي للنساء فهيكل السلطة يظل كما هو، وظيفة الزوجة هي طاعة الزوج، عليها أن تطيع إخوتها الأصغر من الذكور، هم رجال، ولأنهم رجال فالمفترض أن تجربتهم الحياتية جعلتهم يعرفون أكثر. معظم النساء لا تتاح لهم نفس الفرص لتجربة الحياة، لذا يبقين على جهلهن. هذا النوع من التفكير ينتشر بالمؤسسات ـ الاجتماعية، الدينية والسياسية، حين يسأم خطيب المسجد من الأسئلة يقول عادة: "لا تسألوا، فكثرة الأسئلة من قلة الإيمان". باستخدام الله كحصن يتلاعب الخطاب الديني بالناس. في المجال السياسي استخدام المعرفة كحصن للتحكم والسيطرة على الناس يجري بنفس الطريقة، في كل حالة يتم عن قصد إبقاء الناس في الظلام غير قادرين على امتلاك السلطة بأنفسهم.

إن استخدام المنهج النقدي في تحدي هذا النظام السلطوي القائم يهدد الوضع الراهن، والإقرار بأن المعرفة والتعليم لا بد أن يتاحوا مجانًا للجميع، وضرورة خروج النساء للحصول على تجربتهن الحياتية الخاصة يهدد بقلب نظام المجتمع رأسًا على عقب. بالطبع لا يريد الجميع أن ينقلب المجتمع، خصوصًا من هم معرضون للخسارة، هؤلاء من يملكون السلطة. أما الآخرون ممن تبنوا موقف المجتمع "الحكومة تعرف، أما نحن فلا"

سيخسرون شعورهم الوهمي بوضعهم الجيد والمصاحب لعدم انتقاد المعطيات المجتمعية. إن الثقافة العربية قائمة على الطاعة، من الطفولة يلقن الأطفال أن الطاعة فضيلة، لذا فمن الصعب، بل والخطر السباحة ضد هذا التيار. إلا أن الثواب ـ الحرية والاستقلال ـ بالطبع يستحقان هذا المجهود، لقد صارت كرامتنا، قيمتنا وبقاؤنا على المحك.

إن القول بتفاعل الناس تحت درجة من الحكم الذاتي يفضح من يملكون السلطة الدينية. الله، على النقيض، خلق الإنسانية بعد خلق الكون. الناس خلقوا في سياق، وفي ظل هذا السياق طوّر الناس مجتمعهم. أن تقول إن العالم يتحرك دائمًا كنتيجة لمشيئة الله، لا يعني أن الله يتدخل في كل تفاصيل هذا العالم. لو أن الله يتدخل في كل تفصيلة تحدث، لماذا يصر علماء الدين على الوعظ وإخبار الناس أنهم سوف يعاقبون لو تصرفوا ضد تعليمات الله ومشيئته؟ إذن لو أن الله يتحكم في كل تفصيل فعصيان الفرد متحكم به أيضًا. على الصعيد الآخر لو أن الله يتدخل ماذا حدث لمسئولية الشخص عن اختياراته الشخصية؟

إن تحدي الخطاب الديني والسياسي في مجتمع مسلم، ليس فقط مباراة ذهنية، لكنه محاولة لتهديد أساس المجتمع السلطوي من أجل بناء مجتمع يملك فيه كل فرد حق المعرفة والاختيار. حين أتوجه بالنقد للخطاب الديني التقليدي ـ وهو خطاب يتحدث بالنيابة عن الله ـ يكون هدفي هو بيان كيف يستخدم الخطاب الدين كوسيلة سياسية. الحكام يقدمون أنفسهم بعد الافتراض مبدئيًا بأن ـ السلطة الإلهية مطلقة ـ باستخدام الدين كوسيلة لفرض أفكارهم وتحصين سلطتهم. كلا الخطابين الديني والسياسي في مصر

يؤمن بالحق في الحكم، وكلاهما يستخدم الحقيقة لتبرير هذا الطموح.
الفرضية الثانية الموروثة في الخطاب الديني: معرفة التاريخ لا تؤثر على كيفية تأويل النص المقدس وتطبيقه في حياتنا. بأسلوب آخر، هذا الافتراض الثاني يهدف لمحاولة حل المشاكل السياسية، الاجتماعية والأخلاقية الحالية بإحياء الحلول التي عمد إليها المجتمع المسلم في عهد مضى، هذه الحلول كانت فعالة في وقت ما، وبالتالي فيمكن أن تكون فعالة الآن، هذه هي الدوامة.

تتفرع مشاكلنا الحالية ـ كما يقال لنا ـ من ابتعادنا عن الدين الإسلامي، والحل؟ العودة للإسلام. في عبارة "العودة للإسلام"، هناك معنى يتضمنه الحديث بأن الإسلام الذي مارسه المجتمع الأول كان نقيًا بشكل فقدته الأجيال التالية. كنتيجة لذلك ـ هل أجرؤ وأطلق عليه تفكيرا؟ ـ القول إن "الإسلام هو الحل" استولى على المجتمع الإسلامي (في شكل لا يختلف عن الملصقات التي رأيتها في الولايات المتحدة تقول "يسوع هو الحل") ما هو تحديداً السؤال؟ هؤلاء من يطلقون هذه المعادلة البسيطة كحل لكل مشاكلنا المعاصرة لا يقدمون خطة، كما لا يتحدثون عن أي نوع من الحل يرون أن الإسلام سيجلبه للمشاكل الاجتماعية، السياسية والاقتصادية التي تنتشر كالطاعون بيننا. إنهم يملأون الفجوة الزمنية بين الماضي والحاضر بإقرار بسيط أنه بما أن الإسلام قد حل مشاكل القرن السابع، فبالتالي يمكن أن يحل مشاكلنا اليوم. عن أي نوع من الإسلام نتحدث؟ حين نتحدث عن الحضارة الإسلامية اليوم لا بد أن نفهم أننا نتحدث عن شيء مختلف من الحضارات الإسلامية للقرن الثامن والتاسع. خلال هذه الفترة احتك المسلمون مع مجموعة من الحضارت المختلفة، الهندية، المصرية، اليونانية، واستفادوا من

المعرفة التي حصلوا عليها من الحضارات المجاورة وضمنوها في كيان الإسلام لينتجوا معرفة جديدة التي أنتجت الفلسفة الإسلامية واللغة وحتى الفقه، هكذا تطور الإسلام على مدار التاريخ. إن التفكير الذي يرى الإسلام كما فهم في القرن السابع هو نفسه مماثل لإسلام القرن الثامن، التاسع، العاشر والحادي عشر والقرون التي تلت يعكس فهما لتاريخ البشرية على أنه تاريخ ساكن لا يتغير. العديد من علماء الإسلام إما لا يعترفون أو يرفضون الاعتراف بتأثير التاريخ على الدين وبأنه دخل في تكوينه، فهم يفشلون في التفريق بين الإسلام كرسالة سماوية والإنسان. لقد عبّر الإسلام عن نفسه خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر منذ أن أنزل القرآن على محمد. يمتلك العديدون رؤية ثنائية للإسلام، فهناك الصورة النقية والصورة الملوثة.

أبو الأعلى المودودي (١٩٠٣ ـ ١٩٧٩) مؤسس الجماعة الإسلامية بباكستان قال إن الإسلام الحقيقي وجد خلال حياة الصحابة والخلفاء الراشدين الأربعة، ثم فسد نتيجة للتدخل الأجنبي اللاحق وتأثيره، بل يجتاز المودودي هذه الفكرة، ويقول إن التاريخ الإسلامي بأكمله فاسد لأن التأثير الغربي وصل لكل مؤسسات المجتمع. الوصول لهذه النتيجة يكون بإغفال حقيقة أن الإسلام هو ظاهرة تاريخية ديناميكية تتخذ شكلها من وضعها تحت قوى اجتماعية وسياسية معينة. إن الإسلام ليس ثابتًا، فهو مثل أي دين آخر تطور عبر الزمن.

كيف يتشكل معنى الإسلام بالنسبة لأفراد الأمة؟ حين يبدأ المسلمون بالاشتراك مع النصوص الأساسية ينتجون حلولاً مناسبة لمشاكلهم الحالية، حلولاً تتوافق مع احتياجات الأفراد والمجتمع على حد سواء. هذا الإنتاج

للمعنى لا ينتهي أبداً، الحياة تتدفق باستمرار، فتظهر مشاكل جديدة وتحتاج لحلول مبتكرة، ليس حلولاً قادمة من الماضي تفرض على مشاكل الحاضر. إن بقاء أي دين يعتمد على قابلية مجتمع المؤمنين على إنتاج خطاب ديني محدث وإعادة تفسير النصوص تبعا للحاجات الحالية، دون هذه العملية المستمرة يقضي على الدين.

جميع هذه الأفكار وجدت طريقها لكتاباتي وأنا باليابان. كما ذكرت، لم يكن جدول تدريسي مزدحمًا، فتوفر لي الوقت لكي يتطور تفكيري في اتجاهات معينة وينصب تركيزي على ما أكتبه. نويت في البداية البقاء باليابان لمدة عامين، لكنني وجدت نفسي سعيداً ومستقرًا، فأطلت بقائي عامين آخرين، ستكون فرصة رائعة لو استطعت الرجوع لهناك مرة أخرى. وأنا بالولايات المتحدة الأمريكية لم يمر عليّ يوم إلا وكنت أتوق فيه للعودة لمصر، لكن في اليابان وجدت نفسي أريد البقاء بها. لقد عرفت الكثير عن المسيحية وأنا بالولايات المتحدة الأمريكية كما يمكنك أن تتخيل. زرت الكثير من الكنائس هناك، كنيسة الولادة الجديدة للأمريكيين الأفارقة والكنيسة الخمسينية، بدا لي أنه في أي وقت أذهب فيه لزيارة كنيسة، اعتبرني الناس نموذجًا جديداً للتنصير، كنت أخبرهم بأدب: "شكرًا لاهتمامكم لكنني مسلم وسعيد بذلك، أنا هنا لمزيد من الفهم فقط"، فيخبرونني أن المسيح أحبني ومات من أجل التكفير عن خطاياي. عقدت صداقات مع العديد منهم، لكن لم يصبهم الوهن أبداً من المحاولات المستمرة لتنصيري. شهدت مراسم التعميد مع رجال الدين وهم يغطسون الناس في الماء لثانية أو اثنتين. قضيت أيامًا قبل الكريسماس مع العائلات الأمريكية التي كانت تستضيف

طلبة من الجامعة. عادة كانت النساء المسنات في تلك العائلات اللائي شكّلن فهمي عن كيف يمكن للمسيحي الجيد أن يتعامل، وهم من منعوني من التدخين. لقد تركت تلك العادة، إلا أن هؤلاء النسوة هن من أخبرنني بأن التدخين كان ذنبًا، بالطبع سألتهن عن وجود آية واحدة بالإنجيل تدعم ما يقلن، حاولن أن يأتين بأمثلة، لكن الآيات التي استندن إليها لم ترضني قط. ها نحن مجدداً مع النص، ماذا يقول النص؟ في اليابان استنتاج معنى من نص مقدس لم يكن قط مشكلة.

السفر بالخارج كان شيئًا فعلته بحماس من أجل التجربة وفهم الثقافات الأخرى. أي جزء يلعبه الدين في تشكيل هذه الثقافات؟ كيف تشكّل هذه الثقافات الدين؟ شعرت كطالب وباحث بالدراسات الإسلامية بالحاجة لمعرفة ممارسات الديانات الأخرى. أعرف دين الإسلام، فقد ولدت مسلمًا ومفهومي عن العالم شكل من منظور القرآن. أردت أن أوسع هذا المفهوم ليس فقط اعتماداً على المعلومات من الكتب، لكن من خلال جمع المعلومات من تجارب أناس يعيشون دياناتهم. تعلّمت ذلك في اليابان، كما تعلّمته في الولايات المتحدة الأمريكية، لكن التجربة لم تكن بهذا الثراء كما في اليابان. بالإضافة إلى أنني لم أشعر بفجوة ثقافية كبيرة بين مصر وأمريكا كما بين مصر واليابان. في مصر نشاهد كل الأفلام الأمريكية، كل الأنساق الأوروبية، لكن ليس لدينا مثل هذا التأثير الياباني.

لقد تشرّبت من الثقافة اليابانية ما استطعت، بل وتعلمت أكل الطعام الياباني. الطعام الياباني بالنسبة لمواطن مصري يعد شيئًا مقرفًا، المصريون معتادون على اللحم مثل الكباب وهو طبق دهني جداً، أما الطعام الياباني

فليس كهذا على الاطلاق، لا رائحة له كالطعام المصري، واليابانيون يحبون الرائحة الرقيقة لطعامهم. بعد وقت استطعت أن أتخطى الرفض المبدئي تجاه أكلاتهم، رأيت اليابانيين يستمتعون بوجباتهم فقلت لنفسي: "هؤلاء الناس ليسوا أغبياء، لا بد أن هناك شيئًا ما يعجبهم" . بالتدريج تعلّمت أن أقدّر الجانب الجمالي للطعام الياباني. وبدأت أقلّدهم في طريقة أكلهم، منتبها لطريقة عرض الطعام. بالإضافة فتوزيع الألوان في الطعام يوضّح منحى جماليًا. مع الوقت تعلّمت أن أتذوق الطعام بعيني وليس فقط لساني، إنه لمظهر تكريم واحترام أن يقدم لك كضيف وجبة من السمك النيء في اليابان، الأمر مماثل لذبح ذبيحة في العرف المصري أو السعودي. يجلب الناس أفضل ما عندهم، السمك النيء لا بد أن يكون طازجًا، فوجوده بالثلاجة أكثر من ساعة يجعل منه غير مقبول للتقديم، وحين يقدم المضيف هذا السمك الوجبة نفسها تكون كاحتفالية. هناك موسيقى تحاوط المكان، الألوان لا بد أن تكون متناسقة، وهناك بروتوكول يتبعه الجميع، هكذا يأكل اليابانيون. حين يتجاوز حد الشراب عندهم قليلاً يبدأون بالغناء ثم يبكون، لقد استمتعت بكل شيء خاصة بالدموع.

مع مرور السنوات التي درّست فيها باليابان نشأت رابطة قوية بيني وبين طلابي. حتى في تصرفاتهم اليومية لم يعبروا عن مشاعرهم تجاهي، كنت دائمًا حريصًا على معرفة مشاعرهم. حين وصلت للمطار في طريق عودتي لمصر بعد مضي أربع سنوات في أوساكا، وجدت كيف كانت هذه الرابطة العاطفية قوية. التقليد المتعارف عليه هو أن يستقبلك مسئولي الجامعة حين تصل لدولتهم ويصطحبونك عند الرحيل، أنت ضيفهم الذي

يحملون حقائبك. ما أثار دهشتي كان أن كل طلبة القسم - مائة طالب درّست لهم على مدى أربع سنوات - كانوا في انتظاري بالمطار مستعدين لتوديعي بشكل يبدو ملكيًا. وقفوا في صفين أمام مساحة البوابات التي أقدم بها جواز سفري للموظفين اليابانيين. ساد التوتر في المطار، ماذا يحدث هنا؟ ولدواعي سروري صنع الطلاب قلبًا كبيراً من الورق ووقّع كل طالب منهم عليه وكتب جملة بالعربية. ما زلت أحتفظ بهذا القلب في مصر، كما غنوا لي أغنية وداع يابانية وأنا ما زلت في منطقة البوابات. كان لا بد أن أقف، كل شخص بدا أنه وقف بالمطار، كان شعوري أنني أرحل عن بلدي، لقد أعطيت الكثير للطلبة اليابانيين، لكنني أخذت منهم الكثير. لاحقًا، قابلت بعضًا من طلابي في ألمانيا وأماكن أخرى بالعالم. كانوا يأتون لي ويقولون: "أنت لا تتذكرني، لكنني كنت تلميذك حين كنت تدرّس باليابان"، كان قلبي يدق كما لو كان على وشك الانفجار.

لقد وجدت أموراً متشابهة بين اليابان وثقافتي التقليدية، فهم لا يستخدمون الكراسي، بل يجلسون على الوسادات كما كنت أفعل بطفولتي في مصر. كما اعتدنا استخدام المرحاض البلدي بمكانه في الأرض وهو نفس المستخدم باليابان. صديق لي جاء لزيارتي وأنا باليابان ولم يستطع أن يجلس على الأرض أو أن يستخدم دورة المياه فسألني: "كيف تتصرف؟"، أجبت "إن الأمر تمامًا مثل طفولتي"، على الرغم من صعوبة أن أجلس بوزني الثقيل على الأرض واضعًا قدمي تحتي، لكنه وضع معروف لي، كمثل الذي نتخذه كمسلمين في الصالة. في جوانب كثيرة كنت أسعد بالتعليم في اليابان عما كنت في الولايات المتحدة الأمريكية، لم يكن هناك شعور بالاغتراب.

بالنهاية لم تكن مداركي لتتسع دون سفري للولايات المتحدة واليابان، اتسع منظوري نتيجة لأسفاري خارج حدود بلدي، وهو ما انعكس لاحقًا على كتاباتي.

الفصل الثامن

ابتهـــال

حين وقعنا أنا وابتهال في الحب وتزوجنا، شعرت بأن سفينة حياتي التي لطالما أبحرت بها قد وجدت أخيراً مرفأ ترسو إليه. منذ وفاة والدي عام ١٩٥٧ وأنا أشعر باليتم، الوحدة والحزن، دفعتني الظروف للتفكير دائماً بعائلتي وراحتهم، شيء شغل معظم وقتي وطاقتي. قضيت وقتًا قليلاً أركّز على احتياجاتي، حتى جاءت أخيراً تلك الليلة عام ١٩٩٢ ـ و ابتهال بجانبي ـ أطلقت كل الحزن المخزون بداخلي منذ يوم جنازة أبي، التي لم أبكِ بها، بل وشعر كل أقاربي وأصدقائي حينها بالقلق من فرط رباطة جأشي، وحين احتواني حبها، بكيت ما لم أستطع بكاءه طوال خمسة وعشرين عامًا ماضية.

زواجي بابتهال كان زواجي الثاني، وقع زواجي الأول عام ١٩٨١ بعد رجوعي من الولايات المتحدة الأمريكية بفترة وجيزة. كنت قد بلغت من العمر الثامنة والثلاثين، وطبقًا للعادات المصرية الأصيلة، كان يجب أن أكون متزوجًا منذ زمن. لذا مارست والدتي مع بعض أفراد العائلة ضغوطًا

عليّ من أجل أن أتزوج، واستسلمت بالنهاية. كانت شقيقتي الكبرى قد توفيت منذ وقت قليل، صدمة قاسية للعائلة، توفيت بدرية ولم تكن قد أكملت الأربعين من عمرها، حطم هذا والدتي وجعلها مكتئبة لا تتوقف عن البكاء، فكان أول ما سألتني عنه لدى عودتي من الخارج: "متى ستتزوج؟ كل أخواتك تزوجوا واستقروا، ماذا عنك الآن؟". رأت والدتي بعد أن انتهيت من مهمة تربية إخوتي، أنني يجب أن أستقر، وأنشئ منزلي الخاص. كانت هناك سيدة معينة بذهنها، ولم ترَ أي سبب يمنع إكمال هذا الزواج. أما أنا فلم أكن مهتمًا بالزواج، حاولت كسب بعض الوقت، فأخبرت والدتي: "الناس لا تتزوج في شهر، ولا شهرين. . الأمر ليس بهذه السهولة".

في أثناء وجودي بولاية فيلادلفيا، وقعت بغرام جانيت؛ فتاة أمريكية فخورة بتراثها اليوناني، تعمل كموظفة بنفس الجامعة التي أعمل بها. استمتعنا بصحبتنا معًا، أحيانًا كان الحديث والنقاش يمتد بنا لساعات الصباح الأولى. لم تتطور علاقتنا لتصبح جسدية، لم نتبادل القبلات، وحين تقدمت لها بعرض الزواج رفضت. . "على الرغم من أنني أحبك، لكن هذا لن ينجح"، هكذا شرحت موقفها، كانت تعلم أنني لست مرتاحًا للحياة بالولايات المتحدة، وما زال أمامي الكثير لأتعلمه، والأكثر لأراه، كل آمال التعليم المنتظر والمغامرة كانت لتتراجع لو تزوجنا. لقد عبّرت عن نضج لافت للنظر حين قالت: "لو أننا تركنا لعلاقتنا أن تتطور، كلانا سيعاني، لا أعتقد أنني سأستطيع الحياة بمصر، كما لا أستطيع ان

أصدّق أنك ستقدر على الحياة معي هنا بأمريكا، وأعرف أن لديك وظيفتك بمصر".

بقينا صديقين، أخبرتها مع رحيلي عن الولايات المتحدة بأنني سأراسلها، وقد فعلتْ، وقالت إنها سترسل لي بطاقات بريدية من وقت لآخر وقد فَعلَت، واحتفظت بها جميعًا، ثم توقفت عن إرسال المزيد عندما تزوجت عام ١٩٨١. علاقة الحب التي جمعتني بجانيت أثرت مفهومي عن فكرتي الحب والارتباط، عرفت كيف تختلف تلك المفاهيم من ثقافة لأخرى. الآن، وعائلتي تقوم بدفعي ناحية الزواج، لم أستطع سوى المقارنة بين علاقة الحب مع جانيت هناك وعلاقات الحب والزواج بمصر. في مصر الزواج دون حب ليس كارثة، يكفي أن تتعرف العائلات على بعضها البعض، وتوافق على الزواج. يأتي بعد ذلك جهد المجتمع في توفير الروابط الكافية من أجل الإبقاء على مؤسسة الزواج. أمّا بالولايات المتحدة، هناك مرحلة المواعدة، والتي تعني محاولة معرفة المرأة، في البداية أنت لا تعرف سوى القليل عنها، وأقل عن عائلتها، إنها علاقة متبادلة بين أخذ وعطاء، رقصة مشتركة بين فردين. أحببت هذه الطريقة في اكتشاف شخصية المرأة التي أمامي، قبل اتخاذ قرار الزواج.

مع استمرار ضغط والدتي عليّ لأتزوج، فكرت كم أود أن أمارس خطوات الارتباط والزواج كما رأيت بالولايات المتحدة. لكن حين اتضح أن زواجي صار أمرًا مفروغًا منه، أخبرت نفسي بأن الزواج التقليدي ليس بهذا السوء، يمكنني أن أتأقلم. وكانت أحلام ـ المرأة التي ستصبح زوجتي ـ أحد معارفي، تعمل بجامعة القاهرة مع أختي كريمة.

تقابلنا أنا وكريمة وأحلام وعائلتها، واتفق الجميع على أن زواجنا هو القرار المثالي. أردت أن أكون صريحًا مع أحلام حول مشاعري ناحيتها، وفي يوم كنا بمفردنا، تحدثت إليها بكل صراحة: "أحلام، نحن على وشك الزواج، لا أعرف على وجه الدقة أن كان هذا الزواج سينجح أم لا، أعتقد أن الحب يمكن أن ينمو بيننا، لكن إن حدث في أي وقت شعرتِ به أن هذا الزواج لا يمكن أن يستمر، رجاء أخبريني وأعدك أنني سأفعل معك المثل". أربكها ما قلته، وزاد ارتباكها حين أخبرتها تكراراً أنني لا يمكن أن ألتزم حيالها للأبد: "لا يمكن أن نتحدث عن مستقبل أبدي". كانت في الثامنة والعشرين من العمر، شابة تقليدية لا تملك إلا القليل من الخبرة الحياتية تريد أن تتزوج، "لطيفة" هو الوصف الأمثل لها.

تحدثت معها عن الحب، الالتزام، الطبيعة البشرية والتغيير، أردتها أن تعرف كيف أفكر. قالت ببساطة: "لا أفهم شيئًا مما تقول"، فأجبت: "ببساطة، أنا لدي كل النية لأن أحبك"، صرحت: "لكنني أحبك بالفعل"، أجبت: "أشكرك جداً، لكن كيف تحبينني؟ ماذا تعرفين عني؟". حين أتأمل المشهد كله من جديد، أعتقد أن فكرة الزواج هي التي أسعدتها، لم تكن هوية العريس بالنسبة لها في نفس أهمية دور الزوجة الذي أرادته، ظللت أخبرها: "الحب ليس شيئًا مضمونًا للأبد، لا يوجد شيء كهذا، الحب مثل الحلم. يمكن أن يموت"، واستمررت في طمأنتها بأنني سأفعل ما بوسعي لإنجاح هذا الزواج.

ذهبنا لليابان عام ١٩٨٥ بعد أن قبلت منصب أستاذ زائر بقسم اللغة العربية بجامعة أوساكا للغات الأجنبية. عشنا معًا أربع سنوات باليابان،

وتطورت المشاكل بيننا. في مصر كانت هذه المشاكل تذوب بسهولة، كان لي أصدقائي وكان لها عائلتها، لكن بالرغم من ذلك، كانت تشكو من قضائي معظم وقتي مع طلابي: "طلابك أهم عندك مني"، كما أننا لم نرزق بأطفال قط، وعلى حد علمي كانت هي قادرة على إنجاب الاطفال، لكن حين استشرنا إخصائي خصوبة بمصر بعد زواجنا بفترة، اكتشفنا أن حالتي هي التي لا تساعد على الإنجاب لقلة عدد الحيوانات المنوية، وكان هذا هو السبب.

أتذكر أن الطبيب سألني: "ماذا تعمل؟"، أجبت: "أعمل أستاذاً بجامعة القاهرة مثلك". كان رجلاً صريحًا وواضحًا في حديثه معنا، إذا قررنا محاولة الإنجاب فالطريق لن يكون سهلاً؛ "إنه طريق طويل، مظلم ومكلف جداً، وبالنهاية لا توجد ضمانات"، وأساتذة الجامعة بمصر لا يكسبون الكثير. سألتني والدتي: "متى سنستقبل ولي العهد؟"، ولأن العديد من المصريين، حتى المتعلم منهم، يعتبرون أن المرأة تتحمل المسئولية الكاملة لو لم يحدث الإنجاب، لم أكن أريد لأي شخص - خاصة من عائلتي - أن يلقي باللوم على أحلام، فأجبتها: "لن تستقبلي حفيدك من زواجنا، لأنني طبيا غير قادر على الإنجاب"، وتركت الأمر عند هذا الحد. أصدقك القول لم أشعر يومًا بالخجل ولا الأسف أنني لم أستطع الإنجاب. بزواجي عام ١٩٨١ شعرت بأنني بالفعل قد حصلت على أبناء وربيتهم، كان أبنائي هم إخوتي الصغار. شعرت بأنني كنت أبًا للعديد من السنوات، وحقيقة لكم أنهكني هذا الدور، لم أكن أريد أن أسلك هذا الطريق مرة أخرى. شرحت كل هذا لأحلام، ربما اقتناء كلب أو أي حيوان

أليف يمكن أن يملأ الخواء الذي تشعر به، كما عرضت عليها الانفصال، فربما مع زوج آخر يمكن أن تنجب. بالنهاية فكرة الطلاق كانت خطوة كبيرة بالنسبة لها، فقد دام زواجنا لفترة.

في أثناء حياتنا معًا باليابان، بدا واضحًا أننا نحيا عالمين مختلفين. أزعجني هذا، وأردت أن أشركها معي في شيء ما، لذا طلبت منها حين كنت أعمل على كتابي "مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن" [٣٠] أن تكتب محتوى الكتاب على الآلة الكاتبة، فلم تكن أجهزة الكمبيوتر ظهرت بعد. فعلَت، وكتبت الكتاب، لكنها لم تقرؤه، لم تتفاعل مع النص الذي كتبته، فارتكبت الكثير من الأخطاء المهملة في طريقها. تمنيت أنه من خلال كتابتها للكتاب الذي يحتوي على بحثي، أن يفتح هذا بابًا لقاعدة مشتركة للمناقشة بيننا، لكن لم يسر الأمر كما تمنيت. زرنا معًا عددًا من المتاحف والمزارات التاريخية، كانت تستمتع بوقتها في هذه النزهات، لكن لا شيء مما رأته في تلك الأماكن استولى على اهتمامها لتندمج في موضوع ما، فكانت تفضل أن تقضي يومها في التسوق.

لقد كنا معًا لكنّ كلاً منا في وادٍ، أصبحت الحياة متوترة وصعبة، لم أكن أريد أن أحيا هكذا، لكن استمراري كان محاولة للتأقلم بأفضل ما أستطيع في مواجهة إحباطنا المشترك. حين عدنا لمصر عام ١٩٨٩، استمرت المشاكل التي عانينا منها في اليابان في التضخم، فقد ارتباطنا قدرته على الاحتمال، وكانت حياتنا على وشك الانتهاء. ألقيت بنفسي في مهامي

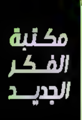
---

[30] نصر أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠، القاهرة.

بالجامعة، أشرفت على عدد كبير من الطلاب، وصارت أحلام غيورة من الوقت الذي أقضيه مع طلابي من طلبة الماجستير والدكتوراه، وأتهمتني بأن سلوكي ليس ملائمًا تجاه البعض وذكرت أسماء، كلهن كن من النساء والجميلات أيضًا، شرحت لها: "إن هؤلاء الطالبات مثل بناتي، بعضهن ذكيات نستمتع سويًا بالمناقشات التي تجري بيننا"، وقد كنّ في غاية التهذيب والاحترام في تعاملهن معها، كما هو المتوقع.

بدأنا نبتعد أكثر فأكثر، سافرت مع عائلتها للمصيف، انتظرت أن أصطحبها: "لا، لن أستطيع أن أقضي وقتًا طويلاً بعيداً عن الجامعة، لدي طلابي وأبحاثي"، قالت: "لا، لا، يجب أن تتصرف كزوج محترم وتأتي معي"، هكذا كانت تنشأ الخلافات بيننا. في النهاية وجدتني أقول لها: "أنا أبذل قصارى جهدي هنا لأشرح لكِ دوري مع طلابي. إنه ليس كما تتصورين، لقد كنت أبًا طوال حياتي، وهؤلاء الطلبة هن بناتي لا أكثر". لم تستوعب أحلام هذا، وحاولت عائلتها تصحيح بعض الأمور بيننا، وكانوا يتساءلون: "كيف بعد زواج دام عشر سنوات، لستِ قادرة على الاستقرار معه؟".

انفصلنا، لكن بقينا معًا في نفس الشقة، فالقاهرة تعاني من مشكلة إسكان كبيرة، وبدا هذا الحل عمليًا. لسبب ما لم يرد أو يستطع أي منا البدء بإجراءات الطلاق، في العالم العربي من السهل أن يعيش الزوجان منفصلين لكن معًا، فالصورة التي تصدّر لعائلتك وزملائك أنكم زوجان سعيدان، لكن هذا النمط من الحياة لم يصمد طويلاً.



تقابلت أنا وابتهال في هذا السياق عام ١٩٩١ بعد عامين من عودتي لمصر من اليابان. كنا قد تقابلنا قبل ذلك في مناسبات عدة، كانت مدرّسة مساعدةً في قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب جامعة القاهرة، سافرت لفرنسا وقت ذهابي لليابان، كنا زميلين. في ١٩٩١ قررت جامعة القاهرة إقامة مؤتمر كبير عن طه حسين، مجدد الفكر العربي. كانت ابتهال في اللجنة المنظمة للمؤتمر، وكنت أحد المشاركين. يعامل معظم أساتذة الجامعات من الذكور في مصر النساء، خاصة في اللجان المنظمة للمؤتمرات كالخادمات، وبنوع من العجرفة يكررون أسئلة من نوعية "أين دورة المياه؟"، "هل لديك قلم؟"، لكن ابتهال لم تكن لتتحمل هذه النوعية من الأسئلة، فكانت تجيب: "لا تسألني!". في هذه المرحلة من حياتي المهنية كنت قد حضرت المئات من المؤتمرات العلمية، وكنت أعرف كيف أحتفظ بالأوراق والأقلام والكتب معي، لم أكن في حاجة إلى أن أزعجها أو أزعج أي شخص باحتياجاتي، لاحقًا مع توطد العلاقة بيننا، أخبرتني أن عدم ازعاجي لها هو ما لفت انتباهها ناحيتي.

في هذا الوقت كان اسمي قد بدأ في الانتشار بمصر، ظهرت الطبعة الأولى من كتابي "مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن" في القاهرة عام ١٩٩٠. الكتب التي كتبتها عن المعتزلة وابن عربي طبعت ببيروت، لكن كتابي عن القرآن هو ما نشر بالقاهرة، وتم استقباله بشكل جيد - على الأقل في البداية. كل أسبوعين كنت أجري مقابلة مع صحيفة أو مراسل لمجلة ما، لذا خلال مؤتمر طه حسين توقعت ابتهال مني كأستاذ في الجامعة، ومؤلف على بداية طريق التحقق، أن أكون متطلبًا مثل معظم الأساتذة. لاحقًا

حضرت ابتهال محاضرة لي ألقيتها خلال المؤتمر، ثم طلبت مني نسخة منها، أعطيتها إياها، وكانت هذه النهاية كما تصورت في ذلك الوقت. في ختام المؤتمر أقمنا احتفالاً من أجل تراث طه حسين، وقررت اللجنة المنظمة حينها إقامة حفل عشاء فوق باخرة على النيل، كان احتفالاً مبهجًا، تبادلنا خلاله أنا وابتهال المزاح فوق سطح المركب ناظرين للنجوم وقد توافقت شخصيتها الذكية خفيفة الدم مع شخصيتي جيداً.

اتصلت بي ابتهال بعد المؤتمر بفترة قصيرة قائلة: "قرأت مقالة في الجريدة عنك، المحرر الذي قابلك كتب: مفكر عظيم، لكن ما زال شابًا، سأوافق على مفكر كبير، لكن شابًا؟ هذه مبالغة". أعجبتني طريقتها، فأصبحنا صديقين، بعد أن انتهت من قراءة نسخة من محاضرتي، قامت بزيارتي في مكتبي، كتبت بعض التعليقات في هوامش الورقة البحثية، وكانت التعليقات بداية لمناقشات قادمة، وبدأنا نتقابل بعدها مع استمرار مهامنا بجامعة القاهرة. في تلك الأثناء لم تتوقف مشاكلي المنزلية، لكنني افتقدت الشجاعة لمواجهة الأمر، أعترف بذلك، فقد مضى على زواجنا عشر سنوات، أمضيناها في نفس الشقة ـ لم أمتلك بيتا أبداً ـ لكننا لم نكن سويًا، كنا منفصلين. في مصر لا يلاحظ أحد لو أن رجل و زوجته انفصلا، إلا إذا تحدثنا عن هذا الأمر علنا أمام الجميع.

بعد عودتي من اليابان كنت قد ادخرت بعض الأموال واشتريت بها شقة جديدة، أكبر في مساحتها، وانتقلنا لها. تصورت أحلام أنه بما أنني اؤسس منزلاً جديداً، فهذا يعني أن حياتنا بمنأى عن الهدم، ورأيت أنه بما أننا أمضينا أربع سنوات معًا باليابان، فيحق لها جزء من الأموال التي

حصلت عليها، لكنها حين أدركت أنني أردت الانفصال، تعجبت: "لماذا؟ ألم نشتر بيتًا جديدًا؟". تملكتني الشجاعة أخيرًا لأخبرها: "لدينا مشكلة، وهذه المشكلة لن تحل وحدها. لديك عالمك ولدي عالمي، ولا يوجد مساحة مشتركة بينهما. أنا آسف هذه الحقيقة".

إن قرار الطلاق بمصر قرار خطير، ليس فقط على الزوجين، لكن على عائلاتهما أيضًا، في حالتنا الخاصة لم تخرج مشكلاتنا من بيننا، فلم أتكلم عن أحلام قط أمام عائلتي ولا أمام زملائي، وللأسف، فإن تحدث الرجال عن "غباء" زوجاتهم هو أمر عادي ومنتشر في مصر، لكنني لم أفعله قط، هذه ليست طريقتي. لم يعرف أحد عن ما حدث بيننا إلا عائلتها، أما على حد معرفة زملائي فقد كنت أسعد زوج بالعالم.

كنت في حاجة ماسة للتحدث مع ابتهال عن مشاعري نحوها، لكنني على الفور مارست رقابة على تفكيري: "لا لا تفعل هذا بها"، قلت لنفسي: "إنها صغيرة، مثل ابنتك، لا تفعل هذا"، لكن ما إن تقاربت المسافات بيننا في الفصل الدراسي التالي، وجدنا أنفسنا أكثر قربًا يومًا بعد يوم وأسبوعًا بعد أسبوع. كانت ابتهال تسألني من حين لآخر: "لماذا لا تبدو سعيدًا؟ نعرف أنك لا تعاني من أي مشاكل، لكن على الرغم من هذا تبدو حزينًا. ما خطبك؟.. "إنه أمر غير متعلق بحياتي حاليًا"، كذبت: "إنها أحداث تتعلق بطفولتي. المشاكل تبدو موجودة دومًا قرب السطح".

زارتنا ابتهال في المناسبات بالمنزل، أحلام كانت تعرفها، وحين توفي والدها قمت بزيارتها أنا وأحلام، وقدمنا تعازينا لعائلتها. هكذا أصبحت ابتهال صديقة للعائلة، هذا الشخص الذي ترحب به أحلام في دائرة

الأصدقاء، ولأنها لم تعتبر ابتهال امرأة جميلة بالمقاييس المجتمعية السائدة، لم تشعر بالغيرة نحوها، كما فعلت مع طالباتي الأخريات. لم تستطع احلام أن ترى ابتهال كما رأيتها أنا، في جمالها وقوة شخصيتها. عوضتني صداقة ابتهال الكثير، وغذتني من خلال الذهاب سويًا لكل الأماكن المثيرة للاهتمام. ها هي امرأة أستطيع أن أتحدث معها عن الأفكار والمبادئ وعن الحياة. لم أرد أن أدمر صداقتنا بالبوح عن مشاعري نحوها، لم أجرؤ على ذلك. أصررت على أن أحافظ على الرضى بصداقتنا، ونسيان أي شيء أكثر من هذا، لكن هذا لم ينجح.

يومًا ما كنا ننتظر أنا وابتهال بعض الأصدقاء أمام بوابة جامعة القاهرة، حين تأخروا قررنا الرحيل، كان الجو خريفيًا جميلاً في القاهرة، وكنا نتبادل الحديث كعادتنا دومًا: "إنه أمر غريب يا ابتهال. لديك الكثير من الأصدقاء لكنك لست متزوجة أو مخطوبة. هل هذا صحيح؟

"نعم صحيح".

"غريب، ألم تتزوجي قط؟".

سألتني: "هل لديك شخص ما بذهنك؟ هل أصبحت خاطبة الآن؟".

"ربما"..

"حسنًا، أظهر كروتك"..

"ماذا عن شخص مثلي؟"..

"شخص مثلك أم أنت؟"..

"أنا" . .

"موافقة" . .

"أنا لا أمزح" . .

"و من قال أنني أمزح؟" . .

"هل تعنين هذا؟ إن كنتِ لا تعنيه فاسحبيه" ، لم أستطع تصديق أنها جادة .

"نعم أعنيه" . .

"لكنكِ تعرفين أنني متزوج بالفعل" . .

"أعرف، لكنني أعرف أيضًا أنك لست سعيدًا، وأنك منفصل عن زوجتك" . .

"كيف عرفتِ ذلك؟" . .

"أنا أعرفك منذ عام حتى الآن، وأعتقد أنني أستطيع قراءتك، أعرف أنك لست سعيداً، لقد زرت منزلك وتقابلت مع زوجتك، إنها سيدة لطيفة، لكنني أعرف أنك لست سعيداً" ، لقد قرأتني ابتهال بالفعل. هذا ما حدث بيوم خريفي أمام بوابة جامعة القاهرة عام ١٩٩٢ ، لم يستغرق أكثر من بضع دقائق. . "لا بد أنه كان هناك تيار يسير بيننا منذ بعض الوقت" . . هل بالفعل كان هذا خبراً جديداً على ابتهال؟

"نعم، نعم، وقد تعجبت لماذا استغرقك كل هذا الوقت لتخبرني" . .

"ربما لأنني أعتقدت أنني لا أستحقك".

على الرغم من أننا كنا - وما زلنا - متوافقين عقليًا وفكريًا، إلا أنني شعرت أنني لا أستحقها، كانت أصغر مني بخمسة عشر عامًا، عمر يوازي عمر أختي الصغرى آيات التي ربيتها، إنها بمثابة ابنتي. شعرت فجأة بالتقدم في السن، لم يكن الأمر له علاقة بالأرقام، لكنه شعوري إزاء الخبرة التي حصلت عليها في فترة تسعة وأربعين عامًا وكانت كفيلة بملء عدة حيوات. لكن ها أنا اعترفت بأنني غارق بحب امرأة ليست زوجتي، وكانت هذه هي الدفعة التي احتجتها للبدء بإجراءات الطلاق، وهو ما كان في حد ذاته صعبًا.

اقتربت من أحلام شارحًا لها أن الوقت قد حان لننفصل: "لقد وعدتك أنني سأخبرك لو فكرت في أن زواجنا ليس ناجحًا. الآن هو هذا الوقت، لقد وقعت بالحب"، سألتني فورًا: "من هي؟"، ثم ذكرت بضعة أسماء، لم تكن ابتهال على قائمتها. حاولت إبقاء أمر الطلاق قيد الكتمان، لكن أحلام لم تفعل المثل. تفهمت عائلتها موقفي، وحاولت التنازل لأجعل من الاتفاق عادلاً. نقلت لها قانونًا الشقة الجديدة التي حصلنا عليها بكل الأثاث التي تحتويه، واشتريناه سويًا، لم تطلب هي ذلك، لكنني أعطيته لها. وعلى الرغم من أننا اقتسمنا المال بيننا، فإن أحلام كانت غاضبة وشاعرة بالمرارة. أخبرتها أختها: "على الأقل كان الرجل صادقًا معك، لم يلتف من وراء ظهرك مثلما يفعل الكثير من الأزواج. طلاقك كان علامة احترام لك، لقد كنت شريكته لعدد من السنوات، وقد أعطاكِ تسوية كريمة". موضوع الطلاق بأكلمه كان صعبًا علينا جميعًا، لا

أعرف إن كانت أحلام تزوجت مرة أخرى أم لا، لقد فقدت التواصل معها منذ أن وقع الطلاق عام ١٩٩٢.

بدأت حياتي مع ابتهال من الصفر، وبدأت مشكلتي مع جامعة القاهرة عام ١٩٩٢. لا أعرف كيف كانت أحلام لتتصرف تجاه السيناريو الذي حدث، والذي أدى لنفيي خارج مصر. هل كانت لتفهم ماذا كان على المحك؟ ابتهال دعمتني خلال المحاكمة، كراهية المصريين، الاتهام بالردة والإلحاد، التهديد باغتيالي، وبقية أحداث القضية. لكن القول إنها دعمتني سيكون اجتزاء للقصة، فالقضية أصبحت قضيتنا، ليست قضيتي وحدي، لقد أصبحنا شريكين، وتحملنا الأحداث معًا، وحكم المحكمة الذي أبطل زواجنا أذاها هي أكثر مني.

حينها دُعيت ابتهال لحضور مؤتمر العالم الرابع عن النساء الذي عقد في بكين، الصين، سبتمبر ١٩٩٥، لم تستطع الحضور فبعثت برسالة فورية ومؤثرة للمجموعة، تتحدث فيها عن الاغتصاب. ذكرت أنها اغتصبت ربما ليس جسديًا، لكن معنويًا، التجربة كانت حقيقة ومؤلمة، "من أجل أن يعاقبوا زوجي، حاول الإسلاميون أن يحرموه مني، فأنا في نظرهم أداة للمتعة". لقد كنت وما زلت غاضبًا من تدخل المحكمة في زواجنا، كان جرح ابتهال عميقًا، لكنها استطاعت أن تجد لنفسها وسائل تنتج من خلالها وهي تعيش معي بالمنفى، فنشرت عدداً من الأوراق البحثية في دوريات فرنسية وإسبانية في أثناء وجودنا بهولندا.

عملت ابتهال بالمنزل على تطوير أفكارها، وشاركت في العديد من المؤتمرات في فرنسا وإسبانيا وحتى بمصر، كما قدمت ونحن هناك على درجة

الأستاذية بجامعة القاهرة، وهو ما يجيزه القانون المصري حتى في حالة إجازة التفرغ. حين يصل الأساتذة الجامعيون بمصر لسن للستين تتم رسمياً إحالتهم للمعاش، إلا أنه يمكنهم الاستمرار في العمل بالجامعة كأساتذة متفرغين، لكن دون تدريس أي مقررات لطلبة بمرحلة ما قبل التخرج، وبين سن الستين والسبعين يدرّسون لطلاب الماجستير والدكتوراه ويشرفون عليهم.

مُنحَت ابتهال درجة الأستاذية، أحد الأشياء المميزة بقسمها أن كل أعضائه من النساء. لقد ساندنها، وأبقينها على اطلاع بالتطورات التي حدثت منذ انتقالنا لهولندا، ولم يشكل لهن صغر سنها أي فارق، فأشركنها في كل مناقشات القسم والسياسات الجديدة، لم تفقد قط الإحساس بالانتماء لزميلاتها في القسم، وكان هذا بالطبع عكس ما حدث معي. طلبت لاحقًا رئيسة قسم اللغة الفرنسية من ابتهال أن تعود لجامعة القاهرة لتدريس تيرم واحد كل عام، "أنت الآن أستاذ في مجالك، وكما تعملين طبقًا للقانون، لا يدرّس الأساتذة الأكبر سنًا للطلاب في مرحلة ما قبل التخرج، فمن فضلك احضري".

ترددت ابتهال في القبول، فمنذ وجودنا بالمنفى تحدثنا حول الكيفية التي يمكن بها أن تستكمل مسيرتها المهنية، لم أفكر أبدًا أن تخليها عن مهنة التدريس سيكون الحل الأفضل لها، ولا يعني أنه لكوني غير مرحب بي للقيام بالتدريس في جامعة القاهرة، أن عليها أن تعاني نفس المصير. بداية قبل مجيئي لهولندا كنا نخشى النتائج الدرامية المحيطة بقرارنا بترك مصر، وكان لبقاء ابتهال بجامعة القاهرة أن يرسل الرسالة الخاطئة لهؤلاء المتربصين

بإخراسي ومراقبتي، واستمرارها في التدريس بمصر، كان ليجعلنا نحيا في بلدين مختلفين، وهو ما سيظنه الناس انفصالاً، ولم يكن أي منا الرغبة بإعطاء هذا الانطباع.

شعرت ابتهال بالتمزق، من ناحية وجدت أن تجربة التدريس تجربة بها تحد ذات معنى كبير، كان صعبًا أن تبتعد عن طلابها، بعد أن كانت منخرطة في الإطار الأكاديمي الجامعي لعدة سنوات، ومن ناحية أخرى لم تكن تريد أن تتركني. بالنهاية قررت أن تدرّس الثقافة الفرنسية تيرمًا واحدًا كل عام، وعلى قدر رغبتي في أن نبقى سويًا، لم أرد أن تضحي ابتهال بمهنتها من أجلي. أما أنا فاستمتعت بالتجربة الحية بجامعة لايدن، كان لدي العديد من الطلاب والزملاء الذين أبقوني مشغولاً بمهام أكاديمية طوال الوقت. لم تكن ابتهال لتستمتع بنفس الفوائد بهولندا، فتصورت أنه حان الوقت المناسب لتعود للتدريس، كنت سعيداً أنها وافقت على العودة لمصر، وبالفعل ذهبت لتدريس تيرم سبتمبر ٢٠٠٢. ابتعدنا عن بعضنا البعض خمسة أشهر افتقدتها فيها، لكن التوقيت كان مناسبًا، حيث دعيت للذهاب لبرلين لمعهد الدراسات المتقدمة للتدريس، وعملت هناك مع باحثين آخرين على التأويل الإسلامي واليهودي للنص، أخبرت ابتهال: "أنا ذاهب لبرلين ستة أشهر، وستكونين بمصر في هذه الفترة. لن نكون منفصلين حقًا، فقط سنكون مسافرين لأماكن مختلفة كجزء من رحلتنا معًا".

حتى بعد مضي عقد من الزمان على وجودنا معًا، ما زلنا أفضل الأصدقاء. في الواقع الصداقة هي أهم ملمح في علاقتنا، ونريد أن نحتفظ

بها على هذه الشاكلة. كلانا مصري، لكن من خلفيات مختلفة جداً، تنحدر ابتهال من عائلة تنتمي للطبقة المتوسطة العليا، والدها كان دبلوماسيًا، ووالدتها كانت مدرّسة ثم مديرة مدرسة. نشأت ابتهال فيما أطلق عليه "مناخ منظم"، مناخ يدور حول قواعد الإتيكيت، هناك طرق مناسبة لتناول الطعام، اللبس، الجلوس والقيام، وجدت كل هذا مضحكًا. أما أنا على الجانب الآخر فأنحدر من عائلة فقيرة، ومنذ أن مات والدي وأنا في الرابعة عشرة من عمري، افتقدت التوجيه المنظم الذي يقدمه الآباء لأبنائهم، التجربة أصبحت والدي والشخص الوحيد الذي أعطاني التوجيه. امتلاك الحرية لارتكاب الأخطاء كان بالطبع ضروريًا من أجل العملية التي تتيح للإنسان أن يتعلم، يتطور وبالنهاية "أملا" أن تكلل بالنجاح. لذا في البداية كانت ابتهال بالنسبة لي متزمتة، وأنا بالنسبة لها فوضوي، بالتدريج تعلمنا أن نتأقلم على اختلافاتنا، لقد وافقت على جزء كبير من نمط حياتي الفوضوي، وتقبلت أنا حاجتها للتعامل مع الأشياء بشكل راقٍ ومنظم. لقد كنت أدفع بالقواعد لنقاط الانكسار، وآمنت بأن القواعد في النهاية يجبَ أن تحطم، هذا ما يمهد الطريق لإنشاء قواعد جديدة، وبما أن الحياة في حالة مستمرة من التدفق، فالقواعد التي خلقناها في حاجة أن تعكس التغيير الذي لا مفر منه، فلا يوجد شيء أسوأ من الحياة في حالة متجمدة بين ما يجب وما يلزم.

على الرغم من حاجة ابتهال لاتباع تقاليد اجتماعية معينة، في المساحات الأخرى من الحياة، لم تكن تقليدية على الإطلاق. زواجنا على سبيل المثال، لم تكن عائلتها متحمسة لزواجنا لعدة أسباب: الفارق الطبقي، زواجي السابق، الخمسة عشر عامًا الفارق العمري بيننا، ولا

أستطيع أن أنحي أيضًا عامل المفاجأة، فقد بدا قرارنا بالزواج مفاجئًا. لقد رات عائلتها فيّ رجلاً متزوجًا سعيدًا بزواجه، فأنا لم أتحدث عن حياتي الخاصة أمام أحد، حتى بعد طلاقي كانت إجابتي الثابتة حين يسألني الناس عن ماذا حدث: "لا شيء تحديدًا، لم ينجح الأمر". كان حاضرًا بذهني دائمًا نزعة المجتمع المصري للوم المرأة على الزواج الفاشل، فكنت أجيب دائمًا دون تغيير: "لم يكن خطأ أحلام، أنا أكنّ لها كل الاحترام". لذا كانت عائلة ابتهال مترددة بشدة حيال قرار زواجنا، ولم توافق ابتهال على الموقف الذي اتخذوه، كانت لها روح مستقلة، وهذه الروح هي من أكثر الأشياء التي تعجبني فيها.

كان هناك العديد من المسارات المختلفة التي كان من الممكن أن نختارها حين بدأت المشاكل مع جامعة القاهرة، على سبيل المثال حين رفضت الجامعة ترقيتي لمنصب أستاذ، كان من الممكن أن نلوذ بالصمت، وبعد مضي فترة من الوقت يمكن أن أعيد التقديم، هذا هو المتبع. هذا بالطبع لم يكن اختياري، شعرت بالحاجة للحديث ضد ما اعتبرته ظلمًا بيّنا. دون شك ابتهال كان شريكتي، وكان هذا سيشكّل ظلمًا لها أن آخذ القرار دون العودة لها، تناقشنا عن الأمر باستفاضة، وكانت مصممة مثلي على التحدث جهرًا. قالت: "لا، إنها ليست فقط ترقيتك، إنها ماهية المؤسسة الأكاديمية التي تقع على المحك، مؤسسة ننتمي لها سويًا، لو بقينا على صمتنا سيعاقب كل من سيخلفك"، لقد تبخرت في تلك اللحظة كل الاحباطات التي واجهتها من رفض عائلتها لتقبل زواجنا حين تحدثت بوضوح شديد من قلبها.

في هذه الأيام صرت أنا وحماتي صديقين جيدين. حين كانت تزورنا كانت تقول لابنتها: "جئت لزيارة نصر، وليس أنت"، بالطبع في أسلوب ساخر، لكنه يوضح تحول موقفها هي وباقي العائلة تجاه زواجنا. لم يكن سراً أن حماتي كانت ضد زواجنا تمامًا، تفهمت ذلك، ولم أحاول فرض طريقتي على العائلة، لكنني ذهبت لمقابلة أحد أخوال ابتهال قبل زواجنا رسميًا. في النهاية كنت العريس، وفي المجتمع المصري التقليدي، مسئوليتي هي الذهاب لأسرة العروس وطلب الإذن منهم لزواج ابنتهم، وبما أن والد ابتهال قد توفي، اضطلع خالها بهذا الدور الأبوي.

لم تحضر والدة ابتهال هذا الحوار، إلا أنني قدمت نفسي للعائلة، وكان الوضع مهذبًا ظاهريًا، تناولنا القهوة، رحب بي الرجل: "مرحبًا"، وتبع هذا فترة من الصمت المميت. أدركت أنني لا أملك شيئًا لأخسره فبدأت الحديث: "حسنًا، دعني أتطرق لصلب الموضوع مباشرة، أنت غاضب، أتفهم هذا، لدي أخوات. لو أن واحدة منهن جاءت لي وهي تريد الزواج من رجل لا أحبه، وقالت: "قررت أن أتزوج هذا الرجل، سأكون غاضبًا أيضًا. هناك فرق كبير بالطبع بين رد فعلك تجاهي ورد فعلي في موقف مماثل، سأكون غاضبًا، لكنني سأدعمها في اختيارها"، شعرت بأن الأمر يسير بشكل جيد، فأكملت: "أنا لا أطلب من العائلة أن تحبني، فلست في حاجة لهذا الحب، أنا أطلب منكم أن تحبوا ابنتكم، هذا كل شيء، اكرهوني كيفما شئتم، هذا لن يشكل فارقًا بالنسبة لي".

تحدث خال ابتهال من فوره: "لا، لا، نحن لا نكرهك، أرجوك لا تفهمني خطأ". أكدت له: "أنا أستخدم المبالغة هنا لأصل للب الموضوع،

أود مثلك تمامًا أن أدعم ابنتك. نحن هنا لا نتكلم عن قاصر أو حتى طالبة، نحن نتحدث عن الدكتورة ابتهال، يبدو لي أنكَ ما زلت تراها طفلة. إنها أستاذة بجامعة القاهرة، حصلت على درجتي الماجستير والدكتوراه، وأنت لا تعطيها حرية اختيار من تريد أن تتزوج؟. . غيّر خال ابتهال من جلسته غير مرتاح، لكنني لم أكن قد انتهيت: "اعتبر أن هذا الزواج فشل؟ ماذا في ذلك؟ العالم لا يضمن لنا النجاح. أنا أؤمن بأن ابتهال لها كل الحق في أن تتحمل المسئولية بنفسها. أرجوك صلْ لوالدتها وبقية أفراد العائلة أنني أحب ابنتك، ولا أطلب موافقتك أو مباركتك. أنا لست مهتمًا بمعرفة ما هو منطق اعتراضك، لكنني أطالبك أن تقف بجوار ابتهال".

في عائلة ابتهال تتحكم التقاليد، في إقامة احتفال ضخم لأي زفاف، حيث يصل عدد المدعوين لخمسة آلاف شخص، ولأن عائلتها تتصرف بحرفية وفقًا للتقاليد، شرعت والدة ابتهال في الإعداد لحفل زفاف ضخم، أما أنا وابتهال فقد أردنا احتفالاً صغيرًا دون مبالغات. أخبرت ابتهال والدتها: "تفضلي بالقيام بالحجز في أكبر فنادق القاهرة، تحضري لدفع المصاريف، وقومي بدعوة كل من تحبين لكي تحصلي على الزفاف الذي تريدين، لكن للأسف أنا ونصر لن نكون هناك، نحن مشغولان ولدينا ترتيبات أخرى"، وتفهمت والدتها الوضع.

تزوجنا في طقس بسيط، وبعد الاحتفال الذي حدث بالمسجد، لم تتحدث العائلة معي. على الرغم من هذا لم أرد لابتهال أن تقطع العلاقات مع عائلتها، ولا هي أرادت ذلك، حتى لو لم يسمحوا لها بالتواصل معهم. كانت تتصل بوالدتها حين نتواجد بالقاهرة لرؤية أصدقائنا

المشتركين، وكانت تجد الوقت لزيارة عائلتها، لكن دائمًا من دوني. كنت قويًا بما يكفي لتحمل كل هذا الهراء، هذا تحديدًا ما عناه لي هذا التجنب، هراء. شعرت بالنهاية أن هذا الصدع سيلتئم، على الرغم من أن في ذلك الوقت لم أكن متأكدًا كيف سيحدث هذا.

ذات مساء اتصلت والدة ابتهال بها لتبلغها بوفاة واحدة من عماتها، ونصحتها: "لا تأت المسافة بعيدة جدًا". لم يكن يمكننا الاعتماد على السيارة التي نقودها في ذلك الوقت، ولم نكن لنعلم أبدًا ماذا سنفعل لو كانت توقفت بنا في منتصف الطريق بالصحراء الممتدة بين منزلنا ومنزل عائلة ابتهال، كانت والدتها حازمة في قولها: "لا تأت الآن، سيحل الظلام قريبًا، يمكن أن تأتي غدًا. تغيرت ملامح ابتهال بعد أن أغلقت الهاتف، فسألتها: "ماذا حدث؟". . "توفيت عمتي ووالدتي قالت ألا أذهب الليلة وأنتظر للصباح".

"والدتك لديها حق فيما تقول، لن يكون آمنًا لك أن تقودي حتى القاهرة بمفردك في هذا الوقت"، ثم أخبرتها سريعًا: "أنا خارج".

فتعجبت: "إلى أين أنت ذاهب؟".

"إلى القاهرة". .

"لماذا وهل ستأخذ الأتوبيس؟". .

أكدت لها: "سآخذ مواصلة ما". .

سألت مرة أخرى: "إلى أين أنت ذاهب؟". .

"أنا ذاهب لمنزل خالك لأقدم التعازي. خالك هو أخو عمتك، هل هذا صحيح؟". .

"نعم، صحيح" . .

"إذن، أنا أعرف الرجل، ومن واجبي أن أذهب له في هذا الوقت" . .

"لو ستذهب سآتي معك" . .

"لكن والدتك قالت لك ألا تذهبي بمفردك؟" . .

"إذا ذهبت معك لن أكون بمفردي، سنكون معًا" . . وأصبحت متحمسة.

لم أندمج مع عائلة ابتهال منذ زواجنا، لذا كنت متأكداً أن والدة ابتهال تصورت أنني لن آتي للمنزل حتى من أجل تقديم العزاء في وفاة فرد منها. على الرغم من هذا كان لوالدة ابتهال حس أنها لن تأتي بمفردها: "هل جاء نصر معك؟" . . "نعم"، وأخبرتها بتسلسل الأحداث التي وقعت قبل مجيئنا.

كما هو العرف ذهبت للجلوس مع خالها، وقدمت له التعازي، ثم سألني: "هل تود تقديم التعازي لوالدة ابتهال؟" . . أجبت: "بالطبع، لو أرادت"، ذهبت لغرفة السيدة وأعبرت عن أسفي لخسارتها، قضينا بعض الوقت معًا. بعد وقت طويل أخبرتني ابتهال، بأن هذه الواقعة كانت محفزة لإنهاء الصدع العائلي. بعد أن ودعنا بعضنا، اصطحبتنا والدة ابتهال للسيارة، وبدا وكأنها لم ترد للزيارة نهاية. لقد بينت لي تلك الحادثة أهمية دعم الناس خلال أحداث حياتهم المتغيرة، كان الأمر سيكون مخجلاً لو لم أستغل تلك الفرصة لإصلاح الجسور المهدمة بيننا.

الفصل التاسع

رحلتي كمعلم

"التدريس ليس رحلة ذات اتجاه واحد"، هكذا أخبر طلابي بعدما يستقرون في قاعة المحاضرات بأول يوم دراسي.. "هنا ستكونون في حاجة للحصول على تذكرة ذهاب وإياب". لقد آمنت دائمًا بأن عملية التدريس تتضمن أكثر من مجرد إلقاء المعلومات، إنها عملية تحتاج إلى إشراك الطالب، فالتدريس والتعلم يسيران معًا، لا يحدث أي منهما بمعزل عن الآخر. بالنسبة لي، قاعة المحاضرات هي كالمعمل، لا بد أن يكون المناخ العام حرًا ومفتوحًا، حتى يعرض الطلاب أسئلتهم وأطروحاتهم حول أي مادة نتعامل معها، ومن خلال التفاعل والاشتباك مع المادة تتطور أفكاري وتعاد غربلتها.

حين بدأت بالتدريس في جامعة القاهرة، اعتبرني طلابي غريبًا؛ لم أكن أحاضر فقط، وهي الطريقة التي يتبعها معظم الأساتذة حصريًا، لكنني أدخلت منهج الحوار والمناقشة بين الطلاب، أردت أن أعرف فيمَ يفكرون، كما أردت أن أستمع لما يريدون قوله. بدت طريقة التدريس تلك في المناخ

السلطوي المسيطر على مصر - وهو الممتد للجامعات - غريبة على الطلاب. بالتدريج شعروا براحة أكبر للتفاعل، وأقبلوا عليها، كان الأمر تدريجيًا، بدأت باستثارة عقولهم بجرعة صغيرة من الأفكار، ودون أن ألاحظ نمت بيننا علاقة حب ازدهرت مع الوقت. إن الحب ضرورة بعملية التدريس كما أعتقد، لو لم تحب طلابك لن تكون معلمًا جيدًا لهم، كما لو لم يحبك طلابك فسيواجهون صعوبة في التعلم. وعلى الرغم من أنني لم أرزق بأطفال، فإنني شعرت بأنني لدي آلاف الأطفال حول العالم؛ هؤلاء هم الطلاب الذين قمت بالتدريس لهم خلال الثلاثين عامًا الماضية.

هكذا تعلمت من مشرفي لرسالتي الماجستير والدكتوراه، عبد العزيز الأهواني، مثلي الأعلى، الرجل الذي لم يعطني أجوبة قط، بل علّمني كيف أسأل، ولم يبدُ يومًا أنه فرغ من الأسئلة التي يمكن أن يطرحها، وكنت أحاول من خلال قراءاتي ودراساتي أن آتي بإجابات عن بعض أسئلته، وأدرجت تلك المناقشات لاحقًا في مسودة رسالتي.

ظللنا نتناقش وظللت أعمل، يومًا ما ونحن نراجع العمل الذي توصلت له حتى تلك اللحظة، أخبرني: "هيا، اطبع هذا القدر وأحضر لي نسخة في ظرف يومين"، وعلى الرغم من أنني لم أكن مرتاحًا لهذا الطلب - لم أشعر بأنني قد انتهيت بعد - فعلت كما قال لي، لأجده قد قرأ عملي ووافق عليه. لكن أسئلته الصعبة التي طرحها عليّ، والتي لم أجب عنها في أطروحتي، ظلت تدور برأسي، لم أكن راضيًا عن رسالتي، وشعرت بأن العمل يحتاج إلى مزيد من التطوير، معتمدًا على تلك الأسئلة الصعبة التي طرحها هو. لذا ظللت أعمل، وكان يسألني كلما مر شهران: "أين أنت؟

أين رسالتك المتهية؟"، وكنت أجيب: "ما زلت أعمل عليها"، فيعلق: "لكنني أجزتها بالفعل!".. "لكنني لم أفعل، بعض من أسئلتك تتحدى الأطروحة الأساسية، لا بد أن أكون متأكداً"، وأخذني هذا المسار عاماً آخر لكي أصل للنقطة التي شعرت عندها بأن الرسالة قد اكتملت.

آنذاك كنت أتردد على محل والدي قارئاً لأصدقائه الأميين، كنت فخوراً حقاً بأن هؤلاء الرجال هم أصدقاء والدي، وأنهم احتاجوا لي لعدم استطاعتهم القراءة بأنفسهم. احتاجوا لي لأستخرج لهم النص، لكنهم أكسبوني رؤية جديدة له وخرجت بأفكار وفهم مختلف، لقد أوضحوا لي أنني أتعلم وأنا أدرّس. لم أكن أعرف عند أي نقطة سيقاطعون قراءتي ويندمجون في مناقشة حادة يتبادلون فيها الأفكار ويعيدون صياغتها، بكلمات اكتسبت الحياة فجأة بعد أن قمت بقراءتها. بالطبع لم يكن طلابي أميين، لكن بعد أن صارت المادة حية في الفصل من خلال مناقشتي معهم تذكرت مجدداً أن عملية التدريس هي رحلة ذهاب وإياب.

معظم المناهج التي قمت بتدريسها بجامعة القاهرة كانت مرتكزة على كشف الأساس الآيديولوجي وراء الخطابين الديني والسياسي، ما هي الأجندة وراء هذين الخطابين؟ من المستفيد؟ طوّرت مناقشة هذا الأمر في كتابي "نقد الخطاب الديني"[31]. أصبح هذا الكتاب لاحقاً العامل المحفز الذي وصمني بتهمة الردة في ١٩٩٢، حيث انتقدت المؤسسات الإسلامية القائمة، وبالتالي اعتبرت خطراً على المؤسسات الدينية والاقتصادية والسياسية.

---

[31] نصر أبو زيد، نقد الخطاب الديني، دار مدبولي ١٩٩٢، القاهرة.

خلاصة القول إن اتهامي بالردة لا علاقة له بآرائي حول القرآن، إن تحدي احتكار القوة والمعرفة هو ما يهدد الوضع السياسي القائم، وقد فعلت كتاباتي هذا ـ لقد تعرضت بالنقد للقوة القائمة، البقرة المقدسة. أردت تحرير الدين من احتكار هؤلاء من في السلطة، لقد كانت كل كتبي بما فيها "نقد الخطاب الديني" نتيجة لمناقشاتي مع طلابي في قاعة المحاضرات، معمل الأفكار، حيث تولد وتغذى وتتطور وتختبر، إنه عالم مصغر للمجتمع الأكبر.

لقد صار التعليم الجامعي في مصر مجانًا بفضل طه حسين، إلا أنني حاليًا أستمع لأولاد إخوتي وأقاربي كيف صار التعليم ضعيفًا بالجامعة، حيث الأساتذة يصرخون في وجه الطلاب بقاعات المحاضرات الكبيرة مخبرين إياهم بأنهم سيرسبون دون شك، فيذهب هؤلاء الطلبة ممن لديهم الاستطاعة المادية لتوظيف مدرسين خصوصيين للأسف ليقوموا بمهمة تعليمهم. مع ذلك لم أقتنع بأن مجانية التعليم مفادها أن الشعب المصري دفع مصروفات تعليمي، أراها هدية، لكن من خلال التدريس أستطيع أن أرد للشعب المصري ما وهبني إياه، أرد هذا الدين، لكن اتهام المحكمة لي بالردة والإلحاد هو ما منعني مما أحب فعله، التدريس بالجامعة.

شعرت حين منعت من التدريس بأن جزءاً أساسيًا اقتطع مني، فلقد كان تدريس الطلاب المصريين يكسبني طاقة وحياة. حاولت من خلال عملي أن أرشدهم كيف يمكن أن يفكروا بطريقة نقدية ومنطقية، فمن غير هذه الأنماط من التفكير تذهب محاولات تطوير المجتمع نحو الأفضل، مجتمع قائم على مبادئ الحرية والعدالة، أدراج الرياح. لم أمتهن التدريس لأقنع

طلابي أن يروا الأمور من وجهة نظري، فلا مكان للعقيدة والبروباجندا في الجامعة، لو أنني استخدمت قاعة المحاضرات في تعقيد ونشر أفكار معينة سأكون بذلك معيقًا للمسار الذي يؤدي للمستقبل، الذي أرى أنه يتشكل فقط من الانسياب الحر للأفكار ومناقشتها في الفضاء العام. هكذا أشعر بأنني جزء من سلسلة للتطور الفكري، ستستمر المعرفة في التطور من بعدي، وهو الأمر الذي سيقوم به طلابي. لذا فقد آلمتني بشدة حقيقة أنني لم أعد جزءاً من هذه العملية في مصر، مصر التي أحبها وأهتم بمستقبلها.

أتذكر قصة أحد طلابي بشكل خاص، أحمد، شاب أصولي اتهم بانتمائه لتنظيم الجهاد الذي اغتال الرئيس السادات عام ١٩٨١، سجن لبعض الوقت، لكن بالرغم من هذا تخرج في الجامعة بتقدير مرتفع، لكن رفضت الجامعة تعيينه معيداً، وهو شيء يحدث عادة للطلاب الأوائل. رفع أمر قضيته للقضاء، وهناك ربحها (حدث هذا في جامعة المنصورة وليس جامعة القاهرة). حين عدت لمصر من اليابان عام ١٩٨٩، كان العديد من الأساتذة يستعدون لأخذ إجازة تفرغ علمي كالتي حصلت عليها عام ١٩٨٥، وكان عليّ كأحد الأساتذة العائدين من الخارج الإشراف على رسائل طلاب الماجستير والدكتوراه، وكان لدي بضعة طلاب لأشرف عليهم، بعد أن كانوا طلابًا لأساتذة آخرين، وأحمد كان من ضمن هؤلاء.

عمل أحمد بجامعة المنصورة، لكن نتيجة لقلة عدد الأساتذة هناك كان عليه أن ينهي رسالتي الماجستير والدكتوراه بجامعة القاهرة. أرسله لي القسم ولم أكن أعرف عنه شيئًا، عرفت فقط أن موضوع اهتمامه هو النظرية اللغوية لابن تيمية (١٢٦٣ ـ ١٣٢٨)، وهو عالم كبير من دمشق، ينتمي

لمدرسة ابن حنبل، وهي أحد أكثر المدارس الفكرية الإسلامية أصولية. يؤمن ابن تيمية بأن كل ما ورد بالقرآن والسنة يمكن فهمه بوضوح وتطبيقه حرفيًا، أما فهم القرآن بشكل رمزي أو تطبيق التفكير المنطقي لاستنتاج المعنى من النص فكان ضد منهج تفكيره، هذا بالإضافة لرفضه لفكرة خلق القرآن.

عاصر ابن تيمية المغول، وكان ذلك وقتًا نمت به صحوة اجتماعية كبيرة في العالم الإسلامي، فقد تحول العديد من المغول للإسلام مع احتفاظهم بطريقتهم في الحياة. خلط ابن تيمية، كما العديد من القادة الإسلاميين، الدين بالسياسية كطريقة للحصول على النفوذ في وقت كان هناك الكثير من التغير الاجتماعي الواقع. كان هناك بالطبع من عارضوه، لكن طبقًا للأسطورة، يذاع عن ابن تيمية أنه قال: "لو سجنوني، فأنا في وحدة، لو قتلوني فأنا شهيد، ولو نفوني فسأكون متجولاً في أرض الله"، لذا فهو يعد مصدر إلهام العديد من الأصوليين الإسلاميين في العصر الحديث.

أثار موضوع رسالة أحمد اهتمامي، وأرسلت جامعة القاهرة بخطابات للطلاب المتخرجين والذين سيسافر أساتذتهم مفاده.. "لأن الأستاذ المشرف على رسالتك ليس متاحًا في هذا الوقت، فقد تم تعيين مشرف جديد لك" وكان اسمي في رسالة أحمد.

أخذ موعدًا لرؤيتي في صباح أحد الأيام، كنت جالسًا بمكتبي حين جاءت سكرتيرة القسم، وقالت: "أحمد في انتظارك، يبدو مرتعبًا، لقد كان يتمتم بآيات قرآنية لنفسه، لم أره هكذا من قبل".

تساءلت: "من أحمد؟" . .

"إنه الطالب الذي عين لتكون مشرفه لأن أستاذه أخذ إجازة" .

"لماذا هو خائف إذن؟" .

أجابت: "لا أدري، لكنه ملتحٍ بلحية طويلة، إسلامي" .

عندها فهمت، لقد كان إسلاميًا وكان في طريقه ليكون تحت إشرافي. في هذا الوقت لم تكن قضيتي قد أثيرت بعد، لكن كانت ليَ سمعتيَ الخاصة بأفكاري عن تفسيري للقرآن.

سألتني: "هل أدخله؟" . .

"لا، سأخرج لمقابلته". تركت مكتبي وخرجت لساحة الاستقبال: "أهلا أحمد"، حسب وصف السكرتيرة عرفته بسهولة. . "هل تريد أن تأخذ معي جولة حول الحرم؟ أريد أن أمدد قدمي" وافق، وبينما نحن سائران قلت: "انظر يا أحمد، لقد تم تحويلك لتكون تحت إشرافي، لا شك أن هذا ضد إرادتك. خذ وقتك وفكر بالأمر وأخبرني عن المشرف الذي تريد العمل معه وحينها سأقوم باقتراحه على القسم"، اعترض فوراً على اقتراحي، لكنني اعترضته قائلاً: "لا، لا تقل أي شيء الآن، خذ وقتك، لسنا في حاجة للاستعجال، أنت الآن في بداية عملك ولك كل الحق أن تشعر بالراحة مع المشرف الذي يُعين لك". ربما لم يكن هذا صحيحًا، فلوائح الجامعة لا تقول بهذا الحق، إلا أن هذا لا ينفي كونه حقًا. دعني أرَ ماذا أستطيع أن أفعل بموضوع حصولك على مشرف مختلف، من تريد العمل معه؟ أعطيته رقم هاتفي "اتصل بي وأخبرني، أؤكد لك أنني

سأساعدك على التحويل". زادت استثارته أكثر وهو يعترض بشدة على اقتراحي، فسألته: "هل أنت مريض؟". . "لا، لكنني متعب، أعتقد أنني سأذهب لمنزلي بالمنصورة الآن، أحصل على بعض الراحة وأفكر بالأمر" وكانت المسافة ساعتين بالأتوبيس من القاهرة.

اتصل أحمد بي بعد أسبوع قائلاً: "هل اتخذت قرارك"، أخبرني: "لا، كنت أود المجيء لمقابلتك مرة أخرى". جاء وذهبنا في جولة مرة أخرى حول الحرم الجامعي، لم أرد له أن يكون جالسًا أمامي في المكتب، شعرت بأنه هكذا سيكون أقل رسمية وسيخفف من شعوره بالتهديد. لم يكن لي مكتب خاص بالجامعة، وكنت أتمنى أن يشعر أحمد بالخصوصية. أخبرني: "أستاذ أبو زيد، أريد العمل معك"، كنت متفاجئًا لحد ما "حسنًا، إذا كان هذا ما تريده، لكن لا بد أن أكون صريحًا معك. رجاء تَفهَّم أن وظيفتي ليست أن أحولك عن قناعاتك، وظيفتي هي أن أجعل منك باحثًا".

شرحت لأحمد أنني لن أتعرض لقناعاته الدينية أو السياسية، كان لديه كل الحق أن يصل لأي استنتاجات خاصة به، لكن تحت إشرافي فأنا أتوقع منه أن يقوم بالبحث. شرحت له أن الباحث لا يبدأ من فرضيات ثابتة، الواعظ فقط هو من يفعل هذا، أما الباحث فيبدأ بطرح أسئلة معتمدة على خلفيته العلمية. الباحثون هم كسائر البشر يستقبلون المعرفة من زاوية خاصة، ومع نظر الباحث من خلال تلك العدسة، تتسع الفوارق وتصبح واضحة ومن هنا يأتي تركيز الدراسة. البحث العلمي يعني امتلاك طريقة فعالة لاستخراج المعلومات من المراجع والمصادر، ترتيبها وتصنيفها حسب

أهميتها وتحليلها في سياقها الاجتماعي والتاريخي لاكتشاف المعنى. إن الاستنتاجات التي يصل إليها الباحث ليست بأي شكل نهائية، فطرق البحث وآليات التحليل والنقد تتغير بشكل مستمر، والركود المجتمعي يحدث حين تجمد المعرفة، لهذا كان مهماً أن ندرب الأجيال الجديدة من الباحثين، هؤلاء من يطورون ويشكلون المعرفة باستمرار.

أكملت: "لن أقبل رسالة تجعل فيها من ابن تيمية بطلاً أو عبقرياً ملهماً، أنا أعرف أنه مصدر إلهام لمن يظنونه كذلك. أنا شخصياً أعتقد أن ابن تيمية مفكر كبير، لكنه ليس أفضل مفكر في العالم. إذا أردت أن تصبح باحثاً، سيكون هذا عظيماً وسأوافق أن أكون مشرفك، لكن إذا أردت أن تصبح واعظاً فلتبحث عن شخص آخر"، أكد لي "أريد أن أصبح باحثاً".

عملنا سوياً في جد واجتهاد، وكما علمني مشرفي عبد العزيز الأهواني، أثرت العديد من الأسئلة في اجتماعتنا، ووضعتها في مواجهة أحمد. لم أجب عن تلك الأسئلة قط، كان أحمد يقرؤها، يفكر فيما قرأ ويأتي لمناقشتها معي ويتوصل لاستنتاجات عن ابن تيمية. مع الوقت تراجع تعصب أحمد لابن تيمية، وأدرك أن الرجل لم يكن له إبداع كبير أو أفكار مبتكرة. ابن تيمية لم يأتِ بجديد لدراسة الإسلام، لقد كان يعلم الإسلام جيداً، لكنه كشأن كل التقليديين، لم يكن هناك شيء مبدع بعمله.

انتهى أحمد من رسالته، وكنت سعيداً بها، وما زاد من سعادتي كان أن جزءاً كبيراً من تفكير أحمد المتحيز اختفى مع تطبيق آليات التفكير النقدي والمنطقي في دراسته. الخطوة التالية كانت تتضمن اختيار لجنة لمناقشة

رسالته، (مثلما نتبنى النظام الفرنسي في تقييم رسائل الماجستير والدكتوراه في مصر)، انتدبت أستاذاً متخصصاً باللغويات وعلم اللاهوت.

جاء يوم المناقشة، كانت الدعوة عامة وجهزت الجامعة القاعة الكبرى لتسع للحشد الذي سيحضر الحدث. خلال هذه الاحتفالية، امتلأت القاعة بالأصوليين، رجال بلحى طويلة، ونساء غطين أنفسهن بالكامل، حتى وجوههن اختفت وراء النقاب. بعض من زملائي ممن لاحظوا نوعية الحضور بدأوا في إلقاء النكات: "هل أحضرتنا هنا ليتم اغتيالنا أم ماذا؟ علامَ كل هذا؟". ذكرتهم أنهم قرأوا رسالة أحمد "تعرفون أنه باحث فلا يهم شكله"، لكنني بصراحة حين ألقيت بنظري نحو الحضور وجدت المشهد غريبًا، كل هذه اللحى والنقابات! المرأة الوحيدة السافرة وسط الحضور كانت ابتهال، وقد جلست زوجة أحمد بجوارها حاملة ابنها الصغير.

خلال المناقشة أدركت ابتهال أن زوجة أحمد أرادت أن ترضع طفلها، ولم يكن ممكنًا أن تفعل هذا أمام الناس، فسألتها: "هل تريدين أن نجد غرفة بالقسم يمكن أن ترضعي فيها طفلك؟" وبعد أن وجدت لها مكانًا مناسبًا سألت زوجة أحمد: "أنتِ زوجة الدكتور أبو زيد، أليس صحيحًا؟" وأجابت ابتهال متساءلة: "كيف عرفتِ؟"، بالطبع كانت ابتهال الوحيدة التي لا ترتدي حجابًا أو نقابًا، فلم يكن هذا صعبًا على التخمين، "نعم أنا هي". بدأت زوجة أحمد في الحديث غير متوقفة، تصف لابتهال كيف أن أحمد تحدث عني لعائلته وكيف هو سعيد بالعمل معي "والدا أحمد سيكونان سعيدين بمقابلة زوجك"، في هذه الأثناء كان بعض من زملائي يستهزؤن من ابن تيمية أمام

الحشد الحاضر سائلين أحمد أسئلة مثل: "هل تعتقد أن ابن تيمية كان بهذه الجودة في اللغة العربية؟ انظر لطريقته في الكتابة، إنها سيئة، ماذا ترى في هذا؟ بالطبع يبدو كشخص لا يجيد العربية"، كانوا يضحكون بقوة.

تلعثم أحمد محاولاً أن يعطي إجابة متماسكة، أتمنى لو أنه قال ما لدينا في النص ليس من كتابة ابن تيمية، لقد كان الرجل يحاضر الناس، في حين كان آخرون يكتبون كلماته. كيف نحكم على لغة الرجل العربية معتمدين على الوثائق التي لدينا، وكل ما نملك هو محاضراته المسجلة؟ على الرغم من كل هذا حصل أحمد على درجة الماجستير بتقدير امتياز، وكنت فخوراً به.

قابلت والد أحمد بعد المناقشة، كان رجلاً عجوزاً لطيفًا، أخبرني: "أحمد ابنك"، أجبته: "لا، بل أحمد ابنك وهو تلميذي". اعترض الرجل قائلاً: "لا، هو يشعر بالفعل أنه ابنك، أنا ممتن لك وللسيدة ابتهال لاعتنائكما به.. أشكرك".. "نحن سعيدان بهذا"، هكذا قلت في إخلاص.. "لكن أخبرني، ماذا ترى في كل ما قيل اليوم؟" وكنت أحيل بشكل خاص لتعليقي الأخير بالمناقشة، حين أكدت أن عمل أحمد لم يكن من أجل التوافق أو الاعتراض حول رأي معين، ما قلته تحديداً كان "أحمد باحثًا جاداً بحث في مادته بدقة وتوصل لنتائج معينة، لا أعتقد أنه كان يريد الوصول لها بالفعل". في الوقت الذي حصل فيه أحمد على درجة الماجستير كانت قضيتي قد ظهرت بالعلن، قال والد أحمد: "أستاذ أبو زيد، الكثيرون لا يفهمون من أين تأتي، يظنونك ضد الإسلام، بعد اليوم أرى حقيقة الأمر، أنت لست ضد الإسلام على الإطلاق".

تقدم أحمد لاحقًا بمقترح لنيل درجة الدكتوراه، أراد أن يستمر في دراسة أعمال ابن تيمية والبدء في دراسة الوهابية. محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٩٢) مؤسس الحركة الوهابية، أنشأها مع محمد بن سعود أمير الدارعية، ولاية ثيوقراطية في منتصف الجزيرة العربية. أصبحت الوهابية الآيديولوجية الرسمية للمملكة العربية السعودية، وهي المدرسة الأكثر تحفظًا من بين كل المدارس الفكرية للإسلام. لم أكن سعيداً بتوجهاته.. "حسنًا، لقد تم بالفعل الكثير من البحث حول الوهابية. لو أنك سافرت للمملكة العربية السعودية لرأيت آلاف الرسائل حول الوهابية. الوهابية موضوع جيد، لكنني أراه كافيًا لرسالة ماجستير". اقترحت عليه بعض المواضيع ليفكر بها ثم قلت: "لدي موضوع بذهني قد يسير معك بشكل جيد، لكنني لست على علم إن كنت ستوافق أم لا".

"تأويل الشيعة"، بدا مصدومًا للغاية وبدأ في التلعثم، أعتقد أنه حتى بدأ في تلاوة بعض آيات القرآن همسًا لنفسه، كما فعل في أول مرة قابلني بها. بعد أن لملم شتات نفسه قلت: "حسنًا، أنت لست تلميذي، اذهب وابحث عن أستاذ آخر ليشرف على رسالة الدكتوراه". كنت جاداً "إذا انهرت هكذا أمام ذكر موضوع ـ مجرد موضوع ـ فأنت تفكر في الشيعة على أنهم الفئة المنحرفة، لا تفكر في تقليد إسلامي في مجمله، بغض النظر عن قناعاتك الشخصية، لا لن أشرف على رسالتك عن الوهابية".

الشيعة والسنة هما الفرعان الأساسيان في الإسلام، ثبتا مكانتهما بقوة في القرآن. إلا أن كل فرع نتيجة لبعض الحوادث التاريخية حول الخلافة منذ موت النبي، يؤول النصوص الدينية بشكل مختلف. توقعت إمكانية استفادة

أحمد بشكل كبير من النظر للمجتمع الشيعي وما يفعله في تأويلاته وتفسيره للقرآن. يمثل الشيعة نحو عشرين بالمائة فقط من المسلمين. إيران دولة شيعية، هناك بعض الشيعة في الهند وباكستان. لقد صارع المسلمون طويلاً مع السؤال عن من يحكم الأمة، لقد كانت شخصية محمد عاملاً مساعداً له في توحيد الناس بشبه الجزيرة العربية، لكن بعد وفاته حدثت كارثة. نجح صحابة محمد في وضع أبو بكر (٥٧٠ ـ ٦٣٤) كأول خليفة من ٦٣٢ وحتى وفاته في ٦٣٤. مصطلح الخليفة له أهمية دينية، القرآن يشير للنبي داود على أنه خليفة الله على الأرض. لا نستطيع تحديد تاريخ معين لظهور الشيعة كمجموعة منفصلة، لقد تطورت الأيديولوجية الشيعية عبر الزمن، والصراع السياسي بين بيتي النبي بقبيلة قريش متشعب ويصعب تتبعه.

دون الدخول في تفاصيل القصة نبدأ بالخليفة الثالث، عثمان بن عفان والذي تقلد الحكم من ٦٤٤ وحتى ٦٥٥. عثمان هو من أصدر النسخة الأولى من القرآن، ينتمي لفرع أبناء عمومة النبي، وقد أدى سلوكه في المحاباة لأقاربه إلى قتله، ثم جاء علي بن أبي طالب (ابن عم النبي وصهره) وأصبح الخليفة الرابع (٦٥٦ ـ ٦٦١) وتصاعد الصراع بين مؤيدي عثمان وعلي. اتهم مؤيدو عثمان مؤيدي علي أنهم وراء اغتيال عثمان، لكن حتى هذه اللحظة لم يكن قد بدأ التقسيم بين سني وشيعي.

معاوية ابن أبي سفيان ـ من عائلة عثمان ـ حارب ادعاء علي لحكم الأمة الاسلامية وأدى ذلك لتقسيمها لثلاثة معسكرات، الشيعة (وتعني حرفيًا التشيع ـ مناصرة شخص، في هذه الحالة هو علي)، ومعسكر معاوية (حكم معاوية من ٦٦١ وحتى ٦٨٠ مؤسسًا الدولة الأموية بمقرها في

دمشق)، والخوارج (وهؤلاء هم من استثنوا أنفسهم من المعسكرين). لم يوافق كل المسلمين على خلافة معاوية، فبالنسبة للكثيرين سيطر شعور بأن الخلافة اختطفت وتحولت لملك. العباسيون بمقرهم في بغداد استولوا على الحكم بكل تفاصيله كما فعل من سبقوهم. حين أصبح علي الخليفة في ٦٥٦ انتقل للكوفة بالعراق واستمر هو وأتباعه في الحرب من أجل حق الحصول على حكم الأمة الاسلامية. عرف علي كأول إمام، وهو ما جاء مع ظهور فرع الشيعة في الإسلام.

كان لعلي ولدان، الأكبر الحسن، والذي خلف علي، لكن معاوية الخليفة الأموي الأول منعه من الحصول على السلطة. في محاولته لتجنب إراقة الدماء، تخلى الحسن عن حقه في الخلافة، وجاء الدور على الأخ الأصغر للحسن، الحسين، لكي يقود الأمة. سافر الحسين وبعض من أتباعه للعراق في استراتيجية هدفت لإثبات أن الحسين هو القائد الجديد للأمة الإسلامية، وهم في الطريق تم الاعتداء عليهم من قبل قوى أموية واستشهد الحسين، تستطيع أن تجد قبره في كربلاء.

يحتفي المجتمع الشيعي بذكراه بتعذيب أنفسهم والغناء "لقد تركناه وحده، لم نسانده والآن ندفع الثمن" المأساة الحقيقية هنا هي حقيقة أن حفيد الرسول قتل من قبل مسلمين، ربما يمكن أن يطلق على هذا بداية الحركة الشيعية. من وجهة نظر سياسية بدأنا في مشاهدة وجود قسمين مختلفين، داعمي علي (الشيعة) وداعمي معاوية (السنة).

طوّر المجتمع الشيعي بالتدريج آيديولوجية معينة. طبقًا لفهم السنة فالرسول لم يترك أي إشارة لمن يجب أن يخلفه، الخليفة يجب أن يكون من قبيلة

قريش، لكن ليس من بيت معين، أما طبقًا لفهم الشيعة فقد رشح النبي عليًا ليكون خليفته، وقد حرم علي من حقه في خلافة النبي بتولي أبي بكر، عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان. هذا هو الفارق الآيديولوجي الكبير بين السنة والشيعة. اختلاف كبير آخر يتعلق بالفهم اللاهوتي، فطبقًا للشيعة كان للنبي نوعان من المعرفة، المعرفة التي أوصلها للناس في القرن السابع بالجزيرة العربية، ونبع معرفي عميق لم يكن يستطيع توصيله لأن الناس لم يكونوا ليستوعبوه، هذا النبع العميق توارثه الأئمة. علي كان الأول ممن ورثوا تلك الهدية، تلاه ابنه، وهكذا لكل من ينتمي لآل بيت علي. لهذا السبب ففي اللاهوت الشيعي يمتلك الإمام السلطة، السلطة تأتي من معرفة داخلية ورثها من روح النبي. بالنسبة للفهم السني لا يوجد فهم متوارث، المعرفة مكتسبة ويمارس مجتمع المؤمنين دورًا مهمًا في اختيار من يحكمهم.

يؤمن الشيعة بما يطلق عليه اختفاء الإمام، السابع أم الثاني عشر، فهذا شيء يختلفون بشأنه. الشيعة لديهم ما يمكن أن نطلق عليه مهمة تبشيرية، لكنهم بالطبع لا يستخدمون هذا المصطلح. حين يظهر الإمام، يتحول العالم - الموبوء بالظلم - إلى عالم عادل فجأة، وتنتشر العدالة في كل ركن بالعالم. وحتى يحدث هذا فالمجتمع الشيعي لا يجب أن يفعل شيئًا سوى انتظار ظهور الإمام، فأي نشاط من قبل البشر لجلب العدالة للعالم سيكون غير فعال، فالأفضل أن نرفع أيدينا عن الأمر، وبناء على هذه الفكرة كانت ثورة الخميني في إيران غير مفهومة. لقد أعطى الخوميني السلطة للقضاة (من سيحددون القوانين بناء على القرآن والسنة) أن يمارسوا سلطة "ولاية الفقيه" (نائب عن الإمام).

بين القرن العاشر والقرن الرابع عشر، كانت مصر ولاية شيعية، أجد الأمر مضحكًا حين يعلن عن اكتشاف حركة شيعية سرية بمصر. أحب أن أصف المصريين بأنهم سنيو العقيدة شيعيو العاطفة، لهذا السبب لدينا العديد من الأضرحة للعديد من الرموز الذكور والإناث من عائلة علي. في المجتمع المصري على المستوى الشعبي لا يوجد فرق بين سني وشيعي، الفرق يوجد فقط على المستوى الآيديولوجي، كلنا نحب آل بيت النبي. الشيعة لديهم نظرية خاصة بالتأويل، بسبب وجهة نظرهم حول أهمية ودور الأئمة المرشدين المعصومين وموقعهم بين الله والمؤمنين.

بعد مضي عدة أسابيع من حديثي الحاسم مع أحمد، جاء لي بمقترح رسالة الدكتوراه الخاصة به، وقد كان مقترحًا جيدًا حول: تأويل الظاهريين. في تفسير القرآن اتخذ الظاهريون منحى حصريًا على الفهم الحرفي للنص، آمنوا بأن النص كافٍ ليفسر نفسه بنفسه. أؤمن أنه بقول " لا أحتاج للمعرفة أكثر من أقوال النبي، لست بحاجة للتفكير المنطقي "، تصبح وظيفة تأويل النص أكثر تعقيداً، بالمقارنة إذا ما تستخدم العديد من الطرق والنظريات لفهم النص. لو قال القرآن شيئًا، لا بد أن يجد الباحث كل شيء داخل النص دون مساعدة باقي المصادر، النص يصبح مصدر ذاته. اقتراحي كان أن الظاهريين يستخدمون طريقة لغوية معقدة في تفسير القرآن، اللحظة التي تبدأ فيها مع نص له سلطته المستقلة في نفسه، تحتاج لطريقة لغوية معقدة لتستنبط معنى النص.

في النهاية لا أعرف ماذا حدث لمسار أحمد الوظيفي، تركت مصر بعد مناقشتنا القصيرة حول مقترح رسالة الدكتوراه، أعتقد أنه قام بتحقيق

عميق، خاصة أن الأمثلة التي قدمها لي كانت تعكس كم التعقيد الذي تحمله طريقة الظاهريين اللغوية. وظيفة أحمد كانت البحث والدراسة من أجل معرفة درجة منطقية هذه الطريقة اللغوية التي انتهجوها.

ربما كان العمل مع طالب يشاركني نفس رؤيتي وأفكاري يصبح أكثر سهولة، لكن مثل هذه الأوضاع نادراً ما تحدث في العمل الأكاديمي، وإن كنت لا أعتقد أن العمل مع طالب بهذا التوافق معي سيكون شيئًا جيداً، أرى تحدي العملية التعليمية على هذا النحو، كيف أوصل لطلابي إلى أن البحث الأكاديمي ليس حول الاتفاق والاختلاف؟ إن له كل العلاقة بكيفية البحث وخلق المعرفة. هذا هو قلب المعرفة، التعليم يجب أن يتضمن تحولك لمثير للمشاكل، ربما ذبابة طنانة لإيضاح الأمر، أتحدى طلابي دافعًا إياهم للتفكير عميقًا وبشدة. التعليم لا يعني تطبيق لغة أكثر تعقيداً على الأفكار القديمة، وهي الممارسة الأكثر انتشاراً بالعالم العربي.

لا أعتبر نفسي أعيش في برج عاجي منعزلاً عن العالم، شيء يفعله الكثير من الأساتذة. هناك يجلسون في صورة جميلة لا يفكرون أو يهتمون بالأثر الذي يمكن أن تتركه أفكارهم على حياة الناس، مقتنعون بأن عالم الأفكار يمكن فصله بسهولة عن عالم التجربة، هذا محض هراء. حين قرر الله أن يعلن عن نفسه لبني آدم، أنسن الله نفسه كاسراً بذلك الحاجز ليتصل بالناس العاديين قاطني الجزيرة العربية خلال القرن السابع. القرآن كلمة الله المنطوقة تعطينا إرشادات حول كيفية الحياة، وباتباع هذا المثال أزال المسلمون العوائق الاجتماعية في محاولاتهم لبناء مجتمع عادل ومتساوٍ على الأرض.

أخبرني أحد طلابي مرة: "أستاذ أبو زيد، أنت لا تترك الجدل حول النص، وكيف أن القرآن هو مرجعنا، مرجعنا الوحيد"، أجبت: "أنت على حق، لا نستطيع أن ننكر نصنا المقدس، القرآن، إنه نموذجنا، لكنه من المهم إدراك أن القرآن هو فقط النموذج، ليس لنا الحق أن ندعي أنه الحقيقة المطلقة". قدرت ملاحظة هذا الطالب النقدية، أتمنى أن الأجيال القادمة من الباحثين ستكون قادرة على خلق نماذجها الخاصة. هل نحن قادرون على الخروج من تحت عباءة أي نظام من أجل تبادل الأفكار؟ لست واثقًا.

عانيت حين أعلنت المحكمة المصرية أني مرتد، وما زلت أعاني من هذا الحكم، فأنا الآن أحيا بالمنفى، أشتاق لعائلتي في مصر، والخسارة الأكبر أنني لا أستطيع تدريس الطلاب المصريين، في هذه النقطة لا يوجد أي تعويض، حتى لو كان اعتذاراً غير متوقع من القسم متسللاً من السلطة العليا بمصر، لم يكن هذا ليكفي، لقد خسرت سنوات. أحيانًا تحاول ابتهال تخفيف حدة إحساسي بالخسارة، فتقول: "أنت لست عادلاً تجاه نفسك، أنا أزور مصر أما أنت فلا، لكن كم هو واضح أن لك طلابًا لم يروك قط، بل عرفوك من كتبك"، لقد أخبرها الكثيرون بهذا.

أنا سعيد بأن الطلاب قادرون على الاطلاع على أفكاري من خلال كتاباتي، لكن إعجاب الطلاب ليس كالعمل معهم على تطوير مدرسة فكرية تمهد الطريق نحو المستقبل من خلال خلق المعرفة. لست أول من يعاني مثل هذه الخسارة، أفكر مثلا بأمين الخولي على سبيل المثال، لكنّ هناك الكثيرين ممن سبقوني، من استطاع النظام أن يخرسهم.

أنا مهتم بمستقبل الدراسات الإسلامية، وفي الوقت الحالي بمصر لا يوجد بحث حقيقي، بل كل ما يتم إنجازه هو وعظ. كيف تسأل سؤالاً، كيف تتساءل عن شيء قبل توقع الإجابة، كيف تنظر للإجابة بطريقة نقدية، كل هذه الأمور، تحتاج إلى أن تكون جزءاً من تكوين الباحث. البحث العلمي ليس شيئًا نجده منتشراً في الدول العربية هذه الأيام، خاصة بمصر حيث انتقل الوضع من سيئ لأسوأ. حاليًا بمصر لا يوجد نقاش حول القرآن إلا من خلال النسق المعرفي المؤسس والأصولي للأزهر.

الأزهر هو مؤسسة تم إنشاؤها في القرن العاشر عن طريق الفاطميين، سلالة شيعية حكمت شمال أفريقيا ثم مصر من ٩٩٠ وحتى ١١٧١. وقد تطورت لتصبح أهم جامعة إسلامية في العالم السني. لا توجد ندوة إلا ويرعاها الأزهر، يشرف ويتحكم في التجمع، خارج هذا الصندوق الأصولي لا يوجد فكر رسمي مسموح به.

يظل التعليم بمصر راكداً، حتى لو نبتت أفكار جديدة من التربة الأكاديمية، حرس الأفكار القديمة يمنعون ظهورها من الأرض قبل أن تحصل على فرصة أن تجذر نفسها. التعليم الجامعي هو إلقاء المحاضرات على الطلاب عما قيل بالفعل، أحيانًا تكون اللغة مختلفة قليلاً، ربما مع بعض المصطلحات الجديدة الملقاة هنا وهناك في محاولة لإثارة الأمور قليلاً، لكن لن يكتسب الفكر الأصولي والتقليدي أهميته في المجتمع المعاصر فقط بمجرد استخدام بعض المصطلحات الناشئة حديثًا من المجالات المختلفة، هذه مشكلة كبيرة عبر العالم العربي والإسلامي.

كيف نندمج في العالم المعاصر مع الاحتفاظ بقيمنا الروحية؟ عانى قادة الإصلاح والسياسيين مع هذا السؤال لسنوات. حاول محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) أن يجلب أفكاراً جديدة عن معنى الإسلام والمدنية (الديمقراطية، الممارسات الزراعية العلمية، معاناة المرأة والتعليم) في المجتمع المصري. كيف يحدث مثل هذا الاندماج دون أن نفقد هويتنا الإسلامية؟ هذا هو السؤال. رأى المسلمون الغرب ـ أوروبا أولا ثم أمريكا ـ كالتالي: نحتاج للتقدم العلمي والتكنولوجي لكي نحيا في العالم المتغير، العلم هو نوع خالص من المعرفة، ليس له أي قيم أخلاقية أو روحية، التكنولوجيا كلها جيدة، لكن حين تأتي للقيم التي تعرف إنسانيتنا، لا نقبل ما يقدمه الغرب، لأن القرآن والسنة وتقاليدنا المجتمعية كافية لتوضح لنا كيف نحيا حياة راقية. هكذا فرق المسلمون بين المنتجات والتكنولوجيا التي نتجت عن تطبيق الغرب للتفكير العلمي والتفكير العلمي نفسه، الأمر يشبه "أستطيع أن أستعير تكنولوجيتك، علمك، لكنني لست مهتمًا في التفكير الكامن خلف هذا العلم والتكنولوجيا، وأنا قطعًا غير مهتم بالطريقة التي تحيا بها حياتك"، لكن الأمر لم يكن بتلك السهولة.

شكلت أوروبا لغزًا للمسلمين، واتصل المسلمون معظم الوقت بالغرب عبر الاحتلال، وبنهاية القرن التاسع عشر كان البريطانيون قد نجحوا في احتلال معظم الهند. احتلت فرنسا تحت قيادة نابليون مصر في ١٧٩٨، ثم ذهبت للجزائر في ١٨٣٠، واحتلت تونس في ١٨٨١، ثم تحركت بريطانيا لمصر في ١٨٨٢، بالإضافة لرحلات الاستكشاف الأخرى بالعالم الإسلامي كجزء من برنامج الغرب الاستعماري.

تخيل بعض المصلحين المصريين والقادة السياسيين أنه من السهل أن نصبح جزءاً من أوروبا، وهي الفكرة التي رفضها البعض. أخذ هذا اللفظ وقته في مجتمع تقليدي، تخيل كيف كان الأمر لدى رؤية مجموعة من الجنود الفرنسيين يرتدون ملابس غربية ويصطحبون النساء في أماكن عامة. انبهر المصريون (وشعوب أخرى مستعمرة) بما يستطيع الغرب أن يقدمه: مكتبات، آلات طباعة، مكن يعمل بدقة. أوروبا كانت متقدمة وقوية، لكن الوجه الآخر كان وجه المحتل، العدو الذي نحاربه، كيف يمكن أن نحارب شيئًا نستفيد منه؟ هل يمكن أن نستمتع بثمار التكنولوجيا العلمية ونظل مسلمين مخلصين؟ لقد حاول عبده أن يضع حلاً لهذا المأزق.

ثم وقع حدث عظيم، سقوط الإمبراطورية العثمانية. كانت الإمبراطورية العثمانية هي المسيطرة على العالم الإسلامي ومهد الخلافة منذ القرن الرابع عشر، الخلافة هي نظام حكم يتكون من مركز ومؤسسة يحكم كل المسلمين، الخليفة هو القائد السياسي والعسكري الأول والوحيد، لكن لكي يصبح حاكمًا شرعيًا لا بد أن يرعى تطبيق الشريعة، وهؤلاء من يتدربون لتفسير قانون الشريعة. تبنت تركيا لاحقًا تحت لواء مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١ ـ ١٩٣٨) نظامًا علمانيًا مؤسسًا وفق آيديولوجية قومية. أنهت تركيا حكم الخلافة في ١٩٢٤، وكان هذا كفيلاً بإرسال موجات صادمة بالعالم الإسلامي كله، على الرغم من أن نظام الخلافة لم يكن يعمل كما في تاريخ الإسلام الأول، ظلت المؤسسة رمزاً لتوحيد العالم الإسلامي، وكان لسقوطها رد فعل عاطفيًا بين المسلمين.

حاول محمد عبده بشدة أن يوازن بين المدنية والتقليد، لكن المسلمين بعد خسارة رمز السلطة ـ الخلافة ـ شعروا بأنهم جردوا من هويتهم، ولام

الكثيرون الغرب على هذه الخسارة. من دون الخلافة بدا الأمر وكأنه عودة للجاهلية، في دلالتها، عادت سطوة القبيلة تهزم التفكير العقلاني.

حاول حسن البنا أيضا (١٩٠٦ ـ ١٩٤٩) أن يجد حلاً لهذا التوتر القائم بين التقليد والحداثة، وكما ذكرت سابقًا فهو مؤسس جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨، راقت هذه المؤسسة للمواطنين العاديين، ووصل عدد أعضائها للملايين في نفس العام. رأى البنا فضائل التقدم العلمي والتكنولوجيا، وكان على علم بأن مؤسسات مصر في حاجة للإصلاح والتجديد الروحي المبني على التراث الإسلامي هو جزء جوهري من مسيرة الإصلاح. بهذا التفكير أرسى البنا قواعد العديد من الإصلاحات الاجتماعية (بناء المدارس، المصانع، المستشفيات، وحتى حركة كشافة حديثة).

لكن الأمر الأكثر أهمية هو محاولة الإخوان المسلمين في البحث عن طرق لإعادة الخلافة مرة أخرى. كان هناك قادة سياسيون آمنوا بأن العالم الإسلامي لن تكون له فرصة في الالتحاق بركب المدنية ما دام المسلمون متمسكين بالإسلام، وبما أن الإسلام يبدو هكذا عائقًا في طريق المدنية فالتخلص منه هو الحل المنطقي. رد عبده على هذا الرأي قائلا: "نعم، المسلمون متخلفون، لكن لسنا متخلفين لأننا مسلمون، لكن لأننا لا نفهم الإسلام، لو نظرنا لتراثنا نستطيع أن نفهم ماذا فعل المسلمون في القرن السابع، الثامن، التاسع حين حكموا العالم"، المشكلة كما رآها عبده كانت في فهم الإسلام بطريقة صحيحة.

لاحقًا ومع التقارب الذي حدث بين العالم الحديث والمسلمين، تجمدت التقاليد وظهر تحول فكري، نحن لسنا متأخرون لأننا مسلمون، لكن لأننا لم نعد مسلمين، هذا يشكل فارقًا، الحل إذن في العودة للإسلام الحقيقي. كيف نعود إذن للإسلام الحقيقي؟ لعبت العديد من العوامل دوراً في تشكيل الطريق الذي اتخذه المسلمون في محاولة لاستعادة هويتهم. العامل الأكبر كان اكتشاف آبار النفط العظيمة في السعودية، والتي جاءت بالثروة والرخاء، ليس فقط للسعودية، وإنما للعديدين (الأساتذة، المفكرين، المعلمين، وآخرين) ممن انتقلوا للجزيرة العربية بحثًا عن حياة أفضل. أعتقد أن أحد أسباب ركود مصر له علاقة بخروج الآلاف من المصريين الذين ذهبوا لمنطقة الخليج للعمل والحصول على نفقات شقة وسيارة في بلادهم. بدأوا في الأوقات التي عملوا فيها بمنطقة الخليج في التعرف على الإسلام البدوي وهو إسلام يعلمك ألا تفكر، لا داعي للتفكير، لماذا، لأنه وفقًا لتراثنا الإسلامي فنحن نملك ينابيع المعرفة.

أصبحت الدول المنتجة للنفط في العالم العربي ثرية بشكل استثنائي، كيف؟ ليس من خلال العمل، ولكن بالحفر، الحفر يجلب الثروة، وإن كنت غير قادر على الحفر فلتستأجر أحداً يفعل هذا لك، والثروة ستأتي بهذه السهولة، يتدفق المال مع تدفق النفط. لماذا العمل؟ في جزء كبير من العالم الإسلامي يعد التفكير جهدًا كبيراً كالعمل، والناس لا يربطون بين العمل والرخاء، فقط لنحفر في الماضي ولنخرج الحلول المدفونة، الشيخ أو أي سلطة أخرى سيفسر الناتج، لا داعي أن تبذل أي مجهود.

هذه ليست فكرة الإسلام، لقد كان لنا تاريخ طويل من علماء اللاهوت والفلاسفة. . المهتمون بالشؤون السياسية يذهبون للقرآن لإيجاد حلول لمشاكلنا الحالية، لم نعد نحن نفعل ذلك. نجد حلولنا، لكن ليس من خلال القرآن والسنة، بل من خلال التنقيب في فهم أسلافنا للقرآن والسنة، هذا لا يصلح، إن كل جيل في حاجة لأن يفسر النصوص المقدسة بالطريقة التي تتناسب مع مشاكله الحالية ليكتشف حلوله الخاصة.

اليوم أن تفكر في شيء مختلف عن استنتاجات السلف هو كفر، هرطقة وردة، هذا حيث نجد أنفسنا نحن المسلمين. لم تعد مؤسساتنا التعليمية أماكن نتناقش فيها عن الأفكار وهي إحدى طرق خلق المعرفة للانسان. إنه من دون معرفة وآفاق جديدة، لن تستطيع الثقافة المضي قدمًا، لذا أشعر حين استشرف مستقبل مصر بكرب غير ضئيل.

الفصل العاشر

عـودة لائقـة

يتوق كل مصري أعرفه إلى أن يدفن بتراب مصر بعد وفاته، إلا أنني أخبرت ابتهال لو توفيت بالمنفى، فعليها ألا تعيد جثماني للوطن لدفنه. بعد أن أصدرت المحكمة حكمها بأنني مرتد، شعرت وكأن أمي نبذتني، كيف سأرقد في سلام وقد عاملتني بهذا الظلم؟ بعد فترة وجيزة من وجودي بالمنفى، قمت بزيارة إحدى جامعات واشنطن، وهناك قابلت أحد المصريين بحضر الندوة التي كنت موجوداً بها، سألني: "هل أنت جاد؟ هل أخبرت ابتهال ألا تعيد جثمانك للوطن؟"، أجبت بنعم، فقال: "لا بد أن يشعر كل مصري بالغضب تجاهك"، فأجبت فوراً: "أنت ترى مصر كمقبرة، لكنني أراها وطناً". لم يتغير موقفي قط، بل تأكد بعد ما حدث عام ١٩٩٨ مع وفاة نزار قباني الشاعر السوري المعروف. فعلى الرغم من وفاته في لندن، عاش كما لو كان بالمنفى في آخر ثلاثين عاماً بحياته في بيروت.

في ١٩٩٨ كان العالم الإسلامي يحتفل بالذكرى الـ٨٠٠ لوفاة ابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨) المعروف بأفيروس في الغرب. أحرقت كتبه،

وعاني من اتهامه بالهرطقة، لقد كنت دائمًا أرى ابن رشد كرجل تنوير، وجد تربة خصبة لتنميته في الغرب وليس العالم الإسلامي. الورقة البحثية الأولى التي نشرتها بعد أن تركت مصر، كانت عن ابن رشد. لمن ينتمي ابن رشد؟ من هي أمه البيولوجية؟ وكانت النقطة التي أردت إثباتها هي أنه الطفل الذي ولد مسلمًا تخلينا عنه ودفعنا به للمنفى.

حين توفي نزار قباني حمل جسده، كما جرت العادة، للمسجد لإكمال طقوس الدفن، لكن أجبر الموكب على التوقف قبل أن يصلوا للمبنى. وقف الإسلاميون كتفًا بكتف خارج المسجد مغلقين الطريق غير سامحين لجثمان الراحل أن يدخل المكان المقدس، لأنهم كانوا يعتبرونه كافرًا، ملحدًا. ربما كان يوصف قباني بأنه الشاعر المثير للجدل، لقد كتب عن الحب والنساء والجمال الحسي، ولأنه كتب بالعامية، لغة الجميع، كان شعره منتشرًا وسهل الفهم. كنت لتجد كتاب قصائده تحت وسادة كل فتاة، أو على الأقل هكذا تقول الأسطورة. وإن كان الشعر بالنسبة لبعض المسلمين غير أخلاقي في تناوله للدين، فالشعر للإسلاميين ـ وخاصة شعر قباني ـ هو الفسق بعينه.

حين رأيت كل ما أثير حول وفاة قباني، عضض هذا من قراري ألا يعود جثماني لمصر لو توفيت خارج حدودها. في النهاية كان قباني يشاع عنه أنه مرتد مثلي، ولم أكن لأتمنى لابتهال موقفًا مماثلاً لما حدث مع مراسم دفن قباني. بالطبع، منع جثماني من المسجد ربما لم يكن ليحدث في مصر، لكن ربما يكتب أحدهم مقالاً متسائلاً: "لماذا يدفن جسد هذا الرجل في

مصر، إنه ملحد؟". أردت أن أوفر على ابتهال هذه الحالة من إهدار الكرامة، أعلم كيف سيكون وقع الأمر عليها.

ظلت ابتهال تسافر بحرية متنقلة بين مصر وهولندا منذ ١٩٩٥، لكنني على الرغم من هذا لم أذهب لمصر ولو لزيارة قصيرة، إلا مؤخراً في زيارة لمدة أسبوعين بين ديسمبر ٢٠٠٢ ويناير ٢٠٠٣. الأمر المثير للسخرية أنني ما زلت أستاذاً بجامعة القاهرة، فلقد حصلت على لقب أستاذ قبل أسبوعين من صدور الحكم النهائي بارتدادي. (في ١٩٩٦ أوقف تنفيذ إجراءات الطلاق بأمر من المحكمة، لكن ظل حكم الردة سارياً)، وكنت كأستاذ بقسم اللغة العربية، كلية الآداب جامعة القاهرة، أجدد كل عام إجازتي، وأدفع قسط معاشي.

على الرغم من منصبي الرسمي كأستاذ، فإن جميع كتبي تم التخلص منها من مكتبة جامعة القاهرة. اتصل بي صحفي مصري بعد فترة وجيزة من نفيي، حين اكتشف اختفاء كتبي من أرفف المكتبة: "ما هو تعليقك؟"، كانت إجابتي عدم التصديق: "لا أصدقك. أنت تكذب لتحصل على تعليق مني، لا أصدق أن جامعة القاهرة يمكنها أن تفعل ذلك". وباتهامي إياه بالكذب، تصورت أنني أهنت الصحفي، لكن لحسن الحظ لم يؤاخذني على ذلك، وبدا أنه يقدر رد فعلي، وأكد لي كم هو ممتن لإجابتي الصادقة. ومع تكشف القصة أخبرني أنه ذهب لجامعة القاهرة باحثاً عن كتبي في المكتبة، لكنه لم يجدها، وباءت محاولاته بأن يحاور عميد الكلية بالفشل. نشر الصحفي هذه المحادثة التي أجراها معي تحت عنوان "أبو زيد يثق في جامعته، لكنها لا تبادله الثقة".

غضبت ابتهال لاختفاء كتبي من مكتبة جامعة القاهرة، وخلال زيارتها لمصر ذهبت هناك مصرّة على مقابلة عميد الكلية. واجهته بحقيقة ما حدث، سألته: "ماذا يحدث هنا؟"، اعترف بسخافة: "إنه أمر مروع، لكن لا أعرف عنه شيئًا"، أجابت: "حسنًا، أنت لا تعرف شيئًا، عليك أن تجري تحقيقًا". رفض العميد الأمر بإجراء تحقيق.. "هل تخبرني أنه على الرغم من عدم موافقتك على هذا التصرف، فأنت ترفض أن تجري تحقيقًا؟ لو أن الكتب تمت إزالتها من المكتبة يجب ألا تقول: لا أعرف من قام بذلك وتترك الأمر هكذا". لم تكن ابتهال خجلة من أن تمارس بعض الضغط.. "دعني أخبرك شيئًا عن أبو زيد، نحن هنا لا نتحدث عن زوجي، نحن نتحدث عن الأستاذ أبو زيد. لماذا لا تقوم برفد كل الأساتذة الذين منحوه درجتي الماجستير والدكتوراه؟ وبينما تفعل ذلك، لماذا لا تغلق القسم الذي تخرج فيه"، حملق العميد وساد الصمت.

بصراحة، كنت سعيداً أن ابتهال أجرت تلك المحادثة مع العميد. لو كنت قمت باتصالاتي بمن أعرفهم بجامعة القاهرة، لم أكن لأعرف كيف أوصل ما أريد قوله، لكنها نجحت في ذلك وبإيجاز. أزيلت كتبي من جامعة القاهرة عام ١٩٩٥، على الرغم من أنها لم تكن ممنوعة من مصر، يمكنك أن تجدها بسهولة في عدد من المكتبات، لكنها ظلت خارج التداول في جامعة القاهرة، ورسميًا لم يعرف أحد كيف اختفت هكذا.

بدأ بعض المفكرين منذ عدة سنوات في كتابة بعض الخطابات والمقالات بالصحف يتساءلون: "متى يعود أبو زيد؟ نحن في حاجة لشخص مثله، إن وضعه تحت الرقابة كما فعلت جامعة القاهرة لهو جريمة ضد

المؤسسة الأكاديمية". جاء هذا الجهد الساعي لعودتي للجامعة، بعد أن ظهرت في عدد من برامج التلفزيون في مصر ولبنان. وبدأ الشعب المصري يتساءل عن طبيعة الاتهامات التي أثيرت ضدي، بشكل واضح لم أبدُ في لقاءاتي بالتلفزيون كمرتد على الإطلاق. استضافني مراسلو الصحف والدوريات، وزملائي وأصدقائي كانوا دائمًا يقولون: "نحن في حاجة إليك، لماذا لا تأتي لمصر؟"، وقد أجبت عن هذا الطلب المتجدد في مقابلة منشورة[32].

أذكر أنني أخبرت ابتهال.. "أنا مستعد للعودة، لكن لتكن عودة لائقة". شرحت للشعب المصري أن عودتي الأولى لمصر بعد هذا الغياب الطويل لا تهدف لحدوث أي جلبة، كما لا أسأل تغيير حكم المحكمة، كان هذا بعيدًا عن أي سلطة بجامعة القاهرة. لكن لماذا لا تتم دعوتي لتقييم رسائل الماجستير والدكتوراه للطلبة الذين قمت بالإشراف عليهم؟ سيكون هذا اعترافًا رسميًا بأنني ما زلت أستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعة القاهرة، أردت من الجامعة أن تتصرف بأسلوب يبرهن هذه الحقيقة.

أخبرت العديد من أصدقائي في قسم الفلسفة.. "أنا مستعد لدفع نفقات دعوتي الخاصة للاشتراك في فعالية رسمية. كل ما أحتاج إليه هو أربع وعشرين ساعة من جذب الانتباه. فقط أريد أن تكون عودتي شيئًا

[32] مقابلة أبو زيد مع فتحي عامر، نشرت في جريدة العربي (نوفمبر ٧، ١٤ و ٢١ لعام ١٩٩٩) القاهرة.

يجعلني فخوراً، دعوة من الجامعة أن أشارك في فاعلية مهمة، ثم سنرى كيف ستسير الأمور بعد الزيارة الأولى، ألم يحن الوقت بعد؟ " .

مضت أربع سنوات على عرضي هذا. أعرف أنه كانت هناك جهود مبذولة من بعض زملائي بالقسم لإعادتي، لكن لم تثمر هذه الجهود عن شيء. الحقيقة القاسية التي يجب أن أواجهها هي أن جامعة القاهرة لا تريدني. بعض الأشخاص بالقسم كانوا بالطبع ودودين وداعمين لي، ورئيس القسم الحالي كان صديقًا مقربًا، تحدثنا مؤخراً عبر الهاتف، أخبرني: "لقد مددت إجازتك للعام الثامن، على الرغم من أن القانون يسمح لخمس سنوات كالحد الأقصى" ، أجبت: "نعم، نعم، هذا لطيف، أشكرك جدًا" . ثم أتبع قائلا: كيف أن الشعب المصري يقدر جهودي في عدم الصمت إزاء آثار الفساد الحكومي، خاصة بعد أن وصل داخل أسوار الجامعة. . "نحن سعداء بكل ما أنجزته وأنت بالمنفى" ، "نعم أفهم ذلك، لكن لماذا هو مستحيل أن تدعوني لأكون عضواً محكّمًا في لجنة تحكيم الرسائل العلمية" ، أكد لي. . "لا، هذا ليس مستحيلاً، لكن الأمر أنه لا يوجد رسالة تُحكّم الآن تنتمي لتخصصك" ، سألته: "هل هذا صحيح؟ واحدة من طلابي تخرجت منذ أسبوعين" ، حاول إظهار صدمته: "فعلا؟" ، وأجبت: "نعم بالفعل" ، لقد تواصلت معي، بل وأرسلت لي رسالتها قائلة: "أنا خجلة من إرسال هذه الرسالة لك، إنها ليست ما كنت أتمنى كتابته، لكنك لم تكن هنا. فلنتظاهر أن هذه مسودة وأنا على استعداد لكتابتها مرة أخرى" .

أخبرت رئيس القسم. . "هذه طالبتي، أقل ما كان على القسم فعله هو دعوتي، أنا المشرف السابق، ليكون عضواً باللجنة المحكّمة. هذا هو التقليد الأكاديمي المتبع، أدرك أن عودتي للقاهرة ستكون صعبة حاليًا، لكنك تخبرني بالعكس، أريد منك أن تصارحني، وتحدثني بأمانة، لا تجعل الأشياء تبدو جيدة فقط لأننا صديقان"، فأجاب: "أنا آسف، هذه جامعة شنيعة، وهذا قسم شنيع، يجب أن تكون سعيدًا أنك لست معنا". حين يشوه الناس الحقائق أرتبك وأصاب بالإحباط، فلتكن صريحًا معي، ولا تعطني أعذارًا، ولا تخبرني بهذا الهراء. . "توجد عوائق أمنية تجاه عودتك للجامعة في هذا الوقت".

لم تنقطع صلة ابتهال بالقاهرة، تسافر كل بضعة أشهر أحيانًا لتزور والدتها، وأحيانًا لتشارك في ندوات ومؤتمرات جامعة القاهرة، كما أنها عضو محكّم لرسائل الماجستير. ينتابني الحزن حين أنظر للمستقبل، وأتأمل الحقيقة المحتومة، وهي أنني لن أطأ بقدمي جامعة القاهرة، إلا لسبب قهري من قبيل إمضاء بعض الأوراق. لقد توقّفت عن التفكير في أنني سأحصل يومًا ما على دعوة لائقة للاشتراك في الحياة الأكاديمية لجامعة القاهرة. في النهاية، أبلغ من العمر ستين عامًا الآن، وهي السن التي يتقاعد فيه معظم المصريين، ويبدأون في الحصول على معاشاتهم. مع مرور الوقت أجد نفسي أكثر غضبًا، إن جامعة القاهرة فشلت كمؤسسة أكاديمية في إحدى مهامها وهي طرح ونقاش الأفكار. هذا المكان المقدس لم يعد موجودًا، تبخّر واختفى بفعل النظام الفاسد للحكومة، ونتيجة لذلك يعاني المصريون.

لقد كنت دائمًا ضد لعب دور الضحية، لذا تعجّبت من نفسي، حين أدركت أنني أنزلق ببطء لهذا الدور. وجدت نفسي مكتئبًا، أنتظر رد الجامعة بلايدن لتخبرني ما إن كانوا سيعرضون عليّ منصب كرسي أستاذ دائم، وفي انتظار رد جامعة القاهرة لتشركني مرة أخرى في الحياة الأكاديمية، أنتظر وأنتظر، ثم بدا لي أن كل هذا الانتظار يمتص طاقتي النفسية، والتي كان من الممكن أن أستخدمها لأستعيد السيطرة على حياتي مرة أخرى. حان الوقت أن آخذ منعطفًا جديدًا لأستعيد ببطء طاقتي.

خلال يونيو ٢٠٠٢ سافرت مع ابتهال لإسطنبول لحضور ورشة عمل، شعرت بالتحسن لخروجي من روتين العمل. سألتني ابتهال كيف أود الاحتفال بعيد ميلادي ـ عيد ميلادي بشهر يوليو ـ: "لا أريد هدية، لا شيء"، هكذا أجبت متفاجئًا بحساسيتي تجاه الأمر، لكن ابتهال غير مقتنعة بإجابتي، وأنا مرهق من تصميمها، انفجرت قائلا: "ألا تفهمين؟ لا أريد هدية"، شعرت حينها بالخجل، ها هي تحاول أن تفعل شيئًا لطيفًا من أجلي وأنا أتعامل معها في بهذه الطريقة الساذجة والعنيدة. سألت ابتهال: "ماذا بك؟"، "لا أدري، سئمت كل شيء، المستقبل يبدو غامضًا. أشعر وأن حياتي ليست في يدي، أنا الذي كنت متحكمًا بها منذ أن بلغت الرابعة عشرة من عمري. أما الآن ماذا حدث؟ خرج كل شيء مني هكذا، لم يحدث أن تحدثت بهذه الكلمات بصوت عالٍ من قبل.

قالت ابتهال: "انظر للأمر من هذه الناحية، أنت غاضب لأن جامعة لايدن لم تعطك المنصب، لكنك أستاذ معروف على مستوى العالم، ألم ترَ السعادة على وجه كل من تحدث لك في الورشة؟ افتح عينيك، أنت تجعل

من نفسك ضحية، نحن بخير، صحتك بخير، خسرت بعض الوزن، حالنا جيد، لماذا أنت غاضب؟ لقد كنت شخصاً يتقبل حياته كما هي". عليّ أن أعترف أنني شعرت أن الظروف في حياتي كانت تضغط عليّ. . "أنا في حاجة لاتخاذ قرارات حول ما سأفعله بحياتي"، وعلى الرغم من هذا التأكيد، فإنني شعرت بأنني أنزلق لاكتئاب عميق.

بعد العودة لهولندا من إسطنبول، ذهبت ابتهال لمصر، وعادت بعد قضاء شهر مع والدتها، بعد ذلك بقليل اتجهت لجامعة القاهرة لتقوم بتدريس فصل الصيف. بعد رحيلها، أصبحت مشتتًا، بل ويائسًا، ظللت أبحث عن الرجل القوي الذي كنت عليه، وزاد قلقي وخوفي من الوحدة، شعرت كما لو أن الموت يترصدني في كل ركن. ذهبت للطبيب وأخبرته بكل هذا، وكنت على اتصال بابتهال أكثر من مرة يوميًا. أخبرتني: "أنت تنتظر أن يتحكم أحد في حياتك، أنت الوحيد الذي يحتاج إلى أن يستعيد حياته مرة أخرى"، بالطبع كانت هذه الحقيقة. لقد حان الوقت أن أستولي على هذا الثور من قرونه.

كنت قد بدأت التخطيط لعودة لائقة لمصر، وكانت الفكرة أصبحت تتملكني قبل أن تسافر ابتهال للتدريس فصل أغسطس، لماذا كنت أنتظر، أدور حول نفسي كل هذا الوقت؟ وبدلاً من أن أتخذ قراري، ترددت بقرار زيارتي لمصر طوال خريف عام ٢٠٠٢.

في ديسمبر - اليوم الذي سبق رحيلي لمصر - بعثت لي إستر بمسودة هذا الكتاب، وأجبتها فوراً مخبراً إياها عن خططي للسفر. . "أنا راحل لمصر غداً وأشعر بالتوتر الشديد". لم يعرف أحد شيئًا عن عودتي سوى

ابتهال وعائلتي. حين أخبرت إيستر شعرت ببعض الشجاعة لاستكمال ما بدأت. لم أنتظر من جامعة القاهرة دعوة لعودة لائقة، وكم كان مريحًا أن أتصرف بنفسي، وأخطط شكل زيارتي الأولى لمصر بعد نفيي منها في ١٩٩٥. زيارتي الأولى لمصر جددت ثقتي، وسمحت لي بالتركيز بشكل أوضح على واقعي. عدت في يوليو ٢٠٠٣، لأتسلّم معاشي وبقية حقوقي كمواطن مصري. لقد كان العيش بالمنفى مرهقًا، كما لو أن أحد شراييني قد قطعت، وخسرت قدرًا كبيرًا من الدماء، ولم أعد قادرًا على الاستمرار، لكن هذه الزيارة أوصلت شرايين رسغي المقطوع مرة أخرى بجهازي الدوري وتوقّف النزيف.

في ليلتي الأخيرة بالقاهرة، حضرت عشاء مع العديد من الضيوف، كان أحدهم مسئولاً حكوميًا له وزنه، بعد التحدث معه بدا لي واضحًا أن عودتي لجامعة القاهرة للاشتراك بالحياة الأكاديمية أمر غير وارد الحدوث. اجتمعت بالعديد من أصدقائي وزملائي، وقد ساعدتني زيارتهم على التواصل مع الحياة التي كانت لي قبل ثماني سنوات. المرة القادمة سأكون قادرًا على رؤية المزيد من الأصدقاء، كانت هذه زيارة قصيرة، قضيت ثلاثة أيام منها بقريتي قحافة، وخمسة أو ستة أيام وحدي مع ابتهال في الساحل الشمالي لمصر، يومًا مع عائلتها بالقاهرة، ويومين في عشاءات شبه رسمية.

لدى ذهابي لقحافة أردت أن أكون بمفردي، لم تعرف ابتهال في البداية بأمر سفري، لكنها كانت مرتعبة من فكرة ذهابي لهناك وتركها بالقاهرة. عدت للقاهرة بعد ذلك بثلاثة أيام، حين رأتني ابتهال انفجرت قائلة: "للعامين الماضيين كنت تتحدث دون انقطاع عن الموت، ثم تقرر أنه

حان الوقت لزيارة مصر، وحالما تصل إلى هنا بالطبع تريد أن تزور قحافة من دوني؟ كيف يجب أن أفكر؟ الإجابة الوحيدة التي جاءت بذهني أنك تريد أن تموت هناك في سلام!". . كانت تتحدث وهي ترتجف بشكل واضح. أكدت لها. . "لا، لقد وصلت لاستنتاج خاطئ، أردت زيارة قريتي في سلام، بمفردي، لا يوجد شيء أكثر من هذا".

تمنيت أن أزور ابن عمي الأكبر سيد، الرجل الذي صار لي رمزاً أبوياً بعد وفاة والدي. لم أصل للمنزل في الوقت المناسب، توفي سيد في ٩ سبتمبر ٢٠٠٢. لدى وفاته، كانت ابتهال بمصر على وشك البدء بالتدريس، واتصلت بي في لايدن اليوم التالي. عرفت من نبرة صوتها أن الأخبار التي ستقولها سيئة. . "أكره إخبارك بذلك، لكن سيد توفي الصباح الماضي"، تملكها القلق حين ساد الصمت. . "هل أنت بخير؟"، أجبت: "نعم، أعتقد". تركت مكتبي بجامعة لايدن، ولاحقاً بعد انقضاء منتصف الليل هاتفتها: "أنا متعب"، كان هذا كل ما استطعت قوله، قالت: "سأعود للايدن، أنا لم أبدأ العمل بعد"، لا، لم أكن لأطلب منها شيئاً كهذا، لكن شيئاً حدث لي جعلني أخبرها. . "أنا مفتقدك بشدة". . "نصر، الأمر ليس أنك تفتقدني، لكنّ هناك شيئاً ما يعتمل بداخلك، أنت تشعر باليتم للمرة الثانية". بعد أن أنهيت المكالمة، أدركت أنها كانت على حق، ها أنا رجل ناضج يقترب من سن التقاعد ويشعر بداخله كيتيم.

لوّن الغضب الحزن الذي شعرت به، غضب تجاه والدتي، لو لم تكن قد تخلّت عني، ربما كنت استطعت أن أساعد سيد كما ساعدني وعائلتي لسنوات عدة. أخبرتني ابنة سيد في زيارتي الأخيرة. . "لا تشعر بالأسف،

كانت أيامه الأخيرة مليئة بالألم، لو رأيته لم تكن لتشعر سوى بالراحة لرحيله، وتخلصه من هذه المعاناة" ، ارتحت قليلاً لدى سماع هذا.

اجتمعت مع إخوتي (أولادي) في قحافة، أعددنا لاجتماع عائلي خاص من دون زوجات أو أزواج، حتى ابتهال كانت غائبة. شعرت فقط بأنني أريد الاجتماع بالأولاد حولي، كما لو كنت دجاجة تجمع حولها فراخها الصغيرة، أحتضنهم وأهدهدهم، وأسد الثقوب التي حدثت بيننا بسبب غيابي الطويل. لقد تأثرت بشكل خاص بآيات ومشاكلها الزوجية، مشاكل لم أكن أعرف عنها شيئًا إلا في زيارتي الأخيرة. تزوجت آيات عام ١٩٨١ ليس بعد وقت طويل من رجوعي لمصر من الولايات المتحدة، رزقت هي وزوجها بثلاثة أطفال، اثنين منهم يدرسان بالجامعة حاليًا. حالما قررت آيات الزواج، بدا أنهما متسرعان للغاية، أتذكر أنني أخبرتها.. "دعينا ننتظر لنرى كيف تتطور الأمور بينكما". لم يكن أي منهما على استعداد للانتظار، وشرعا في تنفيذ مشاريعهما فوراً. بصراحة، لم أكن أشعر بالارتياح لدى سماع صوت آيات، شعرت بأن زوجها المستقبلي كان مصراً على أن يجعل كل شيء يسير حسب رؤيته هو ووفقًا لما يريد، كان يتحكم في كل شيء بحياتهما، لكنني أخبرت نفسي.. "لا تحكم على زوج أختك بمقاييسك الخاصة".

ها أنذا بعد غياب طويل عن مصر، وجدت آيات تفضي بمكنون صدرها وهي تبكي فوق كتفي.. "في زيارتي الأولى لمصر (زوج آيات عمل لسنوات بالسعودية) فكّرت فعليًا في طلب الطلاق" ، عادت آيات لمصر في ١٩٨٢ بعد وقت قليل من وفاة والدتنا. وعلى الرغم من أنني هاتفت

زوجها في السعودية طالبًا منه أن يخبر آيات عن وفاة والدتنا قبل وصولهما مصر هذا الصيف، فإنه لم يجد أبدًا طريقة يوصّل بها هذه الرسالة، لذا جاءت مصر وهي لا تعلم أن والدتنا قد توفيت، حين وصلت طائرتها سألتني في الطريق من المطار بالتاكسي: "كيف هي أمي؟"، قلت: "آيات، والدتك كانت مريضة جدًا قبل أن تتوفى"، واحتضنتها باكية. أخبرتني أنها لم تستطع استكمال اجراءات الطلاق في ١٩٨٢ بعد وفاة والدتها، قالت: "أين كنت سأذهب؟". عادت آيات لمصر من السعودية بعد مضي بضع سنوات، وقرر زوجها البقاء بالجزيرة العربية لاستكمال عمله. أرادت أن يلتحق أولادها بمدارس مصرية، لشعورها بعدم الارتياح حيال المدارس السعودية، وعدم تسامحها مع غير المسلمين. بعد انتقالها لمصر جاء ابنها في يومه الأول بالمدرسة مرتبعًا، سألته: "ماذا حدث؟"، أخبرها أنه جلس بجوار طفل مسيحي. في السعودية يعلم الأطفال شفهيًا في المدرسة مجموعة من الأسئلة والأجوبة.. "من هو ربك؟ ربي الله"، هنا سأل الولد زميله الجديد.. "من هو ربك؟" أجاب الطفل: "الله هو المسيح"، في السعودية بالطبع يعدّ هذا كفرًا، لذا لم يرد ابن آيات أن يعود للمدرسة مرة أخرى قائلاً: "لقد جلست بجوار كافر، ملحد". وجدت أن آيات استخدمت رغبتها في تعليم أولادها بمدارس مصرية حجة لكي تبتعد عن زوجها. لم تستطع أن تواجه زوجها بمدى إحباطها من هذا الزواج. المثير للسخرية أنه ترك السعودية بعد فترة وجيزة من إحضار آيات أطفالها لمصر بسبب سياسة الدولة نحو السعودة ـ الاتجاه ناحية إشراك المواطنين السعوديين في الوظائف التي كان يتقلّدها الأجانب في بداية اكتشاف النفط.

في هذه المرحلة لم تكن آيات تعرف الطريقة التي يمكن بها أن تحرر من هذا الزواج، وبالتالي شعرت بالعجز واليأس. شجعتها على الذهاب للعائلة، والحياة بشكل مستقل قليلاً من دون خوض تجربة الطلاق. أخبرتها أننا على استعداد دعمها أيًا كانت قراراتها. أعتقد أنها بالنهاية أرادت بعض المساحة لنفسها لتتعلم أن تعتمد على ذاتها، وكان هذا هو ما يدور بذهني وأنا أشجّعها لنيل المزيد من الاستقلالية، فقد كان زوجها يتحكم بها باستمرار. لم يكن لدي فكرة كم كانت تعيسة كل هذه السنوات.

كنت سعيداً بإصراري على الاجتماع بإخوتي وحدنا، كان لدى جميعهم قصص ليروونها، ومع استماعي لهم بدأت أتواصل مع ما حدث لهم. قصة آيات هي من لمستني بشكل كبير، كنت أتواصل مع شعورها بالعجز واليأس، ألم أكن أمرّ بنفس الحالة؟ ألم أشعر أنني أفقد السيطرة على حياتي ولا أعلم إلي أين تتجه؟ لقد كنت أتحدث لنفسي أيضًا حين أخبرت آيات كيف يجب أن تتحمل مسئولية حياتها.

أما ابنتي التي اختارتني، شيرين، فلم تبدُ سعيدة حين علمت باجتماعي بإخوتي في القرية بمفردي. سألتني: "ما هي الحكمة وراء فعلك هذا بمفردك؟ لماذا لم تأخذ ابتهال معك؟ وهل كنت سأحضر هذا الاجتماع لو كنت موجودة هناك؟ أشعر كما أنك لو كنت تعاملني كابنتك مجازاً. تذكر أنني ما زلت ابنتك، ابنة من لحم ودم، سواء أحببت ذلك أم لا".

أرادت شيرين أن تقابلني في المطار، لكنني لم أكن أريد لأي أحد أن يستقبلني سوى ابتهال. لم أكن متأكداً كيف سيجري المشهد بأكمله بعد

ثماني سنوات من الغياب. أكدت لشيرين. . "هذا لا علاقة له بأي مجاز، بالطبع أنت ابنتي، لم أكن أريد للأمر أن يسير بأي شكل آخر".

كان الوصول لمطار القاهرة غريبًا، ما إن هبطت الطائرة، حتى شعرت أنني تركت مصر البارحة، وللغرابة لم أشعر بأي مشاعر قوية من أي نوع. لم تأخذ إجراءات الخروج من المطار والجمارك سوى بضع دقائق، مع كل البيروقراطية المعروفة بمصر. سألني موظف الجمارك. . "هل لديك شيء تعلن عنه؟"، فأجبته ببساطة: "لا"، فابتسم لي قبل أن يقول: "حمدًا لله على سلامتك يا أستاذ"، أعجبني وقع الجملة. أؤمن بأنني سأعود يومًا ما لمصر لأستقر بها نهائيًا، وربما سأعمل من منزلي أستقبل الطلاب الراغبين في التواصل معي، بالطبع لا أرى فرصة للعمل مع جامعة القاهرة، بل وربما أجد صعوبة في أن أجري حديثًا وديًا مع أي من زملائي السابقين، لكن رحلتي مؤخرًا كانت كل ما آملت من أجله، عودة لائقة.

الفصل الحادي عشر

النظرية والتطبيق

حين أقوم بعملي كباحث في مجال الدراسات الإسلامية، أبحث بدقة عن الممارسات التي ابتدعها القرآن، ممارسات لم توجد قبل أن يتلقى محمد الوحي، وحين أجد ظاهرة كهذه أسجّلها. أغوص في النص عند نقطة الاتصال هذه لتطوير وإحياء الفكر الإسلامي، من خلال هذا أستطيع القول إنني أتحرك في نفس اتجاه كلمة الله. أنا مقتنع أن هؤلاء من يتصورون أن كل ما ذكر بالقرآن هو ملزم ويجب الامتثال له وتتبعه حرفيًا يتحركون ضد كلمة الله، وأعتبره أمرًا هامًا بالنسبة لي أن أكون متحكمًا بالاتجاه الذي يسير به البحث.

على سبيل المثال، بالنسبة للعقاب على ارتكاب الجرائم، فإن الغاية التي ننشدها هي تحقيق العدالة، ومن أجل تحقيق العدالة يحتاج المجتمع أن يعاقب من يقومون بالجرائم ضده، لكن صورة العقاب المذكورة بالقرآن هي تعبير تاريخي عن العقاب الذي كان يحدث في مجتمع معين في زمان ومكان محدد، إنها ليست توجيهًا إلهيًا. إن العقاب على الجريمة هو مبدأ حين يطبق

تتحقق العدالة، والعدالة هي مبدأ يعكس الصورة العالمية والإلهية لكلمة الله، والعقاب هو جزء من إنشاء مجتمع عادل، لكن الشكل الذي يتخذه يحدده الظرف التاريخي، أي أنه ليس ثابتًا.

يجب أن تكون قراءة مدارس الفكر الإسلامي التقليدية تدريبًا على النقد، ماذا حقق أسلافنا، وماذا يمكن أن نضيف أو نطوّر نتيجة لما حققوه؟ استنتجت من خلال بحثي ودراستي أن أهداف القرآن التي اتفق عليها الفقهاء منذ الأزل تم استنتاجها من القانون السائد في القرن السابع بالجزيرة العربية، وليس من خلال رؤية الإطار العام للقرآن الكريم بأكمله.

الهدف الأول "الحفاظ على الحياة" نشأ من الأمر بعدم قتل النفس بغير حق، فالقصاص حسب المفهوم القرآني مقبول فقط من أجل الحفاظ على الحياة نفسها، واستنتج هدف "الحفاظ على العقل" من اتجاه القرآن في أمره بالابتعاد عن الكحول، وجاء "الحفاظ على الممتلكات" من تحريم السرقة، ويمكن تتبع هدف "حماية النسل" في العقوبات ضد الخيانة، أمّا "الحفاظ على الدين"، فالقرآن لا يذكر عقوبة أرضية ضد من يديرون ظهرهم للإسلام، وهؤلاء من يرفضون الإيمان بعد أن آمنوا وظلوا على كفرهم سيعانون في الحياة الآخرة. لاحقًا ظهرت عقوبة الموت لارتداد فرد عن الإسلام كطريقة للحفاظ على السلطة السياسية في المنطقة.

يحتوي القرآن على قانون العقوبات المسمى "الحدود"، وهو مجموع الآيات التي تشير إلى عقوبات محددة لعدد من الجرائم، وهو ما نحتاج لقراءته مرة أخرى من أجل أن نفهم التعبير الخاص بكلمة الله في ضوء عالمنا المعاصر. لو نظرنا للحدود في سياقها التاريخي، سنرى كيف أنها تعكس

واقعًا تاريخيًا معينًا، لكنها لا تعكس أوامر إلهية ملزمة، على سبيل المثال النفس بالنفس، العين بالعين، رجم الزاني، قطع يد السارق، إعدام المرتد، كل هذه العقوبات كانت مفعّلة، سواء قبل نزول القرآن أو بعد نزول الوحي. القرآن لم يبتدع هذه العقوبات، وإذا لم يبتدعها القرآن بنفسه فلا يمكن أن نعتبرها قرآنية. لقد تبنى القرآن أشكالاً محددة من العقوبات مستقاة من قلب تقاليد المجتمع قبل مجيء الإسلام، من أجل اكتساب المصداقية.

العقاب هو مبدأ قرآني، لكن هل يجب أن يتحول شكل من العقوبة أدخل في جسد النص من مصدر آخر إلى أن يعتبر قرآنيًا وبالتالي ملزمًا لمجتمع المؤمنين؟ نستطيع أن نقول إن القرآن يقودنا لفهم أن هؤلاء من ارتكبوا الجرائم يجب أن يعاقبوا، هذا صحيح، لكن القرآن يؤطّر نفسه داخل ممارسات مقبولة في زمن معين. أما المجتمع الحالي فله كل الحق، بل ويجب عليه أن يؤسس لعقوبات بشرية للجرائم، وهذا لا يعدّ بأي شكل من الأشكال انتهاكًا لكلمة الله.

اتخذ القرآن في القرن السابع بالجزيرة العربية شكلاً معينًا من أجل أن "يفهمه" الناس، لو أننا رفعنا من قيمة الظرف التاريخي ووضعناه في مرتبة مقدسة، فإننا بذلك ننتهك كلمة الله، وهو ما حدث حين جمّدناها في زمان ومكان معينين، فهي الكلمة المطلقة التي تتخطى السياق التاريخي الذي نحاول التمسك به. لو أن أي ممارسة ذكرت بالقرآن لها أصل من مرحلة ما قبل مجيء الإسلام، يهوديًا كان أو رومانيًا أو أي شيء آخر، فهذا يعني أن ذكرها بالقرآن لا يجعل منها قرآنية، وبالتالي فهي غير ملزمة لمجموع المسلمين.

ماذا عن العبودية؟ العبودية هي نظام اجتماعي اقتصادي ذكر بالقرآن وكان حقيقة تاريخية، لكن الإنسان طوّر من تفكيره منذ القرن السابع، ولم تعد العبودية ممارسة مقبولة في معظم أنحاء العالم، كيف نستعمل كلمة الله لنشرّع بها هذا النظام المشين الذي لم يعد يطبق؟ لو أننا شرعنا شيئًا كهذا، فنحن نجمّد كلمة الله في سياق تاريخي معين وهي المتخطية لذلك. إن العبودية ليست شيئًا قرآنيًا، وعلى المشرّعين المسئولين في العالم الإسلامي عن تطوير القانون أن يطبّقوا جرعة صحية من التفكير النقدي وهم يقومون بوظيفتهم في محاولة إقامة مجتمع عادل، مجتمع يتحرك في اتجاه تطبيق كلمة الله.

الأمر الآخر الذي يجول بذهني حين أقوم بأبحاثي هو البحث عن الأهداف النهائية التي يرمي لها القرآن. نعلم بالطبع من أجدادنا كيف استطاعوا استنتاج معاني القرآن؟ كيف قرأوا النص؟ ونحن نضيف لما حققوه قواعدنا الحديثة لتحليل النص والتحليل التاريخي وتأويل النص. دعنا على سبيل المثال نبحث عميقًا في مبدأ العدل، هذا المبدأ المنتشر في كل سور القرآن، وأحد أسماء الله الجميلة. يستخدم القرآن في حضّه للناس على تجنّب الممارسات الفاسدة، رمز الميزان ككناية عن العدل ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة المطففين ١ ـ ٦)، حتى نماذج الآخرة قائمة على مبدأ العدل، العالم كله، بل الكون مقام على مبدأ العدل ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا

حَاسبينَ" (سورة الأنبياء، ٤٧)، وتحقيق ميزان العدل هو ما يتحدث عنه القرآن في أكثر من موضع.

تهدف جميع قصص وأوامر القرآن إلى تحقيق العدل بالمجتمع، والذي يظهر بوضوح كأحد أهدافه الرئيسية. لقد تشكّل القرآن في المجتمع المكي - مجتمعًا ظالمًا في عدة أشياء - يقهر فيه الأغنياء الفقراء عن طريق الربا، لماذا إذن كان على اللغة التي حرّمت الممارسات الربوية أن تكون قوية وحاسمة؟ لأن مكة التي كانت تقع في وسط طرق التجارة بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها كمصر والأردن وسوريا وتركيا، تمتّع فيها المواطنون المكيّون بالامتيازات والمكانة وأصبحوا فاحشي الثراء بسبب التجارة، أمّا الفقراء الذين لم يستطيعوا دفع ديونهم فكانوا يجبرون على اقتراض الأموال من الأغنياء عن طريق الربا لكي ينقذوا أنفسهم، وتوضح العديد من القصص كيف أن الأثرياء استغلّوا الضعفاء في المدن التي كانت تقع في طرق التجارة بالشرق الأوسط. ظهر القرآن كنص في منتصف هذا الواقع القاس والبائس، حيث استخدم الربا في سياق هذا الواقع بشكل خاص كأداة أدامت الممارسات الظالمة.

لماذا يهتم القرآن بهذه الصورة بالأيتام والضعفاء والفقراء؟ محمد نفسه كان يتيمًا فقيراً، توفي والده قبل أن يولد واتخذه عمه بعد وفاة جده، فقد والدته في سن السادسة، ولأن عمه كان فقيراً للغاية، عمل محمد في بداية حياته، لذا فقد انتمى لطبقة "من لا يملكون" في مجتمع كان فيه "من يملكون" يتباهون بثرواتهم، ولا يهتمون أبداً بمن يعيشون على هامش العالم أو كما نقول حاليًا داخل الشقوق.

لذا تقف المعارضة والنقد الشديد بالقرآن لممارسة الربا في مواجهة الصدقة، وهي ممارسة يأمر بها القرآن كوسيلة لتحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية، فكلاهما مرتبط ببعضهما البعض. يعطي القرآن صورة جميلة للمتصدقين، من يمنحون المحتاجين دون أن يعرضوهم للإحراج، هذه الصورة تتقاطع مع صورة المرابين الذين يلعنهم الله. إن الله لا يحمل حبًا للفاسدين والخطائين. . "يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقات وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّار أثيم. إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحات وأَقامُوا الصَّلاةَ وآتَوا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عندَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ منَ الرِّبا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمنينَ. فَإنْ لَمْ تَفعَلُوا فَأْذَنُوا بحَرْبٍ منَ اللَّه ورَسُوله وَإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أمْوالِكُمْ لا تَظلمُونَ وَلا تُظلَمُونَ. وَإنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ وأنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعلَمُونَ" (سورة البقرة: ٢٧٦ ـ ٢٨٠).

خلال العقود الثلاثة الأخيرة الماضية، أنشئت البنوك الإسلامية في جميع أنحاء العالم، مدّعية أنها تسير حسب نهج اقتصادي لا يمارس الربا. لكن حين تدقق بالأمر، فهذه البنوك لا تتعامل بأي شكل يختلف عن النظام البنكي الموجود المعتمد على الفائدة. تجاهل العديد من المشرّعين الظروف التي صاحبت منع الربا، وبالتغاضي عن السياق القرآني، يتخذ الجدل حول الربا موقفًا متصلبًا. أصبح السؤال هل المعاملات المالية في النظام البنكي الحديث المعتمدة على فائدة ثابتة على المدخرات والقروض بالفعل ربا؟ هذا يغفل جوهر القضية. لقد حرّم القرآن الربا لأنه كان يقهر الفقراء، وإن كان قد ذكر بالقانون الإسلامي كممارسة مقبولة في بعض الحالات. الباحثون

الإسلاميون المعاصرون لا يعتبرون الفائدة الموجودة اليوم في النظام البنكي معاملة ربوية، لكن الفقهاء الذين يتشبثون بتلك الحلول المناسبة لعصر آخر (القرن السابع بالمجتمع المكي) يؤمنون بأن أي فائدة هي ربا، وبالتالي هي حرام.

حين يتناول القرآن أي موضوع، العالم، الكون، الطبيعة، الله وأفعاله، الحياة الاجتماعية أو الآخرة، يكون العدل هو محور الحديث، فهو المبدأ الذي يشكّله. وفي ضوء تركيز القرآن على مفهوم العدل، أجد الأمر مفاجئًا أن هذا المبدأ غائب تمامًا عن قائمة الأهداف المتّفق عليها في الإسلام التقليدي، إذ إنه يجب أن يكون على رأس القائمة، وإن كان هناك صراع بين العدل والحرية ـ فالعدل هو من يجب أن يسود. أعتقد أنه لهذا السبب نجد أن مبدأ الحرية في القرآن مقيد لحد ما، حتى مع فهمنا الحديث للحرية، الحرية كهدف قرآني، لابد أن تنظرٌ داخل إطار الهدف الأساسي وهو العدل[33].

إن فترة الجاهلية المعروفة في الغرب باسم "عصر الجهل"، وهو التعبير الذي لا ينقل المعنى تحديداً، تشير بشكل خاص إلى فترة ما قبل الإسلام، الوقت الذي سبق مجيء محمد وقبل نزول الوحي عليه، وتشير إلى سلوك يستند إلى القانون القبلي، وهو القانون الذي يفرض على أفراد القبيلة أن يخضعوا لها مهما كان الأمر، ويدينه القرآن. (إنه شبيه بالتعبير الأمريكي،

---

[33] للاطلاع على دراسة وتطور مفهوم العدالة بشكل شامل، انظر Nasr Abu Zaid, "The Qur'anic Concept of Justice," Forum for Intercultural Philosophizing 2 (2001): 1–43

"دولتي، صوابًا أم خطأً") طبقًا للقانون القبلي فالفرد ليس له صوت، بل منتظر منه أن يتبع أوامر القائد ويتبعه مغمض العينين. يدين القرآن هذا القانون، يحثنا على اتباع ضمائرنا، المبنية على القانون القبلي صوابًا كان أم خطأً، عادلاً أم ظالمًا، جيدًا أم سيئًا. هنا نرى القرآن يأتي بشيء مختلف، شيء يتناقض مع القانون القبلي.

إن لغة القرآن بالنظر إلى البدو الذين سكنت قبائلهم الجزيرة العربية قاسية. كلمة "عربي" لا تذكر حتى بالقرآن، فقط كلمة "أعرابي" وهي كلمة مساوية لكلمة "بدوي"، وتستخدم دائمًا بشكل سلبي. نستنتج من هذا أن مبادئ القرآن هي في مضمونها تتعارض مع القانون القبلي، وبالتالي فالقرآن يعتبر القانون البدوي القبلي متمبًا للجاهلية، فالمبادئ القرآنية مبنية على مبادئ الحرية والعدل وحرية التفكير التي تؤدّي إلى مجتمع عادل. لذا لو كانت قبيلتك ذاهبة للحرب من دون سبب، فهذا لا يعني أنك أنت الفرد مجبور على الذهاب معهم. بهذه الطريقة يؤسّس الإسلام لمجتمع يذهب بعيداً عن نظام القبيلة. كان هذا جزءاً من الإسلام: إقامة هذا المجتمع، الحرية تفهم كطريقة للخروج من دائرة الاتباع الأعمى للتقاليد ونسخ الماضي.

إذا نظرت للمجتمعات العربية والإسلامية، ستجد أنه في معظم الوقت لم تأتِ أي سلطة باختيار الشعب، إمّا نظام عسكري، عائلة ملكية، أو شخص ورث الحكم عن من سبقه، وأحيانًا تجد أن النظام الحاكم اتّخذ له اسمًا جديداً وارتدى مظهراً معاصراً، لكن إذا ذهبت لما هو أبعد من السطح، سترى نفس الشيء القديم. العقلية القبلية حية وبخير، القانون هو الطاعة، كل مؤسساتنا السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية والأكاديمية لها

بنيان سلطوي. حتى المفكرين لهم سلوكهم القبلي المميز لهم، فأنت إما تنتمي لليمين أو لليسار، ومن الأفضل ألا تعارض القانون الذي تتبعه قبيلتك الفكرية، وهذا حال بالغ السوء.

على سبيل المثال، حين بدأت مفاوضات السلام التي أفضت لمعاهدة أوسلو في ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣، وقف العديد من المفكرين مع إقامة اتصالات وتعاون بين الأراضي الفلسطينية والإسرائيلية، من قبيلة المفكرين يمينًا أو يسارًا، قالوا إنهم مع خيار السلم. لكن هل لو قال فريقان إنهم مع خيار السلام يعني هذا أن لهم نفس الآراء المتطابقة حول هذا الموقف؟ ليس بالضرورة. على العكس من ذلك رأى بعض أعضاء القبيلة الفكرية فرصة قائمة للتحدث من خلال جبهة موحدة، وهو ما لم يحدث أبدًا. المجموعة التي ناصرت مفاوضات أوسلو وصفت المعارضين بالغباء والتخلف والانتماء للعالم القديم. رد الفريق الرافض في المقابل بنعت متهميه بأنهم خونة، يستخدمون خيار السلام لتآمرهم مع العدو للوصول إلى السلطة. لقد ذهلت، أي نوع من الخطاب هذا؟ لو أننا ندّعي أننا نبحث عن السلام، ونحن داخل قبيلة المفكرين غير قادرين على تحمل آرائنا المختلفة، فيمكننا أن نيأس بسهولة.

أردت الكتابة عن هذا النمط من الخطاب القبلي، وكان هذا قبل صدور قرار المحكمة العليا في قضيتي. لكن منى، محاميتي، نصحتني.. "لن أقوم بفرض الرقابة عليك، وأعرف أنك ضد أي نوع من أنواع الرقابة. بالطبع لك كل الحق أن تكتب ما تريد، لكن لو كتبت شيئًا له طابعًا سياسيًا، دعني ألقِ نظرة. لا أريد لأي شيء أن يستخدم ضدك بالمحكمة".

هكذا رأى أيضًا على الشلقاني زوج منى، مفكرّ شيوعي، لعله من الأفضل ألا أنشر مقالي. لقد مرّ برحلة طويلة بائسة أصبح بعدها من مؤيدي السلام. مع استخدام هذه اللغة السياسية، أتهم بالارتداد السياسي من هؤلاء المنتمين للوسط السياسي، الأمر الذي لا يختلف عن تهمة الارتداد الديني، لو اختلفت مع القبيلة فأنت تطرد منها. اتصلت بمنى حينما كان هذا يحدث لزوجها "انظري يا منى، أنا لا أدافع عن زوجك أو أي من مجموعته في كتابتي، بل أدافع عن نزاهة الحياة الفكرية. قد أتفق أو أختلف مع زوجك ومجموعته، لكنني لا أدينهم كمرتدين سياسيين. لذا سأرسل لك بالمقال عن هذه الأجواء الجنونية التي تحدث في المجتمع الفكري". أجابت: "اسمع، أنت بالفعل متهم بأنك مناصر للغرب، هل أنت على ثقة من رغبتك في فعل المزيد لإثبات هذه التهمة؟".

أذكر أن شخصًا ما بالأردن قال: "انظر لهذا الرجل (نصر أبو زيد) ربما ستجد والدته كانت يهودية"، وقمت بالرد على هذا "الاتهام" بقدر كبير من الفخر: "أنت لا تعرف والدتي، وحتى لو كانت يهودية فهي ما زلت والدتي. لا يوجد شيء خاطئ بكونك يهوديًا، لكن الخطأ كل الخطأ أن تكون مسلمًا غبيًا".

رفضت لعبة القبيلة، وبالتالي أصبحت واحدًا من هؤلاء المفكرين العرب المهمشين. بصراحة وجدت شيئًا من الراحة في هذا التهميش، فأنا لا أحاول أن أكون في بؤرة الضوء، لأنه فقط من الهامش أستطيع أن أهدد المركز. لو كنت انضممت للمركز، لم أكن لأحدث تأثيرًا كبيرًا على تطوير الفكر الإسلامي، ويعلم الله كيف أن العالم العربي والإسلامي في حاجة

ماسّة لرؤية ضرورة تطبيق طرق البحث الحديثة على حيوات الأفراد وعلى المجتمعات.

حين طبّقت منهجي النقدي على قضية المرأة، رأيت كيف أنها تقع في قلب مبادئ العدل والحرية، وهما الهدفان الرئيسان بالقرآن. السورة الرابعة من القرآن اسمها النساء، توضح الآية الافتتاحية أن الله خلق الإنسان من نفس واحدة، ومن هذه النفس خلق الله زوجين ومنهما خلق البشرية. . "يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" (سورة النساء ١). في هذه الآية نجد وحدة الخلق والبشرية، الذكور والإناث خلقوا من نفس واحدة. في التفكير المسيحي القصة القائلة بخلق حواء من ضلع آدم تم تضمينها بالفكر الإسلامي، وأصبحت جزءاً منه. أنا واعٍ بأن سفر التكوين يعطي قصتين حول خلق الانسان، واحدة منهما تتماشى مع الفهم القرآني (ليس فكرة أن حواء خرجت من ضلع آدم)، لكن في القرآن سورة النساء تبدأ بإقامة الوحدة والمساواة بين الناس، كانت هناك روح واحدة وهذه الروح قسّمها الله لاثنين، ومنهما جاء الجنس البشري.

دعونا نفكّر في تعدد الأزواج، وهو الأمر الذي لا يفهمه معظم المسلمين جيداً. تعدد الزوجات كان ممارسة تاريخية موجودة في المجتمعات قبل ظهور الإسلام، من الخطأ تصور أن الإسلام ابتدعه. نعم يتحدث القرآن عن تعدد الزوجات، لكن الآية دائمًا ما تشرع التعدد لحماية الأيتام المحتاجين للحماية والوصاية بعد فقد ذويهم في معركة أحد (٦٢٥). آنذاك

فقد المسلمون عشر الجيش ـ سبعين مقاتلاً ـ تاركين وراءهم الكثير من الأطفال اليتامى. يوضح السياق التاريخي، كما التحليل النصي، أن الإذن بالزواج كان ممنوحًا لزواج امرأة أو فتاة يتيمة، لحمايتها بذلك في هذا المجتمع بالتحديد، المجتمع الذي ينقض على الأرامل واليتامى من الإناث ويسرق ما يرثنه، وهو ما أدانه القرآن. . "وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ" (النساء: ٣).

الظرف بالجملة الثالثة شرطي، لو أنك متأكد من القدرة على معاملة الأيتام بالعدل فمسموح لك مثنى وثلاث ورباع من النساء، عن ماذا يتحدث النص؟ العدل هو الهدف، والوسيلة لتحقيقه في هذه الظروف الخاصة يأتي من ممارسة تعدد الزوجات. تعدد الزوجات كان حلاً لإقامة مجتمع عادل، الجمع "اليتامى" هنا جمع مؤنث. التركيز كان على تحقيق العدل لليتامى، لو أن هذا ليس ممكنًا، هناك حل، من أين يأتي هذا الحل؟ من ممارسة قادمة من عصور ما قبل الإسلام.

لقد أساء العرب القاطنون بالجزيرة العربية في القرن السابع الهجري معاملة الأيتام، وأنكروا عليهم حقوقهم، استولوا على مواريثهم، وجعلوهم عبيدًا في منازلهم. كان هذا الحال السائد، لذا يسأل القرآن: لو أنتم أيها العرب بهذا الطمع، لماذا لا تتزوجوهن؟ الزواج يقيم علاقة من نوع جديد. سيكون الزواج طريقة لإقامة مجتمع أكثر عدلاً، لذا فإن الحل المؤسس من قبل القرآن ليس تأسيسًا لممارسة تعدد الزوجات. لقد استخدمت هذه الممارسة لحل مشكلة حقيقية في القرن السابع، وهي وجود

اليتامى. تعدد الزوجات كان ممارساً بالفعل، لذا لا يمكن أن نقول إنه قانون قرآني. إنه ليس قانونًا، بل هو حل لمشكلة ملحّة وتاريخية، العدل هو الإطار العام.

استنتجت من خلال بحثي أن القرآن لا يفضّل تعدد الزوجات، ولأنه يحاول تحقيق العدل، فقد أدرك أنه حتى لو اختار العرب مسار زواج اليتامى، فهدف تحقيق العدل سيظل بعيد المنال. لا أستطيع القول إن القرآن ضد تعدد الزوجات، سيكون هذا قفزاً فوق التاريخ، لكنه يقترح تعدد الزوجات كحل لمشكلة اجتماعية، وبما أنه لا يفضّل هذه الممارسة، فمهمة الفقهاء تشريع قانون حكيم يضع قيوداً على استخدام هذا الأمر. بهذه الطريقة يطوّر الإسلام من المجتمعات في الاتجاه الذي تريده كلمة الله: إقامة مجتمع عادل. وبالنظر لظروفنا الحالية، فتعدد الزوجات هو إهانة للمرأة كما هو للأطفال. يتملكني الغضب لغياب أي مناقشة جادة في الفكر الإسلامي الحديث حول الآثار التي قد تكون لتعدد الزوجات على الأطفال. الأسئلة التي ظلّت لقرون طويلة، هل تعدد الزوجات مسموح به في القرآن؟ هل هو شرعي؟ لقد حان الوقت لنسأل ماذا عن الأطفال؟ ما هو الأثر الذي يتركه أمر كهذا عليهم؟ لا بد أن نضع هذا في حسباننا أولاً: القرآن هدفه الأول والأخير إقامة مجتمع عادل.

حين ننظر لتلك الآيات القرآنية المتحدثة عن النساء، لا بد أن نضمّنها في سياق العدل. لو اتضح أن بعض الممارسات بالقرآن تتعارض مع هذا الهدف، فالسياق يمكن دائمًا أن يفسرها. على سبيل المثال، ضرب الزوجات، الأمر مذكور بالقرآن ولا يمكن إغفاله. لذا يكون التفكير

كالتالي، لو أن الضرب ذكر بالقرآن، فأنا لي الحق أن أضرب زوجتي. أتذكر أستاذاً في الجامعة الإسلامية بروتردام قال في حوار إن القرآن يبيح للرجل أن يؤدّب زوجته بضربها، إن هذا التفكير ليس فقط محصوراً على الأصوليين، بطريقة ما لو أن شيئاً ذكر بالقرآن فيظن الناس أنه مسموح به. من الممكن الإقرار من وجهة نظر أكاديمية أن القرآن يسمح بأن يضرب الرجل زوجته ليؤدّبها، لكن لو أن كل شيء ذكر بالقرآن اتخذ بحرفية كقانون إلهي، وجب على المسلمين أن يعيدوا إحياء ممارسة العبودية كنظام اجتماعي اقتصادي. فهو مذكور بالقرآن، أليس كذلك؟

حين نتحدث عن أمر أنه قرآني، نتحدث عما جاء به القرآن كممارسة جديدة، وبالتالي فهو أمر ملزم للمسلمين. هناك فرق بين تاريخية القرآن وكلمة الله في شكلها المطلق، ها قد عدنا مجدداً لطبيعة القرآن المزدوجة، البشرية والإلهية (حسب التفكير اللاهوتي المسيحي، فليس كل ما قاله المسيح كان يعبّر عن حديث ابن الله، في بعض الأحيان كان المسيح يتصرف كمجرد رجل). القرآن هو طريقة للتواصل بين الله والبشرية، حين نأخذ الجانب التاريخي لهذا التواصل كمقدس، فنحن نعلق كلمة الله في زمان ومكان محددين، نحد من المعنى القرآني لوقت محدد بالتاريخ، والأفضل والأكثر إخلاصاً لكلمة الله اكتشاف الجانب الديناميكي للقرآن والذي استطاع أن يشكّل حياة المسلمين عبر عدة قرون، في صراعهم مع سؤال "كيف أكون مسلماً جيداً في عالم متغير؟". لماذا إذن حين نقرأ فقرات من القرآن تذكر المرأة، تكون القراءة مرتكزة على الجانب التاريخي وليس هدف إقامة العدل؟

عوداً لموضوع تعدد الزوجات، يقول القرآن: "وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيمًا" (النساء ١٢٩)، لو أنك تظن أنك ستكون عادلاً مع زوجاتك فهذه الآية تنفي هذا التصور.

لقد نبعت هذه المشكلة كممارسة مجتمعية قادمة من عصر ما قبل الإسلام ثم اختلطت بتعاليمه، هذا الخلط وجد نفسه ممزوجًا في المجتمعات الإسلامية ومفروضًا عليها. اسم السورة "النساء" نفسه محيّر، فالمسلمون يتصورون تسميتها بذلك من أجل الموضوع الذي تعالجه، وليس الهدف الأكبر الذي تبحث وراءه وهو العدل. يدور موضوع السورة بالفعل عن النساء، لكن ببساطة كان من الممكن أن يدور حول الحرب أو الفقراء، العدل هنا هو الهدف الأكبر، وحسبه يمكن للمشاكل الاجتماعية الملحّة أن تدرج.

تأتي آية القوامة.. "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا" (سورة النساء: ٣٤) تحتاج الترجمة الإنجليزية لهذه الآية لمراجعة، فالكلمة العربية "القوامة" تترجم على أنها "الحماية"، ويفهم المسلمون هذه الكلمة على أنهم "أرقى" بمعنى أن الرجال مسئولون ماديًا للنفقة على عائلاتهم. السؤال هنا: هل القرآن هنا يصف فقط الأمر السائد؟ أم أنه يأمر

بذلك ويحضّ المؤمنين على مواصلة هذه الممارسة؟ يرى العديدون أنه أمر، لكن بالبحث في السياق المصاحب للآية نجد رؤية مختلفة ورائعة للأمر.

جاءت امرأة للنبي محمد تستدعي على زوجها أنه لطمها، أجاب محمد ببساطة "القصاص"[٣٤]، ما يمكن ملاحظته هنا هو أن محمداً كان يذهب لأبعد من القيود التاريخية التي وضعت على المرأة. (هذا الحديث دائمًا ما يخلق العديد من ردود الفعل السلبية من الرجال المسلمين). تؤكد كلمة الله دائمًا على المساواة بين الرجال والنساء، لا يوجد اختلاف في العقوبات أو المكافآت التي سيجنيها كلاهما في الآخرة، لو أن هناك مساواة في الحياة الآخرة، فكيف لله أن يضرب صفحًا عن عدم المساواة في المجتمعات الآنية؟

هناك مساواة في عملية الخلق نفسه، وبين المسلمين في ممارسة الشعائر والواجبات الدينية. لقد رأينا كيف أن القرآن لا يفضل تعدد الزوجات، وكيف أن الهدف الأعظم من وراء القرآن هو تحقيق العدل؟ فكيف نفهم أن القرآن يتجه نحو الدعم المادي، ضرب الزوجات والإرث؟ الرجال لهم الأفضلية على النساء نتيجة لمشاركاتهم في نفقات الحياة، هذا لا علاقة له بقيمة الإنسان. المجتمعات البشرية على الرغم من هذا ساوت الثروة بالقيمة البشرية، وهو ما أخل بتوازن القوى بين الرجال والنساء بشكل ظالم. فالرجال نتيجة لوضعهم في مجتمعات أبوية، يجنون أكثر من النساء، هنا أفهم من هذه الفوقية أن القرآن يشير للمسئولية.

---

[٣٤] جلال الدين السيوطي، أسباب النزول المسمى "لباب النقول في أسباب النزول"، طبعة دار التحرير ١٩٨٩.

وهذه الكلمة هي نفسها المستخدمة لوصف عمل الله ووظيفته في المحافظة على هذا الكون، القوة بالطبع موجودة، لكن التأكيد ينصب على فعل المسئولية. نتحدث عن الله بكونه "قيوم" السماوات والأرض، المحافظ على نظام سير الأشياء، والمحافظ على العالم من الدمار. يستخدم القرآن الكلمة نفسها مع الرجال، القوامين، فهم مسئولون عن الأسرة، الأمر له علاقة بالمسئولية أكثر من السلطة، وإن كانت المسئولية بالطبع تتضمن بعض السلطة. في العصور الحديثة ونتيجة للتغيرات التي أثرت في مجتمعاتنا، وبالتالي في تكوينها، يمكن للنساء أن يكنّ قوّامات. لو أن المرأة هي المصدر الرئيسي لدخل الأسرة فهي الأعلى. التحليل النصي يظهر أن الله يعتبر بعض الناس أعلى في مرتبتهم (مسئولين) اعتماداً على مشاركاتهم المادية. الصفة المذكورة قد تستخدم مع النساء أو االرجال، وتفتح احتمالية التأويل، لكن بالطبع لو أن المرأة هي المصدر الوحيد للدخل، وبالتالي مسئولة عن حماية الأسرة، فهي قوامة. السياق الذي يذكر ضرب الزوجة يدور حول الوضع الذي يهدد فيه سلوك الزوجة استقرار العائلة، وبالتالي بقاء المجتمع. التعبير "نشوز" يعني "تخطي الحدود"، فيقول القرآن بأن لو امرأة تخطت الحدود، فلا بد أن تعاقب على سلوكها. لو أن هذا غير ناجح فهي تعرّض نفسها للعقاب، قد يرفض زوجها مشاركتها الفراش أو يضربها. (القرآن يذكر أيضاً لو أن الزوج تخطى الحدود كشكل موازٍ للنشوز).

تجدداً هل هذه عقوبات خاصة مذكورة بالقرآن "كلمة الله" أم أنها تعكس السياق التاريخي؟" أعتقد أن هذه العقوبات كانت حلاً تاريخياً

للمشاكل الاجتماعية المعاصرة. بالطبع، بعض النساء لم يكن ليعتبرن أن هجر الزوج للفراش هو عقوبة. نحن نتعامل هنا مع القرآن كنص تاريخي جاء للوجود في وقت كانت فيه الأبوية هي النظام السائد والمؤسس في الثقافات عبر العالم. البطريركية تعني حرفيًا "حكم الآباء"، وهو نظام اجتماعي تسود فيه "سيطرة" شخص أو شيء (الرجال فوق النساء، الرجال فوق العبيد، الملوك فوق الممتلكات، النخبة فوق العامة، الإنسان فوق الطبيعة).

ترى الرؤية الأبوية الأمور من خلال نظرة متمركزة حول الذكر، وحتى النساء يستطعن، بل ويعدن إنتاج هذا النظام في حياتهن، وتحرص القواعد الجندرية التي يفرضها المجتمع على الرجال والنساء على أن تظل الرؤية الذكورية هي السائدة. إن نتائج أي ثقافة (والقرآن كنتاج لثقافة معينة) تعكس كيف هي الأشياء في مجتمع ما، لغة النص تضع نفسها في حقيقة مادية معينة، الحقيقة التي تعبّر عن نفسها من خلال الميل الأبوي، إلا أن كلمة الله الحقة تتجاوز النص. لقد تناول جزء من أبحاثي كيفية التفريق بين الجانب البشري والإلهي للقرآن.

قبل أن يظهر الإسلام بالجزيرة العربية في القرن السابع لم تكن المرأة ترث شيئًا، الابن الأكبر كان يحصل على كل شيء، وجاء الإسلام ليغيّر هذا. "يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ

دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا" (النساء: ١١). لو أنك وافقت على قراءة هذه الآية بأنها تقيم تغييرًا - النساء لهنّ الحق في أن يرثن - وتقف عند هذا الحد، لا بأس. لكن قراءة أعمق للنص توضّح أنه ليس حول إقامة حقوق المرأة، لكن حول تقليل حقوق الرجل. القرآن هنا يسير في اتجاه المساواة بين الرجل والمرأة، إنها خطوة في الطريق الصحيح، يجب أن تحصل النساء على نصيبهن في الإرث كما الرجال.

"للذكر مثل حظ الأنثيين".. تركّز هذه الآية على نصيب الرجل، وليس على نصيب المرأة، افترض أن التركيب مختلفًا؟ لو أن النص يقرأ "للأنثى نصف حظ الذكر؟ هذا يعطي معنى مختلفًا، لو أن الآية القرآنية بدأت "للنساء أن يرثن.." سنعلم أن القرآن مشغول بتحديد نصيب المرأة لكنها تبدأ "للذكر.." هنا نجد أن القرآن مشغول بتحديد ما هو نصيب الرجل، تذكّر قبل الإسلام كان الذكر يحصل على كل الميراث، القرآن هنا يحدد من نصيب الذكر وليس تحديد نصيب الأنثى. أعتقد أن ظن القرآن هنا هو التحديد، وهذا هو تركيز النص، وتحديد ما يحصل عليه الذكر ليس بالضرورة تعريفًا لما يجب أن يحصل عليه، بل القول "لا يحصل على أكثر من"، تاركًا الأمر له احتمالاته المفتوحة التي قد تتضمن ما هو أقل من ذلك، الرجال يجب ألا يذهبوا لأبعد مما يذكره القرآن.

متحدثًا من وجهة نظر نحوية، فالقرآن يحد من نصيب الرجل بالميراث، فهو لا يعطي نصيبًا مطلقًا للرجال أو النساء، وترك للمجتمعات الطريقة التي تسير بها قوانين التوريث والتي تعكس المساواة بين الجنسين.

هذا البنيان لا يجمدنا في حدود رقمية معينة. كيف نفهم "آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا"، ليس لأن الآية تذكر القانون الجاهلي في السلوك أن يعني هذا بالضرورة أن القرآن يحاول إرشاد المؤمنين أن يتخطوا رابطة الدم لمن يؤول لهم الميراث، بل على العكس فقراءة معارضة القرآن المستمرة للقانون القبلي تقترح أن هناك تضمينًا لو أننا ذكرنا أن النبي محمدًا ذكر بشكل واضح أن ميراثه يوزّع للخير، نستطيع أن نقترح أن نظام الوراثة العام هو محكوم تاريخيًا.

الكثير من العمل يتوسّل لنا أن نقوم به في مجال الدراسات الإسلامية. لقد شهد القرن التاسع عشر صحوة في العالم العربي والإسلامي للعديد من الأسباب التي فقدت وقعها، وعلى الرغم من هذا استمرت عملية إصلاح الفكر الإسلامي بالتفريق بين ما هو تاريخي وما هو إلهي من القرآن. أنا لا أعتبر عملي استثنائيًا، لم آتِ من فراغ، وأعدّ نفسي ضمن هؤلاء القليلين الذين حاولوا أن يظل القرآن مناسبًا للحياة الحديثة، وقد شهدنا مقاومة قوية. هذه هي أسباب تلك المقاومة، واحد من تلك الأسباب ينشأ من غياب ما أطلق عليه "السوق الحر للأفكار". إن تقبل السوق الحر بمعناه الاقتصادي في المجتمعات الإسلامية لا يشتمل على تقبل مثل هذا السوق في مجال الأفكار. في العالم العربي والإسلامي تتحكم الحكومات تمامًا في الاعلام، لا يوجد مكان للتفكير والتطور.

يوسف إدريس أحد الكتاب المصريين المعاصرين (كاتب مسرحي وروائي) قال إن كل الحرية التي يتمتع بها العالم العربي والإسلامي غير كافية لفرد واحد، وأتفق معه في ذلك، فالسلطة السياسية بمصر هي سلطة

قمعية. في زيارتي الأخيرة لمصر تحدثت لمحامٍ مصري، واحد مما يشهد لهم بالحظوة في المجتمع المصري، عن تعيين القاضية تهاني الجبالي، أول قاضية بالمحكمة العليا. أخبرني: "تعرف أنا جد ليبرالي، لكنني لست سعيداً على الإطلاق أن تعين امرأة قاضياً"، نظرت له متعجبًا "لمَ لا؟"، أجاب: "لأن القاضي لا بد أن يكون رجلاً له خبرة، يتنقل من محافظة لأخرى، وبين القرى، معاينًا للأدلة، الأمر قد يكون خطيراً. أنت تعرف الروتين". لقد سمعت كل هذا من قبل، تحت الادعاء بحماية المرأة، نقوّض من نشاطاتها، مناخ يدعو لعدم المساواة بين الرجل والمرأة. العديد من المسلمين ليبراليين ومتفتحين، لكن حين يأتي الأمر للمرأة يحتمون جميعًا بآيديولوجية قديمة. مع اكتشاف الاستنتساخ واحتمالية أن تتكاثر المرأة وحدها يجعل الرجال - العرب منهم على وجه الخصوص - يشعرون بالتهديد. العديد من المسلمين يشيرون للآية التي توضح أن الحياة تنبت من زوجين، وبالتالي يرفضون مناقشة الأمر لأبعد من هذا، مدّعين أن القرآن حسم الأمر منذ زمن بعيد. الديمقراطية، العقلانية، الحرية، ليست أمور موجودة بوعينا. عادة كما في حالة هذا المحامي غير السعيد بتعيين تهاني الجبالي لمحكمة مصر العليا تظل هذه المفاهيم بأذهاننا. لم نشرك هذه القيم في الطريقة التي نحياها، ولهذا تكمن السهولة في أن يتحدث هؤلاء الرجال المفكّرين عن المرأة وحقوقها، وهم يعاملون زوجاتهم بسخرية واحتقار.

دعاني أحد معارفي لزيارته بمنزله لتناول العشاء مع زوجته وعائلته، كنت قد قابلته لتوّي ولم أشعر بالارتياح تجاه هذه الدعوة، لذا قلت: "لا تستطيع أن تفاجئ زوجتك هكذا بإحضار ضيف للمنزل لتناول العشاء"،

أكد لي "لا لا لا تقلق، إن زوجتي كريمة ومضيافة"، لم أشعر بالراحة تجاه هذا الموقف، ولم أكن لأفاجئ ابتهال بتلك الطريقة. قبلت الدعوة على مضض، منصورًا أن هناك اتفاقًا ما بينه وبين زوجته حول إحضار الضيوف للمنزل لتناول العشاء. حين دخلنا منزله، استقبلتنا زوجته بكرم، خلع الزوج معطفه وألقاه دون بال، ثم صفق ثلاثًا كعلامة لزوجته أنه يريد شيئًا "سجائر. أحضري سجائري"، كانت سجائره في معطفه، نفس المعطف الذي ألقاه منذ قليل عبر الغرفة. أي نوع من الحرية تلك؟ أين الاحترام، بخاصة أمام ضيف؟ ربما قد يتصرّف رجل هكذا وهو وحده مع عائلته، موضحًا كم هو مدلل، لكن أن تفعل ذلك أمام ضيف! لقد كان هذا تصرفًا عاديًا، يحدث يوميًا. أوضح لي هذا التصرف كيف أن الفجوة متّسعة بين ما يتحدث به الناس عن العدالة والحرية، الحديث الذي ما زال بحاجة لأن ينعكس على الطريقة التي يحيون بها. بشكل واضح لم نضمن هذا الحديث في حياتنا أو حتى وضعناه في السياق الأكاديمي، إنها النظرية التي لم تصل حتى الآن للتطبيق.

الفصل الثاني عشر

استشراف المستقبل

بينما كنت أشاهد في رعب المشهد الحزين لاحتراق برجي مركز التجارة العالمي في مواجهة خلفية سحاب نيويورك التي تسطع بها الشمس في أحد أيام سبتمبر عام ٢٠٠١، كان أول ما جال بخاطري "لا يمكن أن يكون ذلك حقيقيًا". بدأ المشهد في الاختفاء قليلاً، لكنه ترصّدني بالتدريج، سينقلب العالم بسبب هذا الاعتداء رأسًا عى عقب، وسيكون رد الفعل قويًا، هذا دم أبيض، ليس كدم الفلسطينيين المعتدى عليهم منذ سنوات، والذي اعتاده العالم واستمرت معه الحياة. الآن أنا لا أغضّ الطرف عن انتقاد القيادة الفلسطينية، وأؤمن بأن ياسر عرفات هو رأس النظام الحكومي الفاسد، لكن بشكل ما لا يُنتبه للفلسطينيين الذين يقتلون يوميًا بذات الطريقة التي انتبه بها العالم للاعتداء على برجي مركز التجارة العالمي ومبنى البنتاجون.

مع شروق شمس ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١، كنت قلقًا للغاية، بل ومكتئبًا حيال مستقبل عالمنا، لقد خسرت العديد من الأصدقاء المسلمين

والأمريكيين الذين حوصروا في هذا الحريق، لم أشعر بمثل هذا الحزن مع كل الأزمات التي عاصرتها مع عائلتي وجامعتي وبلدي.

منذ عامين انتحرت الممثلة المشهورة سعاد حسني، أو على الأقل هذا ما بدا لنا أنه سبب وفاتها، كانت إحدى الأيقونات الثقافية المعروفة في فترة شبابي، سندريلا مصر كما لقبت، مؤخراً كنت أتحدث مع ابتهال عنها وسألتها.. "هل تعتقدين أن الاكتئاب قد يودي بشخص للانتحار؟".

كان هناك الكثير من اللغط حول ملابسات وفاتها، سعاد كانت مكتئبة بالفعل، دفعتها ظروفها المرضية لتناول الكورتيزون كعلاج، مما أكسبها الكثير من الوزن وأفقدها صورة السندريلا التي عصفت بحياتها المهنية. نظرت لي ابتهال نظرة طويلة وأجابت ببساطة: "نعم"، مدركة للحالة التي أمر بها، أضافت: "لكن لا يوجد خطر أنك ستصل لهذا الحد"، سألتها: "ما الذي يجعلك متأكدة هكذا؟"، أجابت: "لأنك تحب الناس، تحب أن تكون معهم، مهما كنت مريضاً أو غاضباً، تحب التحدث للناس، وأعتقد أن هذا هو ما سيحميك من الوصول لهذا الحد".

كنت أعرف أن إنعزالي عن الآخرين كفيل بمضاعفة إكتئابي، لذا لم أكن أريد الدخول في تلك الحالة. لاحظت أن أي تغير أحدثه في حياتي يكون بمثابة مضاد للاكتئاب، أجد نفسي دائما في البحث عن طرق للتغيير أو فعل شيء جديد، مؤخراً حلقت لحيتي، وحاليًا أحاول فقد بعض الوزن، لو فقدت بعض الوزن ربما أشعر بالخفة، من يدري؟ قد يرفع هذا من معنوياتي، ومن أجل هذا سافرت إلى برلين.

خلال خريف عام ٢٠٠٢، عملت بمعهد الدراسات المتقدمة ببرلين، كزمالة ممنوحة لي عام ١٩٩٦. كان من المفترض أن أكون موجوداً هناك عام ١٩٩٧، لكن التوقيت لم يكن مناسبًا، فقد تلقّيت دعوة حينها بالمكوث في جامعة لايدن لمدة ثلاث سنوات بعد أن اتخذ القرار بنفيي، في الفترة ما بين عام ١٩٩٥ (السنة التي نفيت بها) وحتى ١٩٩٨، لم يكن معقولاً أن أترك منحة لمدة ثلاثة أعوام لألتحق ببرنامج لمدة عام واحد فقط في برلين. تفهّم الزملاء هناك تفاصيل وضعي وظللنا منذ عام ١٩٩٦ وحتى الآن على تواصل، حضرت كل مؤتمراتهم وندواتهم، وفي عام ٢٠٠١ انخرطت مع اللجنة هناك للعمل على مشروع عن التأويل الإسلامي واليهودي للنص، كان المشروع في بداياته فبدا أنه الوقت المثالي للذهاب. وعلى الرغم من إحباطي من وضع العالم، وبخاصة أثره على الإسلام، قررت أن أركز على عملي حتى بعد أن تلقى تفاؤلي حيال المستقبل ضربة قاصمة.

منذ القرن السابع وحتى التاسع عشر (حين بدأ الاتصال بين قارة أوروبا والعالم الإسلامي) لم يكن هناك وجود لفكرة أن الإسلام دين ودولة، هذا الدمج هو مبدأ حديث. لقد فرق الإسلام دائمًا بين الحاكم على سبيل المثال السلطان أو الخليفة والمشرّع أو الفقيه، إلا أنه مع بداية القرن التاسع أصبح التفسير الحرفي للقرآن هو التيار السائد في العالم الإسلامي، وكان هذا لسوء الحظ. التفسير الحرفي يؤدّي إلى الأصولية التي تتلاعب بالدين في سبيل حيازة القوة، ونحن بالفعل شهدنا العديد من القادة السياسيين عبر التاريخ ممن فعلوا ذلك. بالطبع استخدام الله للحصول على السلطة ليس بالأمر الجديد، فهذا تقليد متبع، لكن على الرغم من هذا فقد

كان هناك تفريق واضح على مدار تاريخنا بين السلطة السياسية والدينية، فالسلطان أو الحاكم أو الخليفة أو الملك لم يكونوا سلطات دينية.

ما يقدمه القرآن للمسلمين ليس أسلمة الحياة ولا الفصل الكامل بين الدين والحياة، لكن فصل الدين عن الدولة هو أمر ضروري لحماية استغلال الدين، وهذا لا يعني تنحية الدين عن المجتمع. القرآن في نصه الأصلي لا يعطينا نظرية سياسية، ولا يتبنى أي مبادئ سياسية، بالطبع هناك دلائل حول ممارسة السياسة في الجزيرة العربية خلال القرن السابع، وقد أعطانا القرآن دلائل حية وتفصيلية عن الكيفية التي حكم بها المجتمع الجديد للمؤمنين نفسه، لكنه لا يشير إلى شكل معين من الحكومة، فهذا أمر متروك للمسلمين تحديده.

أعتقد بقوة في فصل الدين عن الدولة كضرورة لحماية الدين من التلاعب السياسي. حين تعلن الدولة عن اتباعها لدين معين، يعاني من ينتمون لدين مختلف من الاضطهاد، بالإضافة إلى أن من ينتمون لدين الدولة، لكن لا يشاركونها رؤاها الأصولية (رؤية من يملكون السلطة للدين) يصبحون عرضة للاتهام بالكفر أو الهرطقة. أما الدولة العلمانية ـ التي لا تعطي لدين معين حصانة رسمية ـ تتيح للدين المساحة التي يحتاج إليها لملاءمة حاجات الناس، إما هذا أو يصبح الدين سلاحًا في أيدي من يملكون السلطة.

حين حاولت أوروبا، ومن بعدها الولايات المتحدة، هزيمة الدول من خلال الاستعمار، وقعت في فخ. كانت أوروبا مقتنعة بأن الإسلام هو سبب تخلف المجتمعات المسلمة، وهو المبدأ الذي تعاملت معه الدول

المستعمَرة بطرق مختلفة. كانت أحد ردود الفعل هي التقليد، ظنت الدول المستعمَرة بأن النظام السياسي الغربي يجب أن يكون بجودة تطورها التكنولوجي، ففرضت نظامًا سياسيًا مستوردًا على شعبها، في نفس الوقت الذي استخدمت فيه تكنولوجيا الغرب لمنافسته في اقتصاد العالم. البروفسير سينجاس من معهد الدراسات الدولية والثقافية ـ الرجل الذي تحاورت معه عام ١٩٩٦ ـ اقترح أن كوريا هي أفضل مثال لمن تعامل بهذه الطريقة تجاه الاستعمار.

في العالم العربي كان لدينا محمد علي مؤسس مصر الحديثة. حاول محمد علي تقليد الغرب عن طريق إرساء قواعد لنظام دولة حديثة في مصر خلال منتصف القرن التاسع عشر، وهو ما يتضمن بناء جيش قوي. انتهينا بالتمتع بفوائد التكنولوجيا الأوروبية، لكن دون فهم للقواعد العلمية والنقدية التي قامت عليها تلك التكنولوجيا، في الواقع لم نحاول التفكير في ذلك، لقد أحببنا حقيقة أن التكنولوجيا أعطتنا طريقة للتمتع بحيواتنا بشكل أسهل.

أحد أنواع التجاوبات الفكرية للحداثة جاءت من الباحث المصري محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥)، وقد قاد كتابه "الإسلام دين العلم والمدنية"[٣٥] تلك الحركة الفكرية. رأى محمد عبده أن الناس الذين أرادوا أن يتخلصوا من تراثهم الديني، لم يفهموا الدين بشكل صحيح، فلو أن التقليد الديني فقد معناه للناس، إذن يجب أن يفهم في ضوء جديد. تم إهمال هذا التفكير العقلاني في العالم العربي لعدة قرون، حتى جاء رشيد

---

[35] محمد عبده، الإسلام دين العلم والمدنية، دار المنار ١٩٢٣، القاهرة.

رضا وهو من عاصر محمد عبده (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) ليدعو إلى العودة للتقليد وبناء الدولة الإسلامية على أساس تفكير محدث للشريعة، هذا التفكير المستنير من شأنه أن يمهّد الطريق للمسلمين ليلعبوا أدواراً فاعلة في العالم الحديث مع تمسكهم بهويتهم كمسلمين.

رد الفعل الآخر للاستعمار حسبما ذكر بروفيسور سينجاس، كان ارتداء الثقافة لوجه حديث فوق قوانينها وسياساتها التقليدية ـ وهي القوانين والسياسات التي انتهت فائدتها منذ زمن، وأصبح النموذج المثالي المرتجى هو ما تحقق بالماضي، وكانت هذه الطريقة التي تعامل بها الشرق الأوسط. أحيانًا يمكن تلخيص رد فعل الدول المستعمَرة على هذا النحو. . "حسنًا، دعونا نساير الحداثة في مجال العلم والتكنولوجيا، لكن لنبتعد عن كل ما هو غربي في النطاق الثقافي"، وهو ما يفسّر لماذا يملك المجتمع الإسلامي هذه العدواة تجاه الأدب (القصائد، الروايات) والفنون (الرسوم والأفلام)، حيث الخوف نحو فقد الالتزام الديني في ضوء استيراد هذه المنتجات الثقافية بشكل خاص.

هذا لا يمنع أن الشعوب المستعمَرة تتفاعل أحيانا مع عمليات الإبداع والتجديد، كما لا تحدث عملية الإصلاح الإجتماعي في خط مستقيم، فالحركات الإصلاحية فوضوية الطابع. اليوم يخاف العديد من الأصوليين احتمالية حدوث التغير في مجتماعتهم نتيجة تطبيق الحلول الإبداعية والتجديدية لمشكلات الظروف الحالية، مقتنعين أن الإسلام قد يُقضى عليه خلال تلك العملية. يضاف إلى هذا احتفاء الثقافة العربية بقيمة الطاعة فوق التفكير النقدي، وبالتالي حين تظهر الحلول الإبداعية كخطوة في سبيل

التقدم تقابل بالرفض ويتم القضاء عليها، فهذه الحلول تمثل تهديدا لهؤلاء من يمتلكون السلطة، لذا يتعفن المجتمع الإسلامي.

إن الهوية الإسلامية غالبًا ما تتشبث بمفهوم ضيق للدين، إنه المسلم وليس الإسلام الذي يقاوم التحديث، هذه المقاومة لم تكن الحال خلال معظم تاريخنا الإسلامي، لقد حاول أجدادنا على أحسن ما يكون في التفكير بشكل مبدع دامجين ما يتاح من المعرفة مع المبادئ القرآنية، ثم تطبيق الحلول المناسبة للمشاكل الحديثة.

حين ننظر لحركة الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر والخطاب الذي بدأته وما تلاها حتى الآن نجد بعض التقدم، أقصد هنا تحديداً ما نطلق عليه حاليا خطاب الحضارات أو الثقافات. لدينا داخل الخطاب الإسلامي فهم ليبرالي؛ تفسير ليبرالي للقرآن بناء على معرفتنا الحديثة، التي ندين الجزء الرئيسي منها لحركة أوروبا التنويرية.

حين اتصل العالم العربي بالغرب الأوروبي، وضع خطًا فاصلاً بين الغرب المفكر بأفكاره التقدمية والغرب الإمبريالي بقواته الاستعمارية التي يجب مقاومتها. ركزت حركة الإصلاح الإسلامية على دمج أفكار أوروبا التقدمية داخل المجتمع العربي، هذا هو إرثنا والذي أعرِّف نفسي كجزء منه، فأبحاثي في مجال الدراسات الإسلامية تدور جميعها حول البحث عن طريقة لدمج الحداثة والتقدم بالفكر الإسلامي.

منذ أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١، حاول عدد كبير من مجموعات الإسلام الأصولي، أكثرهم شهرة أسامة بن لادن وزملاؤه، أن يختطفوا

الإسلام بادّعاء أنهم الممثل الوحيد له، والمتحدثون الرسميون باسمه. بالطبع حاولت مجموعات أخرى أن تفعل المثل، الوهابيون في السعودية، المهديون في السودان، السنوسيون في ليبيا، لكن لم تنجح أي مجموعة من هؤلاء بآيديولوجياتهم المختلفة في تقديم نفسها كممثل للرؤية الوحيدة لفهم الإسلام. استطاع الإسلام دومًا أن يعبر عن نفسه بطرق مختلفة؛ طرق وجدت وعُبر عنها وقُدرت منذ ظهوره.

يبدو لي أنه على الرغم من المحاولة الشجاعة من قبل إدارة بوش للتفريق بين الإسلام الأصولي ـ في أشكاله المتعددة من القرن السابع ـ فإن أمريكا ما زالت ترى في الإسلام عدوّها "الوحيد". فوراً بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ استمعت للرئيس بوش وهو يقول إنه يجب على الشعب الأمريكي ألا يساوي بين الإسلام ـ واحد من أكبر الديانات بالعالم ـ والجماعات الأصولية به. سعدت بسماع هذا، وتصورت أن هدفه كان سليمًا، فالعناصر المهمشة ـ على قوتها ـ يجب ألا تعبّر عن الإسلام.

ثم تبخّرت سعادتي سريعًا مع استمرار حديث بوش، لست إسلاميًا، لكنني شعرت بالإقصاء تمامًا في حديثه عن "ثقافتنا، قيمنا، حرياتنا، مبادئنا الديمقراطية"، وكأنه استبدل "نا" بـ"هم"، "وهم" هو هذا الآخر غير المتحضر، وأنا أنتمي لهذا الآخر "غير المتحضر"، وسأظل منتميًا له حتى مع انتقادي المستمر لثقافتي. هذا التصنيف لـ"مبادئنا" و"مبادئهم" موجود في أذهان الغرب والإسلاميين أيضًا. إنها نفس الحصرية التي يتحدث بها بن لادن عن الكفار "المسيحين واليهود"، والتي يتحدث بها بوش عن ثقافتنا، قيمنا وحرياتنا، ماذا يقصد بهذا؟ إن الحرية والديمقراطية لا تنتمي حصريًا

لمجتمع معين، هذه قيم إنسانية ـ قيم نتشاركها جميعًا ـ ولو أن بوش قد تحدث عن الدمار الذي سببه حادث ١١ سبتمبر دون اعتبار أن مجتمعه هو من يحتكر قيم الحرية والديمقراطية أعتقد أنه كان سينال احترام العالم العربي.

كان لسياسة منطقية وبعيدة النظر أن تجد طريقها في الفصل والتفريق بين تلك الجماعات الأصولية والإرهابية من المجال العام، وتركهم دون أي دعم مجتمعي. أعتقد أن إدارة الولايات المتحدة الأمريكية السياسية أرادت أن تهدئ من الألم العاطفي للشعب الأمريكي بعد أن فقدوا العديد من الضحايا، وبدا الانتقام هو رد الفعل الطبيعي، ودون فهم كيف سيتم استيعاب تلك الاستراتيجية في العالم الإسلامي، بدأت الانفجارات في أفغانستان. أتفهم وأحترم، بل وأتعاطف مع مشاعر الشعب الأمريكي، لكن هل يجب أن تكون استراتيجيتنا السياسية فقط من أجل الانتقام أم يجب أن تكون استراتيجية مدروسة تصف ما هو الفعل الإرهابي الذي أثر على المجتمع الدولي ككل بمن فيه من المسلمين؟

هكذا أعتقد أن قرار مهاجمة تنظيم القاعدة اتخذ في عجالة، وهو ما أتاح لأسامة بن لادن أن يجلس في شريط مسجل ليخبر العالم بأكمله أنه كان يدافع عن فلسطين. لقد صعقت من هول المفاجأة. . أسامة بن لادن الذي لم يذكر فلسطين من قبل كان قادرًا على أن يدّعي هذا، لينال دعم العالم العربي بسبب هذا الخطاب. أصابني المشهد بأكمله بالإحباط، لم أستطع إنكار أن كل هذا أعطي له على طبق من فضة بسبب قرار حكومة الولايات المتحدة المتسرّع غير المدروس بالانتقام، هذا القرار البرجماتي كان قرارًا

سياسيًا بالأساس في نظري، ولم يكن من أجل مصلحة الشعب الأمريكي، وإن لم يكن دون شك يصب في مصلحة النخبة وأصحاب النفوذ.

بقي تنظيم القاعدة في أفغانستان، نعلم هذا، وحتى هذه اللحظة لم يستطع أسامة بن لادن أن يطوّع معنى الإسلام ليناسب أغراضه. ثم فجأة كانت هذه الهدية التي أعطيت له، وكانت الآثار كبيرة للغاية، ولأن دولة قوية كالولايات المتحدة كانت تحارب ضد أفغانستان الدولة المسلمة، استطاع أسامة بن لادن أن يؤكّد للمراهقين من أفغانستان حتى فلسطين على ظلم السياسة الخارجية الأمريكية تجاه قضية فلسطين، وهو ما عزّزه الشعور العام في العالم العربي بأن الغرب بشكل عام، وأمريكا بشكل خاص، ضد الإسلام، وجزء من هذا يرجع إلى أنها ضد الشعب الفلسطيني ومع مصالح إسرائيل. طالما بقي الشأن العربي ـ الإسرائيلي غير محل، فلا يمكننا أن نتوقع أي إصلاح بالفكر الإسلامي، ولأن حل هذا الصراع أخذ أولوية متدنية في أجندة القادة السياسين من الغرب، ظل هذا الإحساس عند المسلمين بأنهم مهاجمون طوال الوقت، وهذا ما يخيفني.

توقّفت مكاسب حركة الإصلاح الإسلامية في القرن التاسع عشر عام ١٩٤٨، في حين ظلّت أنظمة التفكير، وبخاصة الآيديولوجية الأصولية حية وبحالة جيدة بسبب ادّعائها أنها قادرة على حل المشكلة بين فلسطين وإسرائيل، وتظل هي الأولوية التي تسبق أي تغيير يحدث في العالم العربي وبالتالي الإسلامي، أيًا كان المجال المقصود، خاصًا بالسياسة أو الديمقراطية أو حقوق الإنسان أو التجديد الديني. أنا لا أتحدث فقط عمّا ينتظره العالم

العربي، بل عن تحقيق العدل في عالمنا الذي أصبح في العقود الماضية قرية صغيرة.

لم أشعر في حياتي من قبل بهذه الحاجة لإظهار طبيعة انتمائي السياسي كما هذه الأيام، وعلى الرغم من دراستي لآراء حول أمور معينة، كنت دائمًا أتّخذ الطريق الفكري للتظاهر وليس طريق التظاهرات الشعبية ضد ما أراه ظلمًا. لكنني تغيرت تغيراً بدأ ما قبل أحداث ١١ سبتمبر ٢٠١١، وأنا أشاهد الأطفال الفلسطينيين يقتلون لإلقائهم الحجارة على المدرعات الإسرائيلية. ظهرت هذه الصور على شبكات الـ"سي إن إن" والـ"بي بي سي" والإعلام الألماني، وليس الإعلام العربي فقط، الذي ربما كان لينتقد لمبالغته. بالطبع لو قلنا إن هؤلاء الأطفال يجب ألا يلقوا الحجارة على المدرعات الإسرائيلية، لكن أن يقتلوا بسبب هذا الفعل؟

أدّت الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ ـ محاولة الفلسطينيين لإنهاء الاحتلال الإسرائيلي ـ لدى وقوعها إلى توقيع اتفاقية أوسلو في عام ١٩٩٣، ووضعت المفاوضات بين إسرائيل وفلسطين خططًا محددة لتحقيق السلام بين الجانبين، وكانت للانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠ أن تنتج المزيد من التطورات الإيجابية في الشرق الأوسط. كان أكثر ما ضايقني أن العالم لم يهتم بهذا الصراع وما يحمله من قتل، وكأن وجود الموت كان مناسبًا في خلفية المشهد.

منذ عام أو عامين فكّرت جديًا في أن أحزم حقائبي وأعود لمصر. ماذا أفعل هنا في أوروبا؟ أطوّر الفكر الإسلامي؟ مع الوقت ازداد غموض هذا الهدف أكثر وأكثر. أحيانًا أشعر بأن كل المجهود الذي بذله محمد عبده في

اتجاه دمج الإسلام مع الغرب فُقِدَ، وأننا نتجه نحو الثنائية من جديد، الغرب هو القاهر، الغازي، المحتل. استطاع محمد عبده أن يفرّق بين الأهداف الإستعمارية للغرب والمزايا التي قدّمها، كما حارب ضد استغلال الغرب للمسلمين، مع الاحتفاء بالجوانب الهامة والمفيدة للحضارة الغربية.

اليوم، هذا التفريق لم يعد موجوداً، فمعظم الجيل الأصغر من العالم العربي يكره أمريكا، وهنا المفارقة، فهم يكرهون أمريكا لأنهم منبوذون، ليسوا جزءاً منها، لكنهم على استعداد للركض وراء أول فرصة تتيح لهم الحصول على البطاقة الخضراء. ماذا تعني أمريكا؟ هل هي جنة؟ بالطبع لا، لكن على مستوى معين في أذهان هؤلاء الشباب أمريكا هي الجنة الملعونة المطرودين منها. هناك بعض الحقيقة التي ينطوي عليها التعبير "إنهم يكرهوننا لأنهم يغارون منا"، لكن حين تلخص أمريكا كل المشكلات السياسية والإقتصادية والاجتماعية بين العالم الإسلامي والغرب في هذه الجملة التبسيطية، تظهر سذاجتها لب الصراع.

لذا ففيما يتعلق بعملي (كجزء من خطة طويلة الأمد في الإصلاح) كنت وما زلت محبطاً. تريد الصحافة وحتى بعض المفكّرين في الأكاديمية أن أردد أفكارهم عن الإسلام، والتي تعني دائماً إظهاره بالمظهر السيء، إنهم يريدونني ألا أقول ما أفكر به، بل ما يريد الناس سماعه، يحدث هذا حتى في هولندا من بين كل الأماكن. ما هو الفرق بين أن أكون هنا في مكاني أو في مصر أو سوريا أو السعودية أو حتى هولندا؟ لو أن هذه هي القضية فعليّ أن أحزم أمتعتي وأعود لمصر. كان هذا في الوقت الذي كنت أحضّر فيه

لمحاضرتي التابعة لمنصب كرسي مسئولية القانون، حرية العقيدة والضمير في جامعة لايدن، وهو كرسي سُمي تيمنًا بالأستاذ كليفيرينجا.

درس الأستاذ كليفيرينجا (١٨٩٤ ـ ١٩٨٠) في جامعة لايدن عام ١٩٤٠ في الوقت الذي كانت فيه هولندا واقعة تحت الاحتلال النازي. وفي محاولتهم أن يتركوا جميع اليهود دون وظائف، طالب النازيون كل شخص ألماني بأن يعلن عن ديانته، وهو ما قاومه الألمان بداية، لكنهم رضخوا في النهاية، بمن فيهم أساتذة الجامعات. لاحقًا طرد النازيون كل اليهود من مناصبهم بمن فيهم أستاذ يهودي بجامعة لايدن وهو إي. إم ميجيرز، وفي يوم عادي كان ميجيرز يعطي فيه إحدى محاضراته، أخذ كليفيرينجا مكانه. أثناء خطابه الجميل والمنظم الذي أعطاه انتقد قرار النازيين بطرد كل اليهود من مناصبهم بالجامعة، مرت دقيقتان من الصمت بعد حديثه، لتنفجر القاعة بالتصفيق وتنطلق مظاهرة وعدد من الاحتجاجات.

قبض على كليفيرينجا وآخرين، وأغلقت جامعة لايدن حتى نهاية الحرب، ثم عاد كليفيرينجا مرة أخرى لاستكمال مهامه التدريسية. بعد وفاته، خصصت الجامعة كرسيًا يشغله كل عام شخص يعمل من أجل قضايا الحرية وحقوق الإنسان، بسبب ما أكتبه، شغلت هذا المنصب في الفترة ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١. وبينما كنت أحضّر خطابي وجدت نفسي متأثرًا بموقف البروفيسور كليفيرينجا، وباستخدام خطبته كإسقاط ذكرت القضية الفلسطينية على الملأ، كما ذكر كليفيرينجا قضية اليهود تحت الحكم النازي. ذكرت بمقدمة خطابي مفهوم العدل في القرآن بشكل مختصر، أي

نوع من العدل نراه في عالمنا؟ تكلّمت عن الأطفال الفلسطينيين وحاجتهم للمنازل، المدارس، المستشفيات، وهؤلاء من قتلوا بدم بارد.

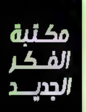
تحدث كليفيرنجا في خطبته عن قسوة النازيين وأنا تحدثت عن قسوة الجيش الإسرائيلي. اقترح كليفيرينجا أن يضع الشعب الألماني قرار النازيين تحت أقدامهم، ويتعاملون معه على أنه لغو فارغ، واقترحت أن نضع أفعال الجيش الإسرائيلي تحت أقدامنا ونتأمل مبادئ القرآن. لقد تأثرت بإهمال العالم لمعاناة هؤلاء الواقعين في قلب الصراع بالدرجة التي لم أعد بعدها قادراً على الاكتفاء بالعمل في المجال الأكاديمي فقط.

شعرت بالخجل كشخص يعرِّف نفسه كأحد المقهورين ـ يحارب ضد مضطهِد ـ من العيش في مثل هذا العالم. أتفق مع شينوا أشيبي الروائي النيجيري المعاصر العبقري حين قال: "العالم ليس مرتبًا"[٣٦]، هذا الإحساس بالخجل أدّى بي لمرات عديدة بالرغبة في الموت، هذه ليست مبالغة، أي عالم سأشهد في الأعوام القادمة؟ أعتقد أن فعل الشيء الصحيح واضح، لكن أحيانًا من أجل المكاسب السياسية يشوّش هؤلاء من في السلطة الخطوط الفاصلة بين الصواب والخطأ لدرجة تجعلني أشعر بأن عليّ تعلم مفاهيم العدالة وحقوق الإنسان من جديد.

بالإضافة لهذا يبدو أن الغرب (أوروبا وأمريكا) لا يرى كيف أن مكاسب حركة التنوير والنهضة مهددة بالضياع خلف ذريعة تحقيق الأمان وحماية نفسه ضد أخطار حقيقية أو متخيلة. المبادئ التي نقدّرها (حقوق

---

[36] Chinua Achebe, prod. and dir. Gail Pellett, Public Affairs Television, 1994, videocassette



الإنسان، الحرية، الديمقراطية) المؤسسة منذ القرن السابع عشر تختفي، ولو أن هذه القيم بالفعل في خطر في أوروبا والولايات المتحدة، كيف يمكن أن نتوقّع لهم أن يتحققوا هنا في عالم لم يكونوا موجودين فيه من قبل؟ كيف يمكن لأي كان أن يصبح متفائلاً في وضع كهذا؟ إنه من السهل الإستسلام لليأس، بل حتى كتابة مقال قصير بالعربية، لغتي الأم، في هذا الوقت تحديداً أشعر به أمر صعب للغاية.

لم يحدث أبداً في حياتي كلها أن شعرت برفاهية التشاؤم تجاه المستقبل. لقد استخدمت منهجي النقدي البحثي للعمل على قضايا معينة من أجل إصلاح الفكر الإسلامي واللاهوت الإسلامي لفكرة القرآن وتأويله، لكن حين يقال كل شيء أيّا كان ما أكتبه فهو موجّه لأفراد بعينهم في سياق معين، ولا يوجد مفكر أو كاتب يمكن أن يكتب من أجل الكتابة فقط. لديّ أشياء أريد قولها وكتابتها عن القرآن، عن معنى القرآن، عن إنسانية القرآن والنبي، أفكار أريد إيصالها.

هذه الأيام حين أحاول أن أوضّح كيف أن هذه المواضيع هامة ومناسبة لمستقبل الإسلام والمسلمين، يتجهم معظم المسلمين ويخبرونني . . "عن ماذا تتحدث؟ لدينا الكثير من المشكلات الآن. ما علاقة نص القرآن بما نواجه؟ هذا لا يعنينا". إنهم لا يرون أن الإسلام أصبح أداة وآلة في أيدي السياسيين، وغياب تطبيق الفكر النقدي للإسلام هو ما سمح لهم بأن يستخدموا القرآن ليلائم أغراضهم، وهي المرتبطة عادة بالاستيلاء على السلطة وأسر المسلمين. لكن المسلمين يشعرون أنني أريد أن أجرّدهم من سلاحهم وأضعهم أمام العدو، سلاحهم هو التفسير الجامد للإسلام الذي

يعطي المهددين والمقهورين إحساسًا وهميًا بالتحكّم في حيواتهم. إنهم إما يحدقون في أو يغضبون حين أخبرهم "أنا لا أجرّدكم من هذا السلاح، أنا أعطيكم سلاحًا آخر، لكنه أفضل كثيرًا". إن تطبيق التفكير النقدي واللاهوتي على المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لا يبدو مناسبًا للمسلمين حاليًا، يمكن فهم هذا، فالعديد منهم يعيش الآن خائفًا من الإبادة، ولا يلتفتون سوى لاحتياجاتهم الآنية.

لا يساورني أي شك أن إصلاح الفكر الديني كان أحد الاسباب التي يسّرت لأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية التقدم بقفزات هائلة في القرن الثلاثة الأخيرة الماضية، وأهدف من خلال كتاباتي التأثير على العالم العربي من منظور جديد، منظور يحقق الإصلاح الديني للفكر الإسلامي، لكنني أرى أوروبا و أمريكا تخطوان خطوة للوراء متمسكين بفكر أصولي ديني وسياسي. لقد أعلنت رموز دينية معروفة في الولايات المتحدة الأمريكية صراحة أن الإسلام دين كراهية، بالإضافة لإعلان بوش للعالم كرد فعل على أحداث ١١ سبتمبر.. "أنتم إما معنا أو ضدنا"، الذي يعكس التفكير السياسي المبسط ذا الأثر العظيم على سياسة أمريكا الخارجية.

لا تعتمد هذه السياسة الخارجية في تعاملها مع إسرائيل على جوانب سياسية واقتصادية واجتماعية فقط، بل على ميثولوجيا بمعناها التقليدي. كل ثقافة لها قصصها وأساطيرها التي تترسّخ في لاوعي من ينتمون لتلك الثقافة، هؤلاء الناس يتعاملون وفقًا لهذه الأساطير في حياتهم اليومية ويتّخذون قراراتهم النابعة من تشرّبهم لتلك الحقائق التي ذكرت في

الأساطير أو القصص. لذا أرى أن جذور السياسة الخارجية الأمريكية تجاه إسرائيل تقع في إطار أسطورة الصهيونية المسيحية.

إن قصص وأساطير النص المقدس تنتمي لنوع من الأدب لا يجب أن يقرأ حرفيا، وفعل هذا هو الكارثة بعينها، فالقراءة الحرفية للنصوص المقدسة تكسب الأسطورة ثقل الحقيقة، وتشرعن تنفيذها فقط لورودها بالنص المقدس. والمثير للإهتمام هو أينما ذكرت أورشليم يكون فهم الغرب عامة أنها تنتمي لليهود، ليس حتى للمسيحيين أو العرب، لكن دعونا ننظر للقصة. عاش اليهود في أورشليم، بنوا معبدا، ثم تركوها في القرن الأول من الزمان، ليعيشوا في أماكن أخرى. هل من عادوا لأورشليم هم نفسهم الشعب اليهودي الذي ترك المكان في المقام الأول؟ لو أن الأمر هكذا هل يبيح لهم هذا التاريخ أن يستولوا على قطعة أرض معينة خاصة لو تضمن ذلك إزاحة من يعيشون هناك بالفعل؟ إن أسطورة الصهيونية المسيحية تقول نعم، لكن هذا الجواب يأتي فقط حين تكتسب الأسطورة مكانة الحقيقة.

حسب القصة، وعد الله هذه القطعة من الأرض، كما ذكر بالإنجيل لأحفاد إبراهيم من خلال ابنه إسحاق. لو أن الأسطورة أعطيت وزن الحقيقة فاليهود لهم كل الحق، بل والواجب المقدس للمطالبة بتلك الأرض. وكما تؤول القصة نجد أن الزمن يكون عاملاً شرطيًا حاسمًا هنا، فلن يكون هناك خلاص لليهود إلا إذا استقروا بتلك الأرض ثم من خلال خلاص إسرائيل ينال العالم بأكمله الخلاص، بهذه الرؤية لا عجب أن اسرائيل تنفذ واجبها بهذا الإخلاص. هنا في هولندا أصبح من الصعب

الحديث عن إسرائيل بشكل نقدي دون الشعور بجرم ارتكاب ذلك، وأنا أتحدث هنا عن الجامعات، المفكرين، هؤلاء من تتلخص وظيفتهم في الاشتباك مع تلك المواضيع في إطار نقدي. ربما لا يكون المواطنون العاديون بهذا التدين، لكنهم تشرّبوا هذه الأسطورة المسيحية التي شكّلت دولة أوروبا. ولا يدرك الكثيرون منهم من أين اكتسبت آيديولوجياتهم هذا الشكل المعين، لكنها تبدو لهم أنها صحيحة من خلال اكتسابها دون وعي. أشعر أحيانًا بسبب هذا الواقع المزدحم كرجل إطفاء، يحاول أن يطفئ حرائق هنا وهناك في كتابتي عن الرؤية السياسية لكل من الشرق والغرب، هذا عمل مختلف عمّا كنت أفعله مع القرآن، فإطفاء الحرائق ليس كإنتاج المعرفة.

مؤخرًا أجريت مقابلتين مع صحفي من إحدى الجرائد الألمانية، لم يكن المحررون سعداء بواحد منهم، لذا سألني المحاور: "هل يمكن أن نجريه مرة أخرى؟"، أجبت بالنفي. أراد محرر الجريدة إجابات بسيطة عن أسئلة معينة عن الإسلام، أسئلة سطحية كان قد ألقى بها في المرة الأولى، وقمت بإعادة صياغتها لأعطي إجابات ذكية. لكن ما كانت تبحث عنه الصحيفة في الواقع كما فهمت، كان مجموعة من التصريحات عن تخلف وانحدار المجتمع الإسلامي، لذا تمسكت بموقفي: "أنا لا أعمل من أجلك، لست دمية و لن ألعب هذا الدور".

مع مرور الوقت أستمع كيف يتحدث الإعلام عن الإسلام كمنهج فكري انتهى زمنه، ويركز الإعلام الغربي على المسلمين ليشرح كيف هم خطرون، وربما من الأفضل التخلص منهم. حتى لو تخلّصت الحكومة من

كل مسلم في هذا البلد، لن يحل هذا مشكلة "المسلم مصدر الخطر"، لقد جلبت التغيرات التي أتت بها العولمة مشاكل اجتماعية واقتصادية لا علاقة لها بالإسلام، لكن الجميع يريد كبش فداء، لذا فالترحيب بالمسلمين يقل تدريجًا. أحاول أن أدق جرس الخطر، لست ألمانيًا، لكنني أعيش بهولندا ومهتم بما يحدث حولي. يبدو الجميع في حاجة لسماع حديث سلبي عن الإسلام، الدور الذي أرفض أن أشارك به، لهذا تصرّفت بتلك الحدة مع المحرر.

لقد أصبحت وظيفة الناقد صعبة، أحيانا أشعر بأنني أصبحت مقدرًا في العديد من الأماكن حول العالم لأنني ناقد للفكر الإسلامي، تقدير لا أحصل عليه حين أنتقد أشياء معينة في ثقافتهم. أمضيت ست سنوات في الخارج، اثنتين منها في الولايات المتحدة وأربعًا باليابان، بالإضافة لثماني سنوات بالمنفى. غمست نفسي في تفاصيل ثلاث ثقافات مختلفة عن ثقافتي، واكتسبت وسائل رائعة من كل منها، وسائل أعتبرها هبات. فلقد وسعت من نظرتي للعالم، كيف أتخطى كوني ناقدًا للعديد من قيمهم؟ أنا أرى تلك القيم - التي أحبها وأحترمها - في خطر، فإذا رأيتها مهددة لا أستطيع الصمت.

منذ وقت ليس بالطويل تقابلت مع محمد أركون، الباحث الإسلامي في مؤتمر ببرلين، حاليًا يعيش بباريس ويعمل بالسوربون ويجيد التحدث بعدة لغات. تحدّثت له بعد محاضرته، وعلّق على كتاباتي بالإضافة لكتابات سوروش، وهو باحث إيراني كان موجودًا أيضًا في المؤتمر. انتقد حينها كلينا باعتبارنا نناقش أمورًا قديمة فيما نكتبه، وخصّ بالذكر جزءًا كبيرًا من

أعمالي، عن خلق القرآن. وعلى الرغم من أن صديقي الإيراني ظل صامتًا، إلا أنني شعرت بضرورة أن أردّ على انتقاده. . "نعم، أتفق معك، أنا بالفعل أركّز على أمور قديمة، قديمة في المدن الأوروبية، مثل فرنسا وفي أماكن مثل السوربون على التحديد، حيث تعيش وتنتج خطابك، لكن الناس تموت في بلادنا نتيجة لغياب النقاش في تلك الأمور التي تعتبرها قديمة. نحن نتعلم منك ومن العمل الذي تنتجه في برجك العاجي، لكن هذا لا يعطيك الحق أن تقلل من شأن ما نفعل". اعتذر أركون بمهنية. . "آسف، لم أقصد ذلك". . "لم تقصد ذلك، لكن خطابك تضمنه. أنت الباحث الذي علمني أن الخطاب هو أن تقول شيئًا بعيداً عن النية. أنا لا أتحدث عن نيتك، لكنني أتحدث عن ما قلته، خطابك. أنا أتعامل مع قضايا تعتبرها قديمة يوميًا".

بعد هذه المقابلة كتب محمد أركون توصيفًا لأعمالي في مقال نشر في موسوعة عن القرآن "نصر حامد أبو زيد: أول عالم مسلم يواجه العالم العربي مباشرة من خلال كتابته بالعربية أثناء تدريسه بجامعة القاهرة، محاولاً هدم التابوهات التي كانت تمنع من تطبيق أكثر إنجازات علوم اللغويات المعاصرة في دراسة القرآن، وهو ما حاوله قبله محمد خلف الله من خلال تطبيق التفسير الأدبي للقصص القرآني، والذي على الرغم من تواضع منهجه العلمي المستخدم، تسبب مقاله في جدل عنيف. لا تحتوي أعمال أبو زيد على شيء ثوري إن وضعت في سياق الإنتاج البحثي للعشرين عامًا الماضية، حيث يشرح بشكل مباشر الشروط اللازمة لتطبيق تعريف وتحليل مفهوم النص. لكن من جديد فإن رد الفعل العنيف تجاه المحاولات التي لا

تهدف سوى لتعميم المعرفة التي تم قبولها والاتفاق عليها عالميًا منذ زمن، يشير للمساحة بالفكر الإسلامي المعاصر التي يتصوّر أنها لم تدرس من قبل، بل ولا يمكن دراستها"[37].

تقابلت أنا وأركون من جديد عدة مرات في مؤتمرات ومحافل. فاجأني حينما بدأ في تقدير عملي بشكل إيجابي، وهو ما شجعني للمضي قدمًا. حاليًا أنا وأركون منضمان لمنظمة وليدة تجمع بعض المفكرين العرب، هي المنظمة العربية لتحديث الفكر العربي، تهدف إلى تطبيق قواعد البحث العلمي الحديثة على الفكر العربي.

منذ وقت ليس بالبعيد عام ١٩٩٨ اجتمع باحثون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، إندونيسيا، ماليزيا، السودان ومصر، وإيران، مع عدد من ممثلي البلاد الغربية في جامعة لايدن لمناقشة مستقبل الإسلام. نظمت مع أحد زملائي د. نيكو ندوة بعنوان "الدراسات القرآنية في ضوء القرن الواحد والعشرين". كان استنتاجي في هذا الوقت هو أن أي اصلاح للفكر الإسلامي سيأتي من داخله، لكن مع صبيحة يوم ١١ سبتمبر لم أعد متأكدًا من هذا.

العالم الإسلامي يشعر بالخطر نتيجه لتصوره أن أمريكا ضد الإسلام، ومن أجل الحفاظ على هويته تبنى وجهة نظر متطرفة كما يراها الخارج، فهو يمتلك قناعة أن ما نجح مع الأجداد لا بد أنه الحل، لذا كان تقهقره نحو تلك الأيام الخوالي في محاولة لإعادة إنتاجها من خلال اتباع أفكار معينة، زي

---

[37] Jane Dammen McAuliffe, ed., The Encyclopedia of the Qur'an, vol. 1 (Leiden: Brill, 2001), 426

معين وطرق محددة للحياة في العالم الذي يشعره بأنه متصل بحقائق الماضي المجرّبة.

إيران مثال جيد على ذلك، لو تأملت التغيرات التي كانت تحدث هناك قبل ١١ سبتمبر، كان لدى المفكرين الليبراليين النية لجعل إيران تلعب دوراً فعّالاً في العالم المعاصر، وكان تأثيرهم على المجتمع الإيراني في ازدياد، مكتسبين قاعدة معتبرة ضد هؤلاء من قاوموا أي نوع من أنواع التغيير. شعرت حينها بالتفاؤل بأنه تحت مظلة إسلامية كانت هناك ديمقراطية في طريقها للنمو، بدأت سلطة الإمام في التضاؤل، وبدأت ثورة لاهوتية مضادة لثورة الخوميني في التشكّل.

كانت إحدى طرق الخوميني في فرض سيطرته هى إرساء سلطة الفقيه أو ما يعرف بولاية الفقيه. ينتمي معظم الإيرانيين للمذهب الشيعي، ويتضمن الفهم اللاهوتي الشيعي مبدأ انتظار المجتمع الإسلامي للإمام الغائب، لتحقيق العدل وإعادة أمور العالم لنصابها. كان الإيرانيون في بداية طريقهم لتحدي هذا المبدأ، الذي انتقل للسياسة ومنه للسياسات التي أثرت على حياتهم، لذا كانت إيران مشغولة في محاولاتها الجادة لتحقيق ذلك بداخل بنائها السياسي، مع وجود الانتخابات الحرة في المستقبل القريب.

ثم جاء بوش ليلقي خطابه بعد أحداث ١١ سبتمبر، ويعلن أن إيران هي أحد أضلاع مثلث الشر (بالإضافة لشمال كوريا والعراق)، اكتسبت القوى المحافظة - هؤلاء في المعسكر المضاد للبرالين - أرضية فوراً، وأصبح سهلاً بالنسبة لهم أن يقولوا: "لقد كنتم تحاولون فتح حوار مع الغرب وتطبيق بعض المبادئ الديمقراطية القادمة من حركة التنوير، وانظروا ماذا

حدث، هذا هو الغرب بالنسبة لكم". أجبر الرئيس خاتمي ليقف في صف واحد مع القوى المحافظة ضد الولايات المتحدة.

آملت لفترة من الزمن أن شيئًا ما بداخل التفكير الشيعي يمكن أن يؤثر على التفكير السني، لقد شهدنا كيف أثرت ثورة الخوميني على المجموعات الأصولية داخل الإسلام السني. بدأت الثورة باسم الله في الانفجار حول العالم، وبدأ الإسلام الشيعي في طرح بعض الحلول المبتكرة للمشكلات التي يواجهها المسلمون في العالم المعاصر مع احتفاظهم بالقيم التي توارثوها من إيمانهم الديني. ما هو الاتجاه الذي يمكن للمسلمين أن يتخذوه في ضوء ما أعلن عنه بوش؟ لقد أغلق المسار لحد كبير. من يحمل جزءاً من تلك المسئولية؟ الدول التي تتدخل في شئون الدول الأخرى ليحققوا مصالحهم، فالتدخل الخارجي يعرقل الديناميكيات الداخلية لأي دولة، والتي في حالة إيران كانت تتجه نحو الانفتاح والتفكير الليبرالي والإصلاح.

على الرغم من ذلك، أجدني مقتنعًا بأننا كسالى، أتحدث عن المسلمين بشكل خاص، نحن بالفعل كسالى، نقتنع أنه ليس في الإمكان أفضل مما حققه أجدادنا، هذا محض غباء، فالمعرفة تتطور، وتولّد من خلال دراستنا وما نتعلّمه من العالم بالتزامن مع ما نعرفه عن نصنا المقدس. إن تمجيد الماضي هو فهمه بشكل خاطئ، إننا نغلق الطريق أمامنا بتجمدنا في مكاننا في محاولات الدفاع عن الماضي لدى انتقاد الحاضر، وهو ما لا يفضي لأي شيء.

إن محاولتنا للركود غريبة، فبالنظر لهذا الميراث الذي نملكه، يدين القرآن الجاهلية بعقليتها القبلية التي تشجّع على التعصّب وضيق الأفق. في

الأصل وجد المجتمع الإسلامي مبادئ القرآن محفزة لحركة النمو الفكري، نمو يتحدى الثقافة السائدة. لا يوجد شيء مقدس متعلق بتاريخنا، فهو ناتج عن عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية. المسلمون ـ أو أي جماعة أخرى في هذا الصدد ـ ليس لهم تاريخ ديني نقي أو نظام سياسي مثالي، فالدين والسياسة لطالما أثرا على بعضهما البعض، وإنه لمن السذاجة تصور وجود أي دولة في ظروف مختلفة عن ذلك. لكن اليوم يظن العديد من المسلمين أن هناك صورة نقية للإسلام، واحدة بعيدة عن تأثير الثقافة والجغرافيا والتاريخ، وكلما استطعنا سريعًا إدراك أنه لا وجود ليوتوبيا، استطعنا أن نكون مؤثرين في العالم الحديث.

حتى بعد أحداث ١١ سبتمبر، مارس الغرب (تحديداً الولايات المتحدة) ضغوطه على العالم الإسلامي ليغيّر من الطريقة التي يدرس بها الإسلام للناس. لقد ركّزت في مساري الأكاديمي على انتقاد الخطاب الديني، لكنني لم أكن مهتمًا بتلك الأسئلة التي تأتي من خارج العالم الإسلامي، بقدر اهتمامي بالأسئلة التي تنبع من داخل تجربتنا الخاصة، الأسئلة التي تشكل حيواتنا، وتلحّ علينا لمناقشتها. لدينا تاريخ طويل من الدفاع، في ضوء اقتناعنا بضرورة الدفاع عن الإسلام، لذا فنحن في حاجة لتأمل طويل وعميق لأنفسنا وطرح الأسئلة الواضحة التي تهربنا منها القرون الماضية، إنها الطريقة الوحيدة للمضي قدمًا، لقد كانت حركات الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر هي البداية التي وجب أن نستمر من عندها.

ما هي طبيعة هذا التجديد؟ الشيخ أمين الخولي وهو من مصلحي القرن العشرين عرفه كالآتي: "تبدأ حركة التجديد بحاجة ماسّة للبحث

حول الماضي، الأفكار التي كانت يومًا ممنوعة وتحولت لمنهج، وهو التجديد الذي يدفع الحياة للأمام"[٣٨]، كما يحدث هذا التجديد أو الإصلاح أيضًا في المجال السياسي بنفس الطريقة. وعلى عكس ما تريد لنا الحركات المحافظة تصديقه، فحركة التجديد ليست وثبة في الظلام، بحثًا عن هوية ما مجهولة، لكنها تبدأ بتقييم الماضي بشكل نقدي والانطلاق من هذه النقطة لتحديد ما الذي يستحق الإبقاء عليه وما يجب التخلي عنه. يجب أن ندرس ما توارثناه بحرص، ومن أجل فعل ذلك نحتاج لمناخ عام حر يمكن أن نتجادل به ونناقش الأفكار المختلفة، فلا ينبغي لأي فكرة أو منهج أن تكون بمنأى عن الدراسة والنقد، وبالتالي فلا وجود لرقابة لو أننا أردنا التجديد والإصلاح، فالمجتمعات الحرة لا تعرف ركود الفكر.

إن الإسلام الليبرالي يتعامل مع الكلمات والمنطق، لكن كيف لكليهما تحقيق العدالة، هذا ما يتساءل عنه المسلمون، كيف مع شعورهم بالتهديد من القابع خلف حدودهم؟ حين يشعر الناس بالتهديد يكون رد فعلهم الطبيعي والأسهل والأكثر أمانًا العودة للطرق التقليدية التي تم تجريبها بالماضي وأثبتت نجاحها. هنا يختلف الإسلام الليبرالي الداعي لتبادل الآراء والتحاور، أمّا الصراع فلا يحتاج للتفكير العقلاني والحوار، هكذا تتبنى معظم السياسات الخارجية الأمريكية، كما السياسات الإسلامية الأصولية، موقفًا معاديًا عوضًا عن الدخول في عملية الحوار الدبلوماسي المرهقة.

---

[38] Nasr Abu Zaid, "Heaven Which Way?" Al - Ahram Weekly Online no. 603 (September 12-18, 2002): 3

لن أتخلى عن محاولاتي في إحداث تغيير من خلال ما أكتبه، إن سلاحي هو التفكير النقدي، لكن المناخ الحالي ليس مناسبًا لفعل هذا، لا يوجد العديد من المسلمين مستعدون لسماعي "عن ماذا يتحدث هذا الرجل؟ نحن نحارب عدوًا وهو يتحدث عن أمور لا علاقة لها بنا"، لذا فمن الصعب، بل ومن المستحيل، إقناع الناس المستعدين للحرب في سبيل ما يقتنعون أنه السبيل الوحيدة لبقائهم أن يدركوا حاجتهم للمعرفة، ولا يوجد ما يخيف أكثر من هذا.

الفصل الثالث عشر

المضي قدمًا

يتناول الإسلام كأي ديانة أخرى في طرحه عدّة مستويات وأكثر من منظور، والتفكير الديني في الإسلام قبل أي شيء هو تعبير بشري عن حقيقة ميتافيزيقية. يحاول البحث الإسلامي أن يعطي فهمًا عميقًا ومتماسكًا للقرآن، كلمة الله الموحاة لنبيه محمد عن طريق الملك جبريل، وفي سبيل الوصول لذلك، طبّق المفكّرون الإسلاميّون والباحثون والفقهاء والفلاسفة قواعدهم المعرفية الخاصة على النص القرآني من أجل استنتاج المعنى. هكذا يكون الجهد البشري المتجذّر والمنقول عن واقع اجتماعي وتاريخي معيّن، استنبط وما زال يستنبط مادة الوحي لتصبح في شكل نمط معرفي محدد.

لقد حُيدت حركة الإصلاح العربية الإسلامية، التي بدأت في القرن التاسع عشر، وتحت وطأة المطالبات الواسعة بتطبيق العدل، بدأنا في ذلك الوقت نواجه قضايا تتعلق بحقوق الانسان، حقوق المرأة وحقوق الأقليات، وفي التعامل مع قضايا مثل التعليم، الحرية، الديمقراطية والتقدم. اليوم يجب ألا نترك أنفسنا نُعرَّف بهوية كاذبة تظهر مرتدية ثوب التخلف ومقاومة

التقدم تحت رداء الدفاع عن الإسلام والهوية. إن نهضتنا المجهضة تلك نظرت للمستقبل في محاولتها للتخلص من البنى القديمة للتفكير، لقد تأخّرنا بما يكفي لنفكر الآن في التقاط الكرة أينما وقعت واستكمال المسيرة، ولكي نستمر لا بد أن يكون لنا طريقة منظمة في الحديث عن الدين في شكل خطاب.

إن الخطاب الديني هو خطاب بشري، مجموعة من البشر يتحدثون عن الدين، وبالتالي فهو قادر إمّا على استثارة التقدم أو الدفاع عن الوضع الراهن، والخطاب الذي يستهدف التقدم هو بالضرورة قائم على النقد، النقد الذي يطول الماضي والحاضر والثقافات الأخرى، وهو ما يتناوله بعمق المنهج النقدي للإسلام. تحدث قادة وروّاد الخطاب الإسلامي الحديث مثل محمد عبده، طه حسين وعلي عبد الرازق عن تأطير الخطاب الديني في سياق القضايا الاجتماعية والسياسية، مهاجمين التقليد الأعمى للماضي كوسيلة لدفع الثقافة الإسلامية للأمام. لقد نادى هؤلاء الرجال بتجديد الخطاب الديني، لكن خطابهم دمج المجال العام ككل في فهمهم للتجديد الديني. كيف نعتبر أنفسنا مسلمين صالحين والظلم متفشٍ بهذه الطريقة؟ لماذا هناك هذا التفاوت بين النخبة (السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية) والمواطنين العاديين؟

الخطاب المحافظ، على الجانب الآخر، دائمًا ما يقاوم النقد ويبحث عن حلول براجماتية لمشكلات العالم المعاصر تبقي على الحالة الراهنة. في الخمسينات والستينات انتشرت بالسوق المصري الكتب التي تتحدث عن القومية العربية والاشتراكية الإسلامية وتفتقر لأي تحليل نقدي، في محاولة

عملية لفرض آيديولوجية سياسية معينة على الشعب المصري. ثم ظهرت في السبعينات الكتب التي تدين سياسات السوق، حيث حاول مؤلفوها خلق قضية تقول إن الإصلاح الزراعي، ضرائب الميراث وفوائد البنوك هي ممارسات غير إسلامية. نتيجة لذلك دعم الكثير من المواطنين شركات توظيف الأموال الإسلامية كمؤسسات بديلة للبنوك الغربية، وهي الشركات التي افتضحت لاحقا كمخططات تسويقية هرمية محتالة، إلا أن هذا الاكتشاف جاء متأخراً جداً بعد أن سُلب العديدون مدخراتهم. إن الخطاب المحافظ البراجماتي يمكن أن يقدم حلولاً بديلة للتفاعل مع العالم الحديث، لكنه يفعل ذلك دون الاشتباك كما يجب مع الظروف المتغيرة، فهو لا يقدم نفسه إلا كغطاء يخفي المشكلات التي تنبع من العالم دائم التغير والحركة.

لقد أصبحت جملة "الخطاب الديني" تذكر كثيراً كمرادف للبروباجندا المقدسة وشعائر يوم الجمعة. هذا ليس بالتأكيد ما يرد على ذهني حين أذكر الحديث عن الدين، فالخطاب الديني ليس وعظًا، وهو ما يحتاج للتجديد والتحديث في العالم الإسلامي، لكنه يتضمن اشتباكًا فكريًا مع معضلة.. "كيف يمكن التمسك بالمبادئ القرآنية في ظل عالم متغير؟"، إن الإشارة لكلمات قيلت في مكان ما على لسان شخص ما في وقت ما بغرض انتظار تأثيرها السحري في حل جميع المشكلات الآنية لم تعد صالحة.

إنه لأمر أساسي أن ندرك أهمية تغيير الطريقة التي نفكّر بها من أجل خلق مجتمع يقوم على الحرية والعدالة. خطاب ديني جديد هو جزء من النداء الواسع للحرية، ومن أجل النجاح في إقامة هذا المجتمع العادل لا بد

أن يكون المواطنين قادرين على التفكير النقدي والتعبير عن أنفسهم بحرية، وللأسف ما زال معظم العالم العربي اليوم مكبلاً بقيود الخوف، القيود التي تقف في طريق التفكير الحر والتعبير عنه.

من أجل تجذر مبدأ تجديد الخطاب الديني، لا بد من إلقاء نظرة طويلة وفاحصة على تراثنا الديني، فلا وجود لمذاهب محصّنة أو بقرات مقدسة غير قابلة للنقد، فإن وجودهما يحصر عملية التجديد وبالنهاية يضعها تحت قيد الرقابة. إن الرقابة والركود يسيران معًا، ولأن الخطاب الديني مرتبط بالخطاب العام، فجميع جوانب المجتمع تتدهور نتيجة للرقابة. فقط المجتمعات الواثقة والحرة هي التي تملك القدرة على التمرد على التعفن والتحلل، وتحدي الحالة الراهنة هو ما يفتح طرقًا للتقدم. لا بد للناس أن يكونوا أحراراً في الاقتناع بآراء يراها غيرهم غير صحيحة، وعلى تحدي الآراء الشائعة، وعلى الإسلام أن يحمي هذا الحق. هذا هو الطريق الوحيد للمضي قدمًا بنزاهة والحل الوحيد لبناء مجتمع عادل وحر.

ما هو هذا الذي لا يثير سوى الفزع هذه الأيام حينما ينتقد المسلمون الفكر الإسلامي المؤسس؟ لماذا تعتبر الثقافة الإسلامية اليوم أن نقد ماضينا التاريخي والتعبير الإسلامي الأصولي جريمة؟ ماذا يمكن أن يكون رد فعلنا لدى ذكر حقيقة أن في القرن الخامس عشر ذكر العالم الموسوعي جلال الدين السيوطي (١٥٠٥) أن النبي محمد تلقّى الوحي (القرآن) فقط في محتواه، لكن صياغة النص الحقيقية جاءت عن طريقه؟ اليوم فكرة كهذه لا يمكن مناقشاتها ولا حتى ذكرها على الملأ، لقد خسر البعض حيواتهم حين تحدّثوا بهذه الطريقة.

ما هذا الذي يهين الكثيرين حين يتحدّث المؤرخون عن فشل وعظ النبي محمد لإقناع المجتمع المكّي، الذي أجبره هو وجماعة تابعيه الصغيرة للهجرة إلى المدينة؟ لماذا هذا العداء ضد الفن، وبخاصة الفنون الأدائية؟ أليست تلاوة القرآن هي شكل من أشكال فن الأداء الصوتي؟ أليس القرآن عملاً أدبيًا؟ لماذا نمنع تشخيص الرموز التاريخية والدينية، وبالتالي إفقار ثقافتنا المسرحية في التعبير؟ ألسنا قادرين على التمييز بين الرمز الحقيقي والفنان الذي يلعب الدور؟ ألسنا فعلاً غير قادرين على التفريق بين الحقيقة والخيال؟ بشكل مباشر، ألسنا قادرين على إيجاد معنى روحي لحيواتنا من خلال التعبير الفني؟ هل السبب أننا مملّون للغاية؟ هكذا أصبحت الثقافة الإسلامية مسجونة في التفكير الجامد والحرفي، لا فرق بين اللغة كنظام رمزي تستخدمه الثقافة لتعبر وتخلق نفسها والحقيقة الإلهية.

هذه ظاهرة غريبة مستحدثة، بالنظر إلى تراثنا التاريخي الممتد، المعتمد على القرآن، وهو الكتاب الذي يعارض الجاهلية (السلوك القبلي ما قبل الإسلام) ويطالب الفرد بتفعيل ضميره في السعي خلف الحرية والعدالة. لقد كان الإسلام هو من أنتج البنى الفكرية والفلسفية التي تحدت أفكار الماضي، والتي لا يمكن وحدها أن تنشئ ثقافة جديدة، الناس لا بد أن يضَمّنوا هذه البنى في روتين حياتهم، وهو بالأمر غير اليسير. إن طرق الثقافة المتعارف عليها في الانتشار والبقاء داخل مجتمع تحمل بداخلها زخمًا وسلطة البقاء.

إنه في نقطة الاتصال هذه (بين التفكير والممارسة) يمكننا أن نبدأ في البحث عن خطوط الصدع التي أدت لانتشار الجهل والظلم والاستبداد في

أنحاء العالم الإسلامي. هذه الصدوع تقبع داخل التاريخ الإسلامي الإجتماعي وليس النصوص الدينية، فالثقافة العربية الإسلامية وليس الإسلام هي التي لم تظهر أي ثقة أو إيمان في الديمقراطية أو التفكير النقدي.. إن التاريخ الإسلامي هو تاريخ بشري، مبني على عوامل اجتماعية، سياسية واقتصادية، وقد تطور فهم القرآن ومحاولة تطبيق رسالته من خلال تلك العوامل. الدين يحدد شكل الحياة الإجتماعية، لكنه يكتسب صفاته لحد بعيد من العوامل الموجودة في هذا المجتمع، لم يكن هناك أبداً شيء كإسلام مطلق نقي لا علاقة له بالجغرافيا والتاريخ، كما لا يمكن أن نصف مظهراً واحداً للإسلام بأنه الحقيقي، سواء كان هذا المظهر يأخذ شكل أزهر مصر، حركة طالبان بأفغانستان، الهوزة بالعراق، الزيتونة بتونس، الوهابية بالسعودية أو الديانات بتركيا. لكننا نستطيع أن نتحدث عن بعدين للإسلام، البعد التاريخي الذي يقدم عرضه الخاص بغض النظر عن إيمان وأخلاقيات سياق القرن السابع، والبعد الكوني الذي يعبّر عن قيم الوقت والمكان.

يؤكّد بعض المفكرين المسلمين على أهمية البعد التاريخي في تأويل الإسلام، وهو ما أكده مجال الفقه، فلقد تعامل الفقهاء مع وقائع فعلية للأفراد داخل مجتمعهم. في حين تعتبر مختلف جماعات الإسلام السياسي من الأصوليين أن رؤية الفقهاء للقرآن هي وجهة النظر الوحيدة الحقيقية والصالحة لفهم الإسلام، فهي تقر بضرورة تطبيق قانون الشريعة ـ وهو قانون بشري مستقى بشكل كبير من النصوص المؤسسة للإسلام (القرآن والسنة النبوية) مع إجماع الأجيال السابقة ـ في المجتمع الإسلامي، وعلى

مدار التاريخ الإسلامي كان فهم الفقهاء للدين هو المسيطر وهو ما تم فرضه بالقوة.

إن قراءة القرآن من منظور مختلف توضح الأهداف الكونية والشاملة التي نادى بها، على سبيل المثال، فإن إنشاء مجتمع من المؤمنين دون الاعتماد على السلوك القبلي للامتلاك الذي يتحكّم في حياة الفرد بشكل ديكتاتوري، أعلن عن بداية ما أسميه التعامل البشري العاقل. لقد حرّر التفكير العقلاني الفرد من واجب الإذعان غير المنطقي لقانون القبيلة، في سبيل استبدال أفكار الجاهلية بالتفكير البشري المنطقي.

مثال آخر هو تقليد الزكاة، حيث أصبحت العدالة الاجتماعية وجه هام للتعبير الديني. أدت حرية التصرف حسب الضمير الفردي والاهتمام بالفقراء إلى تخطي الحدود الجغرافية نحو فهم أكثر عالمية للدين. يظل هذا الفهم الواسع للإسلام، والذي يمثل المبادئ الإنسانية الأساسية، مهمشًا سياسيًا وفكريًا في العالم الإسلامي. أعتبر نفسي من فئة المفكرين الإسلاميين المعاصرين القليلة التي تحاول تخليد هذا الفهم الواسع للإسلام من خلال الكتابة والخطاب العام، وأرى أن هذا الفهم العالمي هو الأكثر تأثيرًا في العالم المعاصر. لقد أنتج المعتزلة الذين ذكرناهم في البداية تفكيرًا عقلانيًا يمكّن من مواكبة مقتضيات الحداثة في القرن التاسع.

أسس المعتزلة لمبدأ وجود أساس المعرفة بالعالم المرئي، أما العالم غير المرئي يمكن أن نتحدث عنه بناء على أسس دلالات الحقيقة المثبتة في العالم المرئي فقط، فالله ورسله فقط هم من يمكن معرفتهم من خلال انعكاسهم والمعرفة المكتسبة، وليس بالضرورة من خلال المعرفة المباشرة أو المكشف

عنها، تتجلى هذه النقطة بوضوح في حكاية ابن طفيل في القرن الثاني عشر عن حي بن يقظان.

هي حكاية جزيرتين، لم يتواجد بأحدهما أي إنسان سوى حي بن يقظان، طفل صغير يصل يومًا ما للشاطئ في صندوق طاف. تعتني به غزالة حتى تتوفى، ليجد نفسه وحيدًا عليه أن يلبي احتياجاته بنفسه، فيتطور ذكاؤه الفطري والضعيف في البداية، ومن خلال عملية الملاحظة والتفكير يكتسب حي معرفة العالم المادي. يأخذه تفكيره لمجال الميتافيزيقا، ويصل لأن هناك خالقًا قويًا لهذا الكون. ومن خلال منهج عقله وجسدة الناسك يسعى للتوحّد مع هذه الروح الخالدة التي توصّل في فهمها إلى أنها الخالق، حتى يصل في النهاية لحالة من النشوة يصبح فيها قادرًا على فهم تلك الأشياء التي لم تكن عيناه قادرتين على رؤيتها أو سماعها. لقد حصل حي بن يقظان على المعرفة الكاملة دون نبي أو وحي واستشعر السعادة اللانهائية في اتحاده الميتافيزيقي مع الله.

ثم لدى تجوّله يوما ما بالجزيرة يفاجأ حي باكتشاف مخلوق آخر مثله، رجل دين اسمه آسال، وافد جديد من الجزيرة المجاورة، حيث يحكم الملك سالمان. حياة آسال على الجزيرة كانت تدور حول نظام ديني تقليدي يستخدم المكافآة والعقاب لضمان التزام الناس. حين توصّل آسال لمستوى عميق من الروحانية، أعمق من زملائه، قرر الذهاب لجزيرة ظنّها مجهولة، لكي يصل لمستوى أكثر عمقًا من خلال الوحدة والتقشف.

يعلّم آسال حي اللغة، ويتعجب حي لاكتشافه أن الحقيقة النقية التي عانى من أجل أن يصل إليها في وحدته، هي ذاتها التي يتحدث عنها الدين الذي يعلمه آسال. حين يعلم حي عن الحالة التي عليها الناس في الجزيرة الأخرى، يحركه شغفه ليذهب هناك، ليعرض عليهم الاستفادة من معرفته، ويضطلع حي وآسال بهذه المهمة معًا، لكنها تفشل فشلاً ذريعًا، فمعظم المستمعين لم يفهموا عن ماذا يتحدث حي، ووصفوه بأنه حديث خطير وصاروا معادين له. ولأنهم مسجونون في حواسهم، فإنهم يتجاوبون فقط مع الصور الملموسة، لقد كانت طبيعتهم الأخلاقية تتجاوب مع المكافآت والعقاب. أدرك حي أن طريقة النبي معهم كما ذكرت بالقرآن هي الطريقة الفعّالة لهم، فيعتذّر عن تدخله ويطلب منهم أن يظلوا مخلصين لدينهم ويعود مع آسال لجزيرته الأم. إن اسم البطل في هذه القصة موحٍ، فحي بن يقظان يدل على الصحوة، فالإنسان يكون حيًا فقط إذا ما نشط ذهنه.

من خلال ملكة التفكير يصل الإنسان لمعرفة الله. المعرفة بالله لا تعتمد على الوحي، مع عدم تعارضه مع المعرفة المستقاه من التفكير البشري، على عكس التنوير فهو ليس مجرد ممارسة فكرية خالصة. بطل القصة حي بن يقظان وصل من خلال ممارسته للتقشف مع تطوير ملكاته الفكرية للاتحاد مع الله، وهو فعل يحدث فقط من خلال العقلانية والصوفية.

أثر ابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨) على الفلاسفة اليهود والمسيحين (موسى بن ميمون ـ توماس أكويناس ـ ألبيرتس ماجنس) من خلال تفكيره العقلاني. طرح ابن رشد فكرة أن المعرفة الحقيقية تتخذ شكلاً فلسفيًا

وعقلانيًا، ويجب أن تتاح فقط لقلة نخبوية تستطيع أن تطلع على تلك المعرفة، لأنها حسبما رأى قد تكون ضارة على إيمان معظم الناس. لقد رأينا هذا في قصتنا، شعر حي بضرورة أن ينسحب هو ورسالته وأفكاره من الجزيرة الأخرى، لأنهم نتيجة لاتباعهم وتمسكهم بالتعاليم الدينية بحرفية لم يستطيعوا أن يفهموا خطاب حي المتقدم.

قبل مجيء ابن رشد، كتب أبو حامد الغزالي (١١١١) صوفي، كتابه الأهم على الإطلاق وهو "إحياء علوم الدين[39]"، هذا العمل أصبح شعبيًا لدرجة لم يصل إليها سوى القرآن وكتب الحديث. أكّد الغزالي فكرة أن المعرفة الصوفية ليست للجميع، وذكر بوضوح أنه يؤمن بأن المعرفة الحقيقية، والتي تتخذ في نظره نمط الفهم الصوفي، ليست للعوام، لكن يتم وحيها لمجموعة مختارة. وعلى الرغم من اختلاف توجهاتهم الفلسفية اتفق ابن رشد والغزالي على ضرورة الحفاظ على مسافة بين العوام والمعرفة الحقيقية. ظل هذا التراث هو المسيطر في العالم الإسلامي، خاصة بعد أن تسيّدت كتابات الغزالي الخطاب الإسلامي منذ القرن التاسع عشر.

مع مجيء القرن التاسع عشر حل عهد جديد. شعر العالم الإسلامي بالتهديد من العدوان الأوروبي السياسي، وأصبح الإسلام يعرف ليس فقط كجنسية أو عرق، لكن كمجموعة من الصفات الخاصة المجتمعة في صورة "المسلم" في مواجهة الآخر "الأوروبي". استجاب المفكرون لهذا العدوان بإعادة تعريف الإسلام والثقافة الإسلامية في مواجهة هؤلاء من اتهموا

---

[39] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين. دار الحلبي، القاهرة.

الإسلام كونه عامل تأخر دون النظر للواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للعالم العربي لفهم لماذا أصبحت تلك المجتمعات العربية هكذا. تم وضع الإسلام في موقع الدفاع، بدا الأمر كما لو وجب على الإسلام أن يفسر نفسه كدين عقلاني علمي يشجع على التقدم ويقبل بالمؤسسات الحديثة.

لقد عانيت دائمًا في المكان الذي أضع نفسي محاولاً خلق خطاب إسلامي معاصر. هل يجب أن يبدأ الفكر الإسلامي الحديث بفلسفة ابن رشد والفهم العقلاني الذي دعا له المعتزلة؟ تصورت ذلك، لكنني اليوم لست متأكداً. إن الهوة الكبيرة الموجودة في فلسفة ابن رشد بين النخبة والعوام لن تساعد أبدًا على تحقيق التنوير ـ مجتمع عادل وحر. بحسب ابن رشد فالمعرفة ليست للجميع، ليست متاحة، بل هي منحة نخبوية، بالتالي لا يمكن مأسسة التنوير في المجتمع. لم يصبح التنوير حركة شعبية في أي بلد مسلم، وتاريخنا ممتلئ بكمّ الأمثلة التي فرضت فيها السلطة السياسية تفكيرها على المجموعة العظمى من خلال قوة محاكم التفتيش، ويعد إهمال حرية المرء الفردية وراء استمرار هذا التفكير، لهذا تتكاثر المجتمعات القمعية. كما أن فكرة تقسيم الناس إلى نخبة عالمة وعامة جاهلة، مثقفون وعوام، رجل دولة ومواطن عادي، هي فكرة تسود العالم الإسلامي حتى مع إتاحة التعليم المجاني للجميع.

إن أفكار التنوير ـ حرية التعبير والتفكير ـ والتي أصبحت جزءاً من بحثي الأكاديمي، غير محققة في العالم الإسلامي، خوفًا من اختفاء القيم

الإسلامية إذا ما أطلقت الحريات كما تراها حركة التنوير. هناك إحساس دائم بضرورة وجود مناطق أمنية، أماكن غير متاحة للنقاش الفكري والتحقيق الأكاديمي. إن حرية البحث الأكاديمي، حرية التفكير وحرية التعبير يتم ضمانها فقط طالما لا تصطدم مع ما هو معروف بالحقيقة المطلقة. بالطبع الحقيقة هي تفسير القرآن عن طريق الأصوات الأصولية، الذين لديهم القوة السياسية لفرض آرائهم. لذا يؤكد الإسلام الأصولي - وهو ما ليس بالأمر المفاجئ - على الطاعة كواجب ديني، ودائمًا ما تدمج القواعد الإسلامية السلطة الدينية والسياسية وتعرف بسلطة الله على الأرض. (كان للمسيحية هذا الفهم لسنوات في صورة حق الملك الإلهي).

كما يعتقد الكثير من المسلمين أن حرية التعبير والتفكير هي من منتجات الثقافة الغربية والحضارة الأوروبية، وتتعارض مع الثقافة والحضارة الاسلامية، وفي سبيل تجنب الابتلاع والانسحاق والتلاعب من قبل القوى الغربية الذين اعتقدوا أنهم هزموها يومًا ما، يكون أفضل ما يمكن فعله هو عدم تبني هذه القيم.

هل هناك أمل؟ هل من الممكن رؤية المسلمين يقدّرون قيمة الحرية في مناخ ديمقراطي؟ نعم، بالطبع. إلا أنه من الضروري أن مواطني ما يعرف بالدول الديمقراطية فَهْم أن بلادهم تمتلك المصالح الاقتصادية والسياسية لتخرب الشيء الوحيد الذي تريد بناءه في الدول الإسلامية، ألا وهو الديمقراطية، كما يجب فهم أن الإسلام ليس من يمنع المسلمين من قبول

الديمقراطية، لكن التيار الديني والسياسي السائد الذي يدّعي معارضة الإسلام للحداثة.

تمارس الأنظمة السياسية في العالم الإسلامي لحد كبير ما أطلق عليه حداثة من دون عقلانية. بما أن الديمقراطية لا تعتمد فقط على احترام الفرد، لكن تأخذ في اعتبارها رأيه من خلال الانتخابات، يبدو أن افتقاد العقلانية عبر العالم الاسلامي هو ما يعوق طريقها. إن تركيا الدولة المسلمة الوحيدة التي تدّعي دومًا أنها دولة علمانية، تتحكّم فيما تطلق عليه ديمقراطية عن طريق مراقبة عسكرية، آية الله بإيران بعد أن حصل على السلطة، لم يستعد الخلافة كما هو متوقع، لكنه أنشأ جمهورية ظهرت بها كل المؤسسات الديمقراطية، الانتخاب الحر، مجلس الشعب، دستور.. إلخ، لكن هل يمكن أن توجد الديمقراطية ورجال الدين متحكمون في السلطة؟ هل أنتج تطبيق قانون الشريعة كما يفسره آية الله مجتمعًا ديمقراطيًا؟ هل يمكن الترحيب بحزب علماني في إيران؟ أشك في هذا، تعكس كلتا الدولتين تحت أغطية مختلفة هذه الحداثة غير العقلانية.

أمّا الغرب فهو يبذل ما يقدر عليه من ضغوط على العالم الإسلامي للحفاظ على مصالحه الاقتصادية والسياسية. لقد كان هناك عدد من الأنظمة السياسية الكاريكاتورية في البلدان الإسلامية (إيران، العراق، أفغانستان) ظلّت في مكانها بمساعدة قوى الغرب ضد إرادة الشعب الإسلامي، هل هذه هي الديمقراطية؟ لا يمكن. بالإضافة إلى تصوير الإسلام، خاصة عن طريق الإعلام الغربي، كدين عنيف معادٍ للقيم الغربية. كيف أن العديد من الدول

النامية لديها تلك الفجوة المتّسعة بين ما يمكن الحصول عليه وما لا يمكن؟ الحداثة وحقوق الإنسان والديمقراطية تبدو أنها مجال المحظوظين الذين عادة ما يغضّون الطرف عن غير القادرين الصارخين بتطبيق العدالة. هذا النداء للعدالة، حين يمضي دون اعتبار ممن يملكون السلطة يتحوّل إلى عنف، وقد نثرت بذور العنف في نقطة الاتصال هذه، وليس في الإسلام أو أي دين آخر.

كيف نمضي قدمًا؟ لقد تتبّعت الصراع بين القوى الدينية والعلمانية التي اختبرناها نحن الثقافات الاسلامية في غياب منبر عام للحوار والجدل، حيث تدور العديد من الأفكار والآراء بيننا. أعتقد أن الدفاع عن الديمقراطية دون شرط هو الطريقة الوحيدة لبلورة تلك الأفكار والآراء. إنه لمن الضروري أن ندافع عن ديمقراطية لا تغلق عينيها عن تلك الآراء الآتية ممن نعتبرهم أعداءنا. لقد استطاع العالم المتطور أن يصل لمكانته تلك بتنظيم هذه الخلافات من خلال ميكنة الديمقراطية، معتمداً بشدّة على حرية التعبير، وحان الوقت لكي يقوم العالم العربي بذلك. القول المأثور: "أنا أختلف معك، لكنني على استعداد أن أفقد حياتي في سبيل حريتك في التعبير عن رأيك" يجب أن يتخلّلنا حتى النخاع. هؤلاء من يخشون الاختلاف عليهم أن ينظروا مرة أخرى على تاريخنا، متى اتّفق العرب على أي شيء؟ تاريخيًا كان هناك اختلاف دائم في وجهات النظر بيننا.

في التاريخ الحديث استطاع المسلمون أن يقدّموا جبهة موحّدة في مواجهة الإمبريالية الغربية والصهيونية. استطاع هذان الخطران أن يقضيا

على احتمالية إقامة ديمقراطية مدنية تعددية مبنيّة على التداول السلمي للسلطة. في نفس الوقت، أعتقد أن الدول الديمقراطية التي ورّثت قيم الحداثة ـ حرية التفكير والتعبير ـ في حاجة لاستعادة هذه الحريات وتطبيقها على مجتماعتهم. على الغرب أن يعيد ترتيب البيت من الداخل، وعلى المسلمين التركيز على إنشاء مجتمعات عادلة قائمة على إعادة تقديم الخطاب الديني والسياسي في الحياة اليومية. الرؤية بمنظور جديد مختلف هي الطريقة التي ستتيح لنا بناء مجتمع أفضل. لقد حان الوقت أن نتخلّص من الجاهلية والطاعة العمياء لأصوات القدامى.

ملحق

كلمة جائزة حرية العبادة

آنا إيليانور روزفلت

في يومنا هذا، الثامن من يونيو ٢٠٠٢، تُمنح ميدالية فرانكلين ديلانو روزفيلت لحرية العقيدة لنصر حامد أبو زيد، والذي يشغل منصب كرسي كيلفيرنجا في جامعة لايدن، كمدافع عن حرية الفكر والضمير. وكما دافع بروفيسور كيلفيرنجا الذي وقف معترضاً في ١٩٤٠ ضد طرد النازيين لجميع الأساتذة اليهود، أنت كأستاذ للدراسات الإسلامية، هاجمت كأستاذ للدراسات الإسلامية كلاً من الإسلاميين الذين تبنّوا الدعوة ضد المسلمين الذين لا يقبلون برؤيتهم، وهؤلاء من ساووا في الغرب عن جهل وتعالٍ ثقافي بين الإسلام والإرهاب. لقد تحدّثت في قوة وبلاغة، متحملاً نتائج هذا على حياتك الشخصية، متعاملاً بشجاعة بطل للحرية الفكرية لأستاذ وتلميذ ورجل دين ورجل عادي، وخلال هذا كله، ظللت على التزامك القوي بمبدأ "الرجل يعد حيًا فقط حين تنشط قريحته الفكرية".

لهذا الموقف الشجاع، وإن اتخذته وحيداً، تم نفيك من مصر بحكم محكمة لعام ١٩٩٥، المحكمة التي أعلنتك مهرطقًا مرتداً يجب ألا تظل متزوجًا لزوجتك العزيزة، د. ابتهال يونس. الآن وأنت تحيا بهولندا، التي كانت منذ القرن السابع عشر ملاذاً للمنفيين الدينيين من إنجلترا في طريقهم للعالم الجديد، والتي استمرت معتنقة روح مبادئ الحركة الإنسانية لإراسموس روتردام العظيم، أنت في المكان الصحيح الذي يمكن أن تتحدث منه للعالم.

لقد استطعت كباحث بعلم تأويل القرآن، يعي بوضوح تطور مدارس التأويل الكبرى بالفكر الإسلامي منذ القرن السابع، أن تتبنى منهجًا إسلاميًا يجمع بين العقلانية والصوفية، ومن خلال انتقادك لمعارضي العلمانية المسلحين ـ من نطلق عليهم الأصوليين في أمريكا ـ من يبررون أفعالهم العنيفة باسم الله، استطعت أن تشير وتبرهن على مواضع روح التسامح والسلم، بل والمساواة بين الرجال والنساء في القرآن.

كطفل قروي يكبر في قحافة، قرية بدلتا النيل، حفظت القرآن بسن الثامنة، لكن متحولاً عن تلك الدراسة التي أحببتها، بفعل والدك، أصبحت فني لا سلكي في فترة أتاحت لك أن تتعرف عن قرب بالإخوان المسلمين قبل العودة مرة أخرى للدراسات القرآنية. ومع إعجابك بإلتزام الإخوان المسلمين بالأفكار التي يقتنعون بها، لم تثق في آيديولوجيتهم الخاصة بدمج الإسلام ومفهوم الدولة، وهو التطور الحديث في التاريخ الإسلامي، والذي تعتبره أمراً يؤدّي لا محالة لديكتاتورية شمولية، وهي أسوأ أنواع الاستبداد، لأنها تمارس السلطة على الأرض متخذة اسم الله.

وكباحث جادٍ للإسلام واللغة العربية، درّست في فيلادلفيا وأوساكا والقاهرة، وكتبت في خلال وجودك باليابان كتاب "مفهوم النص" مؤولاً القرآن في سياقه التاريخي، وهو المنهج الأكثر إثارة للجدل من وجهة نظر الإسلاميين الأصوليين.

مع بزوغ فجر هذا القرن الجديد، حيث عدم التسامح العقائدي يلوح في الأفق كأخطر مصادر الخلاف، بل والإرهاب، بين البشر، كان استقلالك الفكري الشجاع، إخلاصك للإسلام، وضوح رؤيتك، تحمسك لفهم الفلسفة الأوروبية الغربية والدين، كما مفهوم الحداثة، وإيمانك بالإنسانية، ما يجعل من صوتك لا غنى عنه في حوار الحضارات، المطلوبة بشدة لتعزيز الاحترام والفهم المتبادل. عسى أن تسبغ عليك هذه الميدالية لحرية العقيدة روح فرانكلين روزفيلت، وتمدّك بالقوة المتجددة لتحافظ بها على مسعاك الدائم لتحقيق التنوير الحقيقي بين الرجال والنساء من كل الأديان والطبقات وجهورك المتنامي من التلامذة.

كلمة جائزة حرية العبادة

نصر ابو زيد

بسم الله الرحمن الرحيم

جلالتك ،

صاحبة السمو الملكي ،

إليزابيث روزفيلت

مارجريت روزفيلت

السفير ويليام فاندين هوفل

فان جيلدر ، مفوّض الملكة في زيلاند

حضراتكم ،

السادة والسيدات ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إنه لشرف عظيم أن أتقلد ميدالية حرّية العبادة هذا العام، على ما يتضمنّه هذا الشرف من مسئولية. لقد استطاع الإسلام عبر تاريخه، كآخر الديانات الإبراهيمية، أن يعترف ويحترم كل الديانات التي سبقته للوجود، ويؤسّس لمبدأ "حرية العقيدة والعبادة" كأحد أركان الإيمان الأساسية. حتى المفهوم التقليدي، الذي يصف غير المسلمين بـ"أهل الذمة" يعكس وجود مجال من التسامح داخل الإطار التقليدي للفكر الإسلامي.

إلا أن الواقع يعكس شيئًا آخر، وهنا تأتي مسئولية المفكّرين، الكتاب والباحثين في كل الثقافات. إن "الحريات الأربع"، (حرية التعبير، العبادة، الاكتفاء، الأمن)، هي حق لكل إنسان في العالم. لم يتحقق حلم فرانكلين ديلانو روزفيلت للأسف، فما زال عالمنا في الألفية الثالثة يسكنه الخوف، الحاجة والاضطهاد والظلم. ما زالت حوادث كهدم بيوت العبادة من قبل المتعصبين دينيًا، اقتحام السياسيين للكنائس باستخدام القوات العسكرية، التطهير العرقي لمن يعتنقون دينًا مختلفًا، تحدث حول العالم، هذا ما يجعل من تقلّد هذه الميدالية مسئولية ثقيلة.

أشعر كمسلم وباحث بالدراسات الإسلامية، بل وأول مسلم يحوز مثل هذا الشرف ويتقلّد هذه الميدالية، بضرورة أن أبيّن ما أعتقده الرسالة المزدوجة التي يتضمّنها هذا التكريم، إنها رسالة أتوجّه بها للعالم الغربي والإسلامي على حد سواء. إن الإسلام ليس دينًا ثابتًا جامدًا، أو مجموعة من الأوامر المحددة، إنه ليس دينًا عنيفًا أو إرهابيًا بطبيعته، وأي دين يمكن إساءة استخدامه، تسييسه، والتلاعب به لصالح خدمة آيديولوجية معيّنة.

إن القرآن، كتاب المسلمين المقدّس، هو كتاب صامت، لا ينطق عن نفسه، بل ينطقه الناس ما أرادوا، وبما أنه كلمة الله للإنسان، فإن فهمه وتأويله يعكس البعد البشري للدين. لذا، فمن غير المقبول أن يكون الإسلام مسئولاً عن المشاكل التي قد يواجهها المسلمون في واقعهم الاجتماعي والتاريخي.

أودّ لو أتّخذ فرصة هذا التكريم الاستثنائي لتوجيه التحية لرجل عصرنا العظيم، السيد نيلسون مانديلا، الرجل الذي عانى أبلغ المعاناة لمدة

ثلاثين عاماً ليحقق السلام والمساواة ببلده. والأكثر من هذا، حين انتصر، لم يتبع ردّ فعل الشعب العاطفي المطالب بالثأر، بل أصرّ على المناداة بالتسامح ومداواة جروح الماضي في سلام، كما أنه تنحّى بشكل سلمي عن منصبه السياسي ليحارب في جبهة أخرى، جبهة احتياجات الإنسان على مستوى العالم.

عزيزي السيد مانديلا

أتمنى ألا ينسى العالم الدروس التي علّمتها له، وإنه لشرف عظيم لي أن يذكر اسمي بجانب اسمك العظيم.

ليبارككم الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عن المؤلفين

نصر أبو زيد، أستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة لايدن في هولندا.. نشر أبو زيد عدّة كتب باللغة العربية وعدداً من المقالات بالإنجليزية. تقلد أبو زيد في عام ٢٠٠٢ ميدالية مؤسسة فرانكلين وإليانور روزفلت لحرية العبادة.

إستر. نيلسون، أستاذة الدراسات الدينية بجامعة فيرجينيا كومنولث، كاتبة حرّة نشرت العديد من أعمالها في مختلف المطبوعات المتداولة.

المحتويات

الكتب خان للنشر والتوزيع®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.
تليفون : ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد اليكتروني : info@kotobkhan.com
موقع اليكتروني : www.kotobkhan.com





«أعرف جيدًا أن أبحاثي مثيرة للجدل، وأحمل عبء التنقل بين الأفكار، لكن أليس هذا هو الهدف من المؤسسة الأكاديمية والبحث؟ الأفكار، المناقشات، التدريس والبحث. المناخ في مصر حاليًا لا يمثل سوى الركود الفكري في دراسة الدين، لقد أنتج الافتقار لأي مساحة عامة لتبادل ومناقشة الأفكار عقلية محاصرة، وبالتالي أصبح عرض أي شروح أو تأويلات جديدة للدين فعل كفر. وعلى اتساع العالم الإسلامي، لا يوجد في جامعاته أي مدارس فكرية أو دراسات مقارنة، بل الكثير من الوعظ، وبالتالي فاستخدامي لطرق غير تقليدية في البحث العلمي كان كفيلاً بأن ينعتني بالردة».

نصر حامد أبو زيد

يقدم هذا الكتاب السيرة الذاتية لنصر حامد أبو زيد كما عاصرها ورواها بنفسه، من خلال حوار مطوّل أجراه مع الأستاذة الجامعية إستر نيلسون. توضح هذه السيرة بمواقفها المتعددة، الظروف الاجتماعية والسياسية التي صاحبت نشأة أبو زيد، وأثرت على تكوينه الفكري وإنتاجه العلمي. لم يرد أبو زيد يومًا أن تضم كتبه مجموعة من النظريات الجامدة التي لا يمكن تطبيقها على أرض الواقع. ركّز أبو زيد دومًا على أهمية تطبيق قواعد التفكير النقدي والبحث العلمي في مجال الدراسات الإسلامية، وهو أكثر المجالات البحثية التي أدمنت سبل الوعظ والخطابة.

دافع أبو زيد عن قناعاته الفكرية في أحلك الظروف، فصله من الجامعة، وقضية التفريق بينه وبين زوجته الدكتورة ابتهال يونس، انتهاء بنفيه في هولندا. لم تتغير أولويات خطابه مع تبدّل الظروف المحلية والعالمية، بل حافظ على رؤيته الواضحة لكيفية تجديد الخطاب الديني، والذي صار - حسبما رأى - أمرًا ملحًا أكثر من أي وقت مضى.

لم يكن الخلاف الذي أثير بقضية أبو زيد في جوهره دينيًا، بقدر ما كان سياسيًا. حاول أبو زيد بجانب إنتاجه الفكري أن يخلق مناخًا متسعًا يمكن أن يناقش فيه القضايا التي يجب على المسلم المعاصر مواجهتها، لكنّ خطابه جاء واضحًا صريحًا، فأربك معاصريه، ودفعهم لتحويل القضية لمسارات جانبية، لتختفي أفكاره وراء مانشيتات الصحف.

الناشر



ISBN 978-977-6306-51-6
9 789776 306516